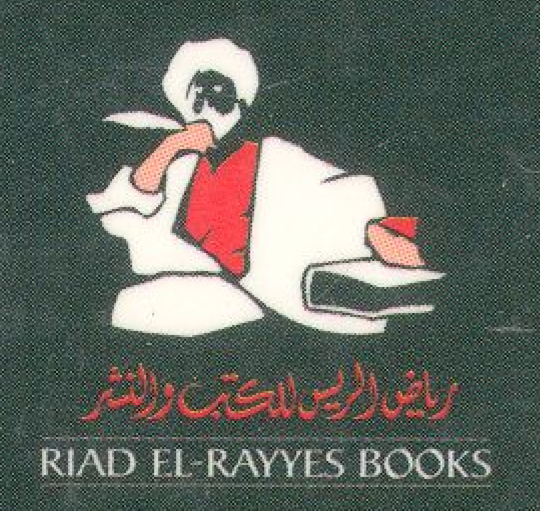
بشارة منسّى

رسائل إلى العروبة

الخلفية الحضارية لأميركا



رسائل إلى العروبة

بشارة منسّى

رسائل إلى العروبة

الخلفية الحضارية لأميركا



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

LETTERS TO THE ARABS
The American Civilisation background
By
Bechara Menasa

First Published in December 2004

BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb • www.elrayyes-books.com
• www.elrayyesbooks.com

ISBN 97 89953 21184-8

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٤

المحتويات

إلى كل ناطق بالضاد

هذا الكتاب يتناول مواضيع تتصل بالحضارات والثقافات ولا يطاول الموضوع الميتافيزيقي أو الإيماني الذي يبقى ملكاً للأفراد.

١

الثقافة والحضارة

وجود حضارة غربية مسيطرة في عالمنا الحديث حقيقة لا بد من الاعتراف بها. يبقى أن نعرف موقفنا منها كأبناء حضارة عربية إسلامية وما الذي يحول دون التفاعل معها على غرار ما فعلت الحضارات الأخرى كاليابانية أو الصينية؟ هل هو اعتقادنا أنه يوجد في العالم عدة حضارات وأنها متساوية، وأننا واحدة منها وأنها تسير جميعها بخطى وطيدة للوصول بالإنسان حيث يجب أن يكون؟

يوم انطلقت الدعوة الإسلامية في الجزيرة العربية سرعان ما شكّل العرب والشعوب التي اعتنقت الإسلام الحضارة المتقدّمة المتفوقة. أصبح العرب والمسلمون لعدة قرون، كما كان البابليون والفراعنة والصينيون واليونان والرومان، الحضارة الأولى ولفترة غير وجيزة من تاريخ الإنسانية.

استمر هذا التفوق في محيطه حتى القرن الخامس عشر. وتشاء الأقدار أن تكون نفس الفترة التي شهدت انتصار الأتراك المسلمين على بيزنطيا شهدت أيضاً خروج المسلمين من الأندلس واكتشاف أميركا واختراع الطباعة التي شكلت عنصراً أساسياً في انتشار المعرفة وبالتالي قيام عصر النهضة(١).

ليست الولايات المتحدة اليوم إلّا الوجه الآخر للحضارة السائدة التي قوامها وقاعدتها أوروبا، وما ادعاء بعض المحافظين الجدد كما جاء على لسان وزير الدفاع الأميركي في إحدى مقابلاته الصحافية، أن هناك أوروبا قديمة تعارض الولايات المتحدة وأوروبا جديدة تساندها إلّا قمة الاستكبار الزائف(٢).

---

(١) دخل العثمانيون القسطنطينية في ٢٩ أيار ١٤٥٣.
- سقطت غرناطة آخر معقل للعرب في الأندلس على يد الملوك الإسبان فردنان دارغون وإيزاسيل دي كاستيل عام ١٤٩٢.
- اكتشف كريستوف كولومبس القارة الأميركية في ١٢ تشرين الأول عام ١٤٩٢.
- اكتشف الألماني يوهانس غوتنبرغ أحرف الطباعة عام ١٤٤٠ ثم صنعها وتعممت في أوروبا ابتداء من العام ١٤٥٠.

(٢) قال رونالد رامسفيلد لوسائل الإعلام غداة معارضة فرنسا وألمانيا وروسيا مشروع اجتياح العراق في نيسان ٢٠٠٣، إن الدول التي تعارض الولايات المتحدة تشكل أوروبا القديمة وليست الحديثة. بالإضافة إلى كل ذلك فإن شهادة كوندوليزا رايس أمام مجلس الشيوخ في ٢٠٠٤/٤/٧ أعطت الدليل على أن رونالد رامسفيلد ونائبه بول وولفويتز انفردا في تأييد نظرية اجتياح العراق عاقدين الأمل على أن الجيش الأميركي سيُستقبل كالمحرر في العراق وأن اجتياح هذا القطر العربي ضرورة لأمن الولايات المتحدة.

لا يختلف علم الفيزياء أو الكيمياء أو الذرة في الولايات المتحدة عن علم الفيزياء والكيمياء والذرة الذي ولد في أوروبا مع عصر النهضة. كذلك لم يكن في الاتحاد السوفياتي علم يتفرد به الشعب الروسي عن غيره من الشعوب. وهذا يصح أيضاً بالنسبة إلى الصين أو اليابان. الطائرة والمختبر والصاروخ الصيني أو الياباني كانت انطلاقته أوروبية، ورثته عن أوروبا جامعات ومختبرات الولايات المتحدة واليابان والصين.

أما العوامل التي أدت إلى عصر النهضة فيلخصها المؤرخون بثلاث مراحل شكلت المنطلق والرحم المولدة لهذه النهضة: انتشار المعرفة بفضل اكتشاف الطباعة من قبل غوتنبرغ عام ١٤٤٠ ـ١٤٥٠؛ إطلاق حرية الفكر بإعلان مارتن لوثر أطروحاته الـ ٩٥ عام ١٥١٧؛ بزوغ فجر حرية العلوم مع اكتشافات كوبرنيك الفلكية وتطويرها من قبل غاليله ومحاكمته في روما عام ١٦٣٣[٣]، وإن بدت هذه الحلقات الحضارية وكأنها منفصلة ومتباعدة بين حقبة وأخرى إلا إنها تتكامل رغم تباعد الزمن في توالدها[٤]. فالحضارة اليونانية التي اعتبرت الأساس في النهضة الأوروبية للقرن السادس عشر كانت دخلت في سبات عميق بعد سقوط الأمبراطورية الرومانية في شريحتها الأوروبية على يد القبائل الجرمانية، فجاء العرب والمسلمون فأحيوها في بغداد والأندلس. وأطلقوا بذلك الشرارة الأولى للنهضة الأوروبية.

---

(٣) غاليليو غاليله ١٥٦٤-١٦٤٢ جرت محاكمته أمام محاكم التفتيش عام ١٦٣٣ بسبب كتابه: **حديث حول النظامين الكبيرين اللذين يقودان العالم**، فتراجع عن نظريته كي ينقذ حياته.

(٤) Arnold Toynbee 1975-1889, L'Histoire, Payot, 1996.

إن رائد نظرية الحلقات الحضارية المتواصلة رغم الفجوات بينها هو أرنولد توينبي علماً بأنه قد يكون استوحي ابن خلدون في «المقدمة» وإدوار جيبون في مؤلفه الشهير «تاريخ انحطاط الأمبراطورية الرومانية وسقوطها»(٥). علماً أن حضارة روما المسيحية استمرت عبر بيزنطيا حتى سقوطها تحت ضربات العثمانيين عام ١٤٥٣.

ليس من حضارة تختصر كل الحضارات ولكن ليست كل الحضارات وفي نفس الفترة التاريخية على نفس المستوى الحضاري. اليونان استلهموا الفرس والفراعنة وبابل كما فعل الرومان والعرب بعدهم ثم أوروبا النهضة.

---

(٥) عبد الرحمن ابن خلدون تونس ١٣٣٢-١٤٠٦. يعتبر من أكبر المؤرخين العالميين وكتابة «المقدمة» من المراجع الأساسية في تاريخ الحضارات العربية والإسلامية خاصة.

- إدوارد جيبون (Edward Gibbon) 1776-1788 مؤرخ بريطاني ومرجع أساسي في تاريخ روما القديمة.

٢

الولايات المتحدة ـ الحضارة

الولايات المتحدة هي بنت أوروبا: دينياً وفكرياً وعلمياً وصناعياً. خصوصيات أميركا هي في الأسلوب كما كانت خصوصيات الشيوعية: نفس العلوم، نفس المدرسة التي هي من منجزات النهضة الأوروبية.

بدأت تباشير التفوق الأميركي تلوح في الأفق، اقتصادياً وصناعياً ثم علمياً ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر. ففي عام ١٨٨٥ أصبحت صناعة الولايات المتحدة تتفوق على الصناعة البريطانية واستهلاكها للطاقة يفوق استهلاك فرنسا وألمانيا والأمبراطورية النمسوية وروسيا واليابان وإيطاليا مجتمعة[١].

(١) Diplomatie, H. Kissinger T.F., Fayard, 1996, p. 28.

الذي يميز الولايات المتحدة عن أوروبا ليس فقط التقدم في التقنية وحجم الإنتاج إنما أيضاً التواصل بين السياسة والدين الأمر الذي تجاوزته أوروبا بالعلمانية. وقد جاء انتخاب جورج دبليو بوش فأبرز الوجه الأصولي على مسرح الأحداث: من موضوع الإجهاض، إلى أولوية إسرائيل، إلى «محور الشر» التوراتي المضمون.

إن جورج دبليو بوش[٢] الأصولي التفكير هو نقيض جون كنيدي وبيل كلينتون باستثناء نظرتهما إلى تفوق النظام الرأسمالي؛ ولا جدال في أن شخصية الحاكم عندما تتولى قيادات دول عظمى تصبح فاصلة بالنسبة إلى دولها أولاً وبالنسبة إلى العالم ثانية. كان هتلر وستالين وتشرشل وروزفلت يقررون مصير العالم لفترة غير قصيرة من تاريخ القرن العشرين، فينشئون دولاً ويزيلون أخرى. بروز قيادة أصولية ممثلة بجورج دبليو بوش وإن عكست مجتمعاً بروتستانتياً سلفياً[٣] إلّا أن تأثيرها على مجريات الأمور في الشرق الأوسط وفي العالم يختلف عما قد يكون عليه تأثير رؤساء كجون كنيدي أو جيمي كارتر أو بيل كلينتون وأقله بالنسبة إلى فلسطين واندماج السياستين الأميركية والإسرائيلية.

---

(٢) يعتبر جورج بوش الابن نفسه قد ولد مجدداً يوم أقلع عن احتساء الخمر لاعتناقه أحد المذاهب البروتستانتية المتعددة.

(٣) طارق متري، **مدينة على جبل**، بيروت، دار النهار، ٢٠٠٤.
ـ محمد السماك، **الصهيونية المسيحية**، بيروت، دار النفائس، ١٩٩٣.

٣

أميركا والعرب

إن الذي حل بالعالم العربي في شهر نيسان عام ٢٠٠٣ عند اجتياح العراق ما زال مستمراً في تفاعلاته.

عارضت فرنسا وألمانيا وروسيا ضرورة هذا الاجتياح محذرة من مخاطره، إضافة إلى أن هذه الحرب الأميركية المضمون تهمش الدور الأوروبي في سياسة المنطقة والعالم.

كان العراق قبل عام ٢٠٠٣ محوراً أساسياً في العلاقات الاقتصادية الخارجية لروسيا وفرنسا وألمانيا.

يعزو روبير كاغان[١] ـ وهو من المحافظين الجدد ـ موقف أوروبا

(١) La puissance et la faiblesse, Paris, Plon, 2003

المعارض لهذه الحرب إلى ضعفها العسكري وتمسكها «بنظريات قانونية» تختبئ وراءها لتبرير هذا الضعف.

القرار الأميركي باحتلال العراق وإن بدا متلبساً بمبادئ وقائية وإنسانية ـ منع العراق من امتلاك أسلحة الدمار الشامل، إزاحة مجرم ضد الإنسانية عن سدة الحكم ـ فهدفه الأساسي هو الاستيلاء على محور قرار في المعادلة الاقتصادية النفطية بإمكانه التصدي للهيمنة الأميركية ـ الإسرائيلية في الشرق الأوسط. إن المخزون العراقي للنفط يشكل ما يقارب ١١٪ من المخزون العالمي وبالتالي فهو مفتاح لقدرات كبيرة للسيطرة على المنطقة وفي العالم وهو اليوم ثاني أكبر مخزون في العالم.

أما خطورة المشروع الأميركي الذي شكل اعتداء ١١ أيلول ٢٠٠١ حجة له (بيان الحكومة الأميركية لعام ٢٠٠٢) فإنه يكمن في كونه أصبح ذريعة لمشروع استعماري يشبه المشاريع الاستعمارية الأوروبية في القرن التاسع عشر، وإن تلبس ثياب الإنسانية والرسالة الحضارية التي كان يتلبسها الاستعمار الأوروبي في القرون الماضية.

كانت أوروبا تدّعي أن أسباب سيطرتها على العالم هدفها حضاري كإرغام الجزائر ومراكش على العدول عن القرصنة، وبالنسبة إلى اليابان والصين فتح أبوابهما للتجارة مع الغرب ـ وها ادعاءات أميركا تتمحور، بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١، حول إحلال السلام بين الدول ونشر الديموقراطية في العالم.

إن تقاسم العالم من غير جهد من قبل الدول الأوروبية: الهند لبريطانيا، إندونيسيا لهولندا، إفريقيا لفرنسا ـ كان حتمياً بقدر ما أن

هذه الدول من العالم الثالث كانت عاجزة عن مجابهة جيوش حديثة. كان يكفي لإخضاع هذه الشعوب التي تعد بالملايين بضعة آلاف من المرتزقة المدججين بالأسلحة النارية.

التفوق التقني استمر حاسماً في تعامل الشعوب فيما بينها لعدة قرون. حتى المقاومة الأوروبية ضد النازية لم تحقق انتصاراً يذكر أمام جحافل هتلر المدججة بسلاح متقدم خلال الحرب العالمية الثانية. وبالفعل لقد حرر غرب أوروبا الجيش الأميركي، وحرر شرقها الجيش الأحمر.

ولم ينته الاستعمار الأوروبي إلّا بعد انقسام أوروبا على نفسها في الحربين العالميتين الأولى والثانية. نتج عن الحرب العالمية الأولى نشوء دولة عظمى مناهضة للاستعمار المألوف هي الاتحاد السوفياتي، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية تطوي صفحة الاستعمار القديم وإن جرى ذلك على مراحل. ولا شك أنه كان للاتحاد السوفياتي دور في سقوط آخر معالم الاستعمار القديم.

انهيار الاتحاد السوفياتي أفسح في المجال لاحقاً أمام قيادة أحادية للعالم. وهنا يجدر طرح السؤال: هل كان نفوذ الاتحاد السوفياتي في أوروبا الشرقية والمعسكر الاشتراكي استعماراً وهل أن سيطرة الولايات المتحدة على مقدرات العالم بعد سقوط المعسكر الاشتراكي تتماهى مع الاستعمار الأوروبي القديم؟ شومسكي[٢] لا يتوانى عن اعتبار هذا المستعمر الأميركي وشركائه ـ ومنهم إسرائيل ـ أشد ظلماً للشعوب من الاستعمار الأوروبي القديم، والمثال على ذلك ما تتخبط به دول

(٢) نعوم شومسكي، عالم لغوي ومفكر أميركي معارض.

أميركا اللاتينية من تخلف نتيجة هذه الهيمنة الأميركية المقرونة باسم رئيس الولايات المتحدة جيمس مونرو[٣]، وكذلك الحال في فلسطين.

يعتقد نائب وزير الدفاع الأميركي وأحد منظري المحافظين الجدد بول وولفويتز أن على الولايات المتحدة أن تزيل بالقوة كل موقع يشكل تهديداً لهذه الأحادية الأميركية في تقرير مصير العالم.

وليس من المغالاة القول أن هذه الأحادية التي أصبحت منهجية في سياسة الولايات المتحدة، تجعل من العالم بأسره محمية أميركية على غرار ما أعلنه الرئيس الأميركي جيمس مونرو عن القارة الأميركية عام ١٨٢٣.

من هنا أهمية وخطورة القرار الأميركي في ما يتعلق بشؤون العالم، ومن هنا تنجلي نتائج هذا القرار الأميركي على مصير الشعوب المعنية به وضرورة التصدي له.

إن دخول الولايات المتحدة إلى العراق في نيسان ٢٠٠٣ يشبه إلى حد بعيد في نتائجه على الشرق الأوسط النتائج التي رتبتها على القارة الأميركية نظرية (وتدخل) الولايات المتحدة المنفرد ـ بدلاً عن الإسبان والبريطانيين والفرنسيين ـ في جنوب القارة الأميركية وبالتالي إخضاعها لاستعمار وحيد جديد بشكل أو بآخر.

---

(٣) جيمس مونرو ١٧٥٨-١٨٣١، الذي أعلن مبدأ معارضة الولايات المتحدة لكل تدخل أوروبي في شؤون القارة الأميركية.

هل ستكون رعاية شؤون الشرق الأوسط من قبل الولايات المتحدة أفضل حالاً من رعايتها لشؤون القارة الأميركية؟

عندما اجتاح الجيش الفرنسي مصر بقيادة بونابرت لقطع طريق الهند على بريطانيا كانت الحملة الفرنسية عسكرية المضمون، إنما وفي الوقت نفسه علمية الأبعاد. رافق بونابرت إلى مصر العلماء والمهندسون فزرعوا في القطر المصري بذور النهضة التي تلقفها محمد علي الكبير. لقد بادر القائد الفرنسي إلى إصدار أول جريدة في الشرق الأوسط وأماط اللثام عن آثار الحضارة الفرعونية جاعلاً منها قبلة أنظار العالم المتحضر. أما حملة جورج دبليو بوش على العراق فقد دمرت آثار الحضارة البابلية التي تعتبر محورية في تطور الحضارة الإنسانية.

٤

الحرب الوقائية ونهاية التاريخ

أصدرت الإدارة الأميركية في ٢٠ أيلول ٢٠٠٢ بياناً عن سياستها عنوانه (The National Security Strategy of the United States of America) «الأمن القومي الستراتيجي للولايات المتحدة» وبررت فيه سلفاً إضافة إلى حرب أفغانستان، اجتياح العراق وكل الحروب التي تنوي الولايات المتحدة شنها في العالم.

أهم ما في الوثيقة أنها تبرمج كيف ولماذا لأميركا حق التدخل في أي قطر من أقطار العالم تعتبر أن باستطاعته أن يشكل تهديداً لأمنها هي أو لإحدى حليفاتها.

بموجب هذا الإعلان حللت الولايات المتحدة لنفسها، وهي التي تمتلك أعظم قوة ضاربة في العالم، حق التدخل عسكرياً في جميع الأقطار.

هذا النمط من التفكير ليس ابن ساعته، فجذوره تعود إلى القرن التاسع عشر أي إلى ما بعد نهاية الحرب الداخلية الأميركية وقرار الرئيس مونرو الاستئثار، كما سبق وأشرنا إليه، بالقارة الأميركية لصالح الولايات المتحدة وحدها بمعزل عن تدخلات إنكلترا وإسبانيا خاصة.

ومن المبادئ التي تبلورت في الفكر الأميركي خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ما نجده اليوم في صلب نظريات المحافظين الجدد والذي عبر عنه إعلان ٢٠ أيلول ٢٠٠٢ أبلغ تعبير:

١ . ما يسمى بالتوازن الدولي الذي كان سائداً في أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها في أوروبا، والذي استمر بعد الحرب العالمية الثانية ثم خلال الحرب الباردة، يؤدي بنظر المحافظين الجدد إلى الحروب المدمرة كالحربين العالميتين وحروب كوريا وفييتنام التي على الولايات المتحدة أن تتلافاها بأحادية القرار في الشؤون العالمية.

٢ . يتبنى كيسنجر مواقف الرؤساء الأميركيين من أوائل القرن الماضي المتضمنة بأنه ليس القانون الدولي الذي يحمي السلام بل القوة[١].

٣ . يشاطر الرئيس توماس وودرو ولسن رأي سلفه الرئيس تيودور روزفلت بأن لأميركا «الحق بتدمير كل قوة غاشمة تستطيع زعزعة السلام العالمي»[٢].

---

(١) H. Kissinger, **Diplomatie**, Ibid, p. 31.
الرئيس تيودور روزفلت (١٨٥٨-١٩١٩).

(٢) المرجع نفسه، ص ٤٢. انتخب ولسون رئيساً للولايات المتحدة عام ١٩١٢. أعيد انتخابه عام ١٩١٦. دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية =

بذلك تكون الأفكار التي تستند إليها استراتيجية المحافظين الجدد ليست بنت ساعتها بل من نتاج الفكر السياسي الأميركي منذ عقود وتمتد إلى القرن التاسع عشر الذي شهد تعاظم شأن الولايات المتحدة اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً.

وكما أن الفكر السياسي الأميركي المعتمد من قبل المحافظين الجدد تعود جذوره إلى ما قبل ١١ أيلول ٢٠٠١ كذلك فإن الفكر الأميركي الأكاديمي الذي سبقه من هنري كيسنجر إلى فوكوياما له جذور في تاريخ الفكر الأنكلوسكسوني العالمي من إدوارد جيبون إلى أرنولد توينبي(٣).

يقول فوكوياما أن الديموقراطية هي نهاية التاريخ، وذلك مما يسلط الأنوار على الفترة التاريخية والتداعيات التي تلت انهيار الاتحاد السوفياتي كدولة ونظام. كتاب فوكوياما صدر عام ١٩٩٢ بينما انحلال الاتحاد السوفياتي كدولة اتحادية كان قد تم بموجب قرار اتخذه الرئيس بوريس يلتسين في كانون الثاني من عام ١٩٩١.

نهاية التاريخ بمفهوم فوكوياما هي الديموقراطية اذاً وليست الاشتراكية كما ظن البعض في القرن العشرين. يقول المؤرخ: «لماذا ننتمي إلى

= الأولى إلى جانب الحلفاء عام ١٩١٧. كان له الفضل في إنشاء عصبة الأمم ولكن معارضة مجلس الشيوخ حالت دون انضمام الولايات المتحدة إليها.

(٣) **The End of History**, Mac Millan, NY, 1992, Francis Fukuyama.
A Study of History, Oxford University, 1972. Tr. Fr Payot & Rivages, Paris 1996. A. Toynbee.

نقابات ومؤسسات عملانية وليس إلى قبائل أو عشائر. لماذا نجد أنفسنا نطيع رئيساً بيروقراطياً وليس رجل دين. لماذا نعرف القراءة ونتكلم لغة قومية واحدة؟»[٤]. برأيه أن ذلك، أي التعددية المرتكزة على سيادة القانون وإرادة الشعب، تشكل الأرض الصلبة لمجتمع حر متقدم. هذه النظرية كما نظرية الحرب الوقائية تمتد جذورها بعيداً في المجتمع الأنكلوسكسوني. كتب أرنولد توينبي: «لقد تساءلت إذا كان من المنطق الاعتقاد أن بريطانيا في العصر الذي نعيشه هي نهاية التاريخ، ولكني توصلت إلى النتيجة التالية: إنه من الأوهام القومية التوقف عند هذا الاستنتاج»[٥]. العودة إلى توكفيل تلقي أيضاً أضواء على هذه النظرية الأنكلوسكسونية للأمور. فمع كونه فرنسياً ـ نائب ووزير خارجية ـ فقد وجد في المجتمع الأميركي الناشئ بذور تقدم ونمو مضطردين[٦].

فكر توينبي الأحادي عن بريطانيا العظمى من نتائج إحكام سيطرتها على العالم بعد انتصارها في الحرب العالمية الأولى. كما أن نظرية فوكوياما وليد الانتصار الذي حققته الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية ثم بعده في انهيار الاتحاد السوفياتي أوائل التسعينيات من القرن الماضي. "The End of History" ينهي القرن العشرين بنظرة أميركية تفاؤلية حول سيادة الديموقراطية والقانون، وصدور The National Security Strategy of the USA لعام ٢٠٠٢ يرسم

---

(٤) فوكوياما، المصدر نفسه، ص ١٦.

(٥) A Study of History, Tr. Fr p. 64.

(٦) يعتبر كتاب شارل ألكسيس دو توكفيل (١٨٠٥ ـ ١٨٩٥)، **الديموقراطية في أميركا**، من المراجع الأساسية في معرفة بذور الديموقراطية والتقدم في الولايات المتحدة للقرن التاسع عشر.

الخطوط العريضة لقيام أمبراطورية كونية أميركية لنشر «السلام» و«الديموقراطية» بقوة السلاح.

٥

ألمانيا والاتحاد السوفياتي

فلنطرح على أنفسنا السؤال: لماذا استطاعت ألمانيا العودة إلى سابق عهدها بعد أن دمرت بشكل قد يكون شاملاً في الحرب العالمية الثانية؟ لماذا تبدو روسيا ـ رغم انهيارها كدولة محورية وتسلط المافيات على مقدراتها وتردّي اقتصادها ومستوى المعيشة فيها ـ وكأنها تلملم جراحها كشعب وكدولة؟

الحضارات تواصلٌ واقتباس وتعليم. كذلك فعلت روسيا في القرن السابع عشر واليابان في القرن التاسع عشر والصين في القرن العشرين. انطلاق النهضة الروسية على يد بطرس الأكبر[1] وكان اقتباسه عن غرب أوروبا العلوم الكفيلة بإدخال وطنه في الحداثة وحضارة العصر.

(١) بطرس الأكبر: ١٦٨٢-١٧٢٥

أما ألمانيا فكانت ضمن النهضة الأوروبية منذ بزوغ فجرها إنما وحدة ألمانيا كدولة لم تتحقق إلّا في أواسط القرن التاسع عشر بفضل بسمارك[٢].

كل هذه الأمم ورغم الانهيارات والدمار الذي لحق بها، وجدت نفسها بعد فترة وجيزة من الزمن تضمد جروحها وتعود إلى سابق عهدها في السير قدماً ضمن ركب الحضارة.

ما سبب هذا النهوض بعد الكبوة ورغم الدمار الشامل الذي لحق بها؟ المدرسة، الجامعة، روح الابتكار، التصنيع.

سقط الاتحاد السوفياتي إنما المدرسة الأوروبية التي أنشأها بطرس الأكبر في روسيا ثم النظام الشيوعي بعده ما زالت فاعلة.

في الحرب العالمية الثانية حققت بريطانيا أول انتصار على النازية في سماء لندن بفضل طياريها، إنما الفضل لا يعود للطيارين الإنكليز وحدهم، كما قال ونستون تشرتشل، بل إلى العلم والمصنع البريطاني الذي أنتج الطائرة المتفوقة التي قادها الطيار البريطاني.

كان المنتصر على السوفيات في حرب أفغانستان في الثمانينيات من القرن الماضي، بقدر ما هو المجاهد العربي والإسلامي، السلاح الأميركي المتقدم الذي نعجز أن نوفره اليوم للمقاومين في الضفة وفي غزة.

---

(٢) أوتو بسمارك (١٨١٥ - ١٨٩٨) رئيس وزراء بروسيا عام ١٨٦٣، استطاع توحيد ألمانيا بعد انتصاره على نابوليون الثالث عام ١٨٧٠.

٦

الدين والعرق والحضارة

الحضارة بمفهومها الحديث الذي نشهده ونلمسه يومياً هي حضارة أوروبا التي رأت النور انطلاقاً من القرن السادس عشر: البوارج، الطيارات، السيارات، النظارات، المنازل، الألبسة، المدارس والجامعات. جميعنا من المحيط إلى المحيط نعيش في كنف أوروبا ما بعد القرن السادس عشر ضمن مخمّس يمتد من أمستردام إلى لندن إلى باريس إلى روما إلى فرسوفيا.

أميركا هي ابنة هذا المخمّس الأوروبي وهي وريثته كما كان الاتحاد السوفياتي في الفترة القصيرة التي حكم فيها قسماً من العالم ـ وريثاً له أيضاً.

يقول هنري كيسنجر[١] أن اختراع الطباعة تبعته ثورة على كل الصعد: في الدين في الفلسفة في السياسة. رافق انتشار المعلومات انتشار العلوم. فكانت حرية المعتقد من نتائجهما بإعلان مارتن لوثر معارضته لأحادية روما في موضوع الإيمان.

من شأن ذلك أن يطرح سؤالاً أساسياً: ما هي النهضة، لماذا امتدت إلى روسيا والصين واليابان وبقينا خارجها؟ لماذا جميع هذه الشعوب تصنع السيارات والطائرات والكومبيوترات وتطبع مليارات الكتب وتخترع المعجزات على الأرض وفي الفضاء وهي لا تمتلك ثرواتنا النفطية والمعدنية وحتى البشرية.

لا شك بأن هناك ما يشبه المعجزة حدثت في أوروبا القرن السادس عشر وكان لنا فيها نحن كعرب وكمسلمين دور لعبناه لا ينكره أحد علينا. إنما لماذا تلقفت كل هذه الشعوب الأوروبية والآسيوية المعجزة الأوروبية ولم نتلقفها نحن كغيرنا؟

بزوغ فجر النهضة في أوروبا تبعها في القرون السابع والثامن والتاسع عشر اختراع البخار والكهرباء والمواصلات اللاسلكية. في القرن العشرين تم اكتشاف القوة النووية. ثم مشى الإنسان على سطح القمر ويهمّ اليوم باكتشاف النظام الشمسي بكامله.

كانت الفجوة شاسعة بين سقوط روما وعصر النهضة كما يقول أرنولد توينبي، وهذا ما يعتقده أيضاً إدوارد جيبون. لم تستطع بيزنطيا

---

(١) H. Kissinger, **La nouvelle puissance américaine**, Fayard, Paris, 2003.

المتقدمة أن تملأ الفراغ الذي تركته روما الأوروبية. هذا الفراغ التاريخي الذي يمتد من سقوط روما إلى النهضة الأوروبية من حضارات ما يسمى البحر الأبيض المتوسط ملأه الأمويون والعباسيون ثم الأندلس العربي الأموي الإسلامي[٢]. كان يواكب الانتصار العسكري الإسلامي ودائماً تقدم علمي وحضاري إضافة إلى نشر الدين الجديد. بين انتصار العثمانيين على بيزنطيا باحتلالهم القسطنطينية وفقدان الأندلس من قبل المسلمين مدة لا تتجاوز ال ٣٩ عاماً. استولى العثمانيون على القسطنطينية عام ١٤٥٣ وسقطت غرناطة الإسلامية في يد الملوك فردناند داراغون وإيزابيل دي كاستيل عام ١٤٩٢.

يقول برنارد لويس[٣] أن السلطنة العثمانية رغم انتصاراتها العسكرية لم تستطع أن تتلقف إنجازات العصر الأوروبي الحديث التي كانت على بضعة فراسخ منه: الطباعة، العلوم، التعليم. الأمور متصلة ببعضها: من يرفض الطباعة يرفض النظريات العلمية ومن يرفض النظريات العلمية يعارض المدرسة والتدريس الحديث. الحريات الفكرية والعلمية والسياسية مرتبطة بعضها ببعض وتفضي إلى تقدم المجتمعات

---

(٢) **Le Nouvel Observateur,** Hors série, Henri Stierlin, p. 30, Paris, 2004.

«بينما كانت أوروبا المؤمنة تتحفظ بالنسبة إلى الفلاسفة اليونان وبيزنطيا غارقة في جدل لاهوتي طويل، كان الإسلام بانتشاره ينفتح على العلوم: سهروردي في الفلسفة الخوارزمي في الحساب، الفارابي ابن سينا وناصر الدين الطوسي في علوم الفضاء».

(٣) **What Went Wrong?** Oxford, University Press, Tr. Fr. Gallimard, 2002, p. 199.

أو تأخرها. رغم ادعائه العلمانية والتقدمية أصبح نظام صدام حسين ـ لرفضه حرية التعبير والنشر ـ من أكثر الأنظمة السياسية تأخراً وجهالة في العالم. تصرفات صدام حسين أثناء الاجتياح وتصاريح وزيره للإعلام كانت كافية للدلالة على مدى جهل من يتقوقع، من يعزل نفسه، من يصمّ أذنيه عن صوت الحياة والتقدم.

قال كمال أتاتورك لطلاب جامعة أنقره في ٥ تشرين الثاني ١٩٢٥ ما مفاده: استولينا على القسطنطينية عام ١٤٥٣ ولكننا لم نستطع استيعاب الطباعة الأوروبية التي رأت النور في نفس الفترة التي حققنا فيها أكبر انتصار في التاريخ. لقد استمر رجال القانون عندنا وخلال ثلاثة قرون يعارضون دخول الطباعة إلى بلادنا.

كانت الصين تعتبر نفسها «أمبراطورية الوسط» أي قلب العالم فبقيت خارج الحضارة حتى أقلعت عن ادعائها.

توصل صن يات صن في أوائل القرن العشرين ومن بعده ماو تسي تونغ إلى تحرير الصين من عقدها وتقوقعها والاعتقاد أن كل ما هو خارج الصين ليس بالحضارة. وبذلك أصبح بإمكان بلدهما الفوز بجوائز نوبل وإنتاج السيارات والطائرات والبوارج وإرسال الأقمار الصناعية إلى الفضاء.

٧

الأمبراطوريات

ستذكر الأجيال القادمة ما كان لاجتياح العراق من أهمية في مصير المنطقة العربية والعالم. وأهمية ما أقدمت عليه الولايات المتحدة في الشرق الأوسط مرتبط، شئنا أو أبينا، بجهل قادة العراق وضعف العالم العربي. كان صدام حسين مجرماً جاهلاً وتجلى ذلك ليس فقط بإجرامه الذي لا مبرر منطقياً له في الداخل أو في الخارج، بل أيضاً في إفساح المجال لأميركا للوصول إلى ما تبتغيه عن طريق الاجتياح العسكري. ثم كان للنوايا الأميركية بما تتضمنه من فظاعة وفظاظة معنى بليغ: ترك الأمور تسير على مغاربها في كل ما لا يتعلق بالنفط ومشتقاته.

يعتقد روبير كاغان[1] بأن ١١ أيلول ٢٠٠١ كان نقطة تحول ليس

(١) **Of Paradise and Power**, Ed. Alfred A Knopf, N-Y, Tr. Fr Plon, 2003, p. 149.

في الفكر الأميركي وحده، بل في واقع العالم العربي والإسلامي إذ سيحدو بأميركا إلى التمركز في الخليج الفارسي (العربي) وآسيا الوسطى ويؤدي بها إلى احتلال بلد عربي كبير (العراق) إلى أمد غير محدود.

باعتقاده كذلك - مبرراً بذلك سياسة الهيمنة الأميركية الجديدة - أن نزعة الانعزال في الفكر الأميركي الحديث الذي مثلته الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الأولى، أصبح في طور النزاع حتى في الأوساط الشعبية الأميركية. وبرأيه، أن النزعتين الموجودتين في الفكر الأميركي المعاصر، الانعزال أو الالتزام، كانت الغلبة فيها للالتزام وبأنه كان التيار الأقوى حتى في فكر الرؤساء مونرو، وتيودور وفرنكلين روزفلت، وهاري ترومان.

١١ أيلول ٢٠٠١ إذاً لم يعدل الفكر الأميركي بقدر ما رسخ نزعة الالتزام الأميركية بقضايا العالم. فتاريخ الولايات المتحدة برأيه هو عزل القارة الأميركية عن التدخل الخارجي فيها وليس انعزال الولايات المتحدة وعدم تدخلها المستمر بالشؤون العالمية[٢].

---

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٤-١٢٥.

٨

الحضارة والمرأة

لم تتفرد الحضارة الإسلامية وحدها بعزل المرأة عن المجتمع لأن معظم الحضارات كانت وجدت نفسها مرغمة على هذا النوع من السلوك، من الحضارة الصينية إلى الحضارة اليونانية إلى الرومانية إلى المسيحية إلى النازيين مؤخراً. سياسياً حرمت المرأة ليس من حق التمثيل فحسب، بل من حق الانتخاب أيضاً وذلك حتى النصف الثاني من القرن العشرين.

تهميش دور المرأة في الحياة العامة ثم عزلها عنه له سببان أساسيان سلفيان يتعلقان بتطور الفكر والثقافة والحضارة الإنسانية بشكل عام. **السبب الأول** أن القوة الجسدية لعبت دوراً أساسياً في تفوق الشعوب والحضارات بينما لا تتمتع المرأة بالقوة الجسدية للعب دور فيه. أما **السبب الثاني** فكان علاقة الرجل بالمرأة ضمن شريعة الغاب

السائدة في مجتمع هي العنصر الأضعف فيه. وهناك **سبب ثالث** لعزل المرأة في المجتمعات البدائية، هو ضمان هوية المولود ضمن الجماعة التي تسود فيها شريعة الغاب.

في الحضارات الشرقية عامة استمر دور المرأة مهمشاً من الصين إلى اليابان حتى بعد الثورة الصناعية فيهما. كان العالم الإسلامي هو الأكثر تقدماً بخصوص المرأة يومها وذلك بفضل القرآن.

إلا أن العزلة التي وضعت نفسها فيها السلطنة العثمانية عن الحضارة الأوروبية، جعلت دور المرأة يتراجع أكثر فأكثر بالنسبة إلى الرجل. فإذا كان التعليم يقتصر على قلة صغيرة من الذكور في السلطنة فقد كان شبه مفقود بالنسبة إلى الإناث. وما نشهده اليوم من معارضة لتحرير المرأة من قيود الماضي ومساواتها بالرجل ليس إلّا مرحلة من مراحل هذا الدفاع المستميت عن تقاليد كانت تفرضها البيئة والطبيعة والمجتمع القديم، فدأبنا على المحافظة عليها. إن اللباس من غطاء الرأس إلى الحذاء يخضع لحاجات مجتمعية تاريخية تجميدها في قوالب معينة يفقد الإنسان حريته في مجابهة الطبيعة ـ قيظ الصيف برد الشتاء ـ إضافة إلى أنه يفرز مجتمعاً منقسماً على نفسه وإلى فصائل عديمة التواصل فيما بينها. وذلك مما يعوق القدرة على النقاش بحرية وبالتالي ارتقاء العقل إلى مرحلة استيعاب الحضارة بكل مضامينها. فبقدر ما أن المرأة لا تكتنز معلومة الحياة بشتى جوانبها، فهي لا تستطيع إنفاذها إلى الجيل الطالع الذي هو مستقبلنا. لا بد إذاً من الانتقال بالمرأة من المرحلة البدائية التي شكلتها فيه كوالدة إلى المرحلة اللاحقة التي تشكل فيه، بالإضافة إلى كونها والدة، أمّاً ومعلمة ومربية.

٩

الدين ثورة

من نكران الجميل الاعتقاد بأن الأديان كانت أداة تخلف أكثر منها عنصر تقدم للمجتمعات. فإضافة إلى أنها شكلت ثورات فإنها دفعت طبقات جديدة من المجتمع إلى الدخول في معترك الحضارة.

كانت المسيحية ثورة على حكم الأرستقراطية الوثنية اليهودية والرومانية في آن.

مع المسيحية انقضى عهد الآلهة التي كانت تقيم بين البشر. كان قياصرة روما وأبطالها في مصاف الآلهة، بينما المسيحية حصرت الألوهية بالمسيح وقد ختمت بذلك تأليه البشر.

جرى نقاش طويل في الدين المسيحي حول كينونة المسيح: هل هو

إله فقط أم أنه إله وإنسان؟ وانقسمت الكنيسة في أوائل عهودها حول هذه المفاهيم. كان الجدل ذا أهمية قصوى بما له من تأثير على مجرى الأحداث: هل كانت تعاليم المسيح كلمات نبي أم كلمة الرب؟ دام الجدل مئات السنين حول ماهية المسيح: هل هو إنسان وإله أم أنه إله؟

كان الإسلام جازماً في هذا الخيار: النبي محمد رسول الله.
كانت المذاهب الدينية في القرن السابع الميلادي تتناحر حول ماهية الآلهة وموقع الصور والأصنام في العبادة، فجاء الإسلام، وذلك قبل البروتستانتية بتسعة قرون، يقول «لا إله إلا الله».

كانت الحضارات تقدس الموت، من المصرية القديمة، إلى اليونانية، إلى الرومانية، إلى البيزنطية، فجاء الإسلام يقول: «قدسوا الحياة».

كان الإسلام دين رأفة في عالم لا يعرف الرحمة. وليس أكثر دلالة على ذلك ما عرفه المسلمون وذريتهم من اضطهاد على يد محاكم التفتيش في إسبانيا، بينما يشهد عظماء المؤرخين الأوروبيين أنه طيلة سبعة قرون من الحكم العربي في الأندلس لم يصدر إلّا ثلاثة أحكام بالموت لجريمة «الردة» عن الإسلام لم ينفذ أي منها[1].

كان العالم يخضع لسلطة الأقوى ولقاعدة السلالات الوراثية، فجاءت الصحابة تقول بالولاية للأعلم والأتقى بين المسلمين. أما علي بن أبي طالب فقد ولي ولفترة بفضل عبقريته أكثر منه بسبب انتسابه إلى النبي العربي.

---

(١) Levi-Provençal E. **Histoire de l'Espagne musulmane**, Paris, G.P. Maisonneuve, 1953.

لم يكتف الإسلام بتحريم وأد البنات ـ بينما ما زالت هذه الأعراف سارية في بعض مناطق الهند ـ بل أعطى الأنثى نصف حصة الذكر. في الفترة نفسها من تاريخ أوروبا وبعدها ولقرون متعددة كان يحصر الميراث في البكر وحده. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى تفسير تعاظم شأن الرهبانيات واندفاع النبلاء في خوض غمار الحروب الصليبية لسبب حرمان جميع أولاد النبلاء ـ ما عدا البكر الحائز على كل شيء ـ من الإرث الحلال، فسعوا للفوز بملك مفقود في ديارهم إلى الفوز به داخل الرهبانيات أو في ما وراء البحار.

١٠

الولايات المتحدة والدين

الولايات المتحدة هي على المستوى الديني والسياسي والعلمي نتاج أوروبي يعود لأوروبا القديمة غداة انتصار البروتستانتية بشقها الديني وأفكار الثورة الفرنسية الكبرى بشقها السياسي والتقدم الأوروبي بشقه العلمي.

جورج دبليو بوش الذي يدير دفة الحكم في الولايات المتحدة متعاوناً مع المحافظين الجدد هو في صميم هذا التناقض الحضاري، إنما يعارضه على المستوى الشخصي من حيث إنه يعيش مع قسم كبير من المحافظين الجدد والمذاهب البروتستانتية الأصولية في حالة دينية تجاوزها المجتمع السياسي الأوروبي من زمن بعيد.

المشكلة أو المعضلة التي تنتاب العالم اليوم هي أن على رأس الولايات

المتحدة زعماء من العصر القديم يقودون آلة عسكرية وعلمية واقتصادية هي في قمة الحداثة والفعالية.

هل أن ذلك مؤشر إلى أن أميركا ستسير إلى ما لا نهاية على طريق السلفية التي كان معمولاً بها في أوروبا قبيل وغداة عصر النهضة؟ بقدر ما أن الولايات المتحدة دولة فدرالية ديموقراطية، فإن وصول متشدد ديني كجورج دبليو بوش أو ليبرالي ديموقراطي كبيل كلينتون يجعل الولايات الأميركية منفتحة على جميع الاحتمالات. قيادة الرئيس بوش الابن مرحلية والسلطة التي يتمتع بها المحافظون الجدد قد تليها سلطة معاكسة للديموقراطيين الليبراليين. ولكن ذلك لا يمنع من كون الخطوات التي اتخذها جورج دبليو بوش على صعيد الشرق الأوسط، بل العالم، حاسمة من عدة نواحٍ قد يصعب على الديموقراطيين العودة عنها، إن في فلسطين وإنّ في العراق، وبالأقل في نتائجها. وهنا تكمن المشكلة بالنسبة لنا كعرب وكمسلمين.

ما أفرزته ١١ أيلول ٢٠٠١ من تفاعلات في العقل الأميركي هي نوع من انقلاب في العقليات ضمن المجتمع الأميركي الذي كان يتمثل بجورج بوش الأب بقدر ما يتمثل أيضاً بالرئيس بيل كلينتون الذي كان يهوى الاقتداء بالرئيس جون كنيدي المتحرر دينياً ومسلكياً. خطورة ونتائج ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على الشرق الأوسط عرفناها ونقاسي منها من أفغانستان إلى العراق إلى فلسطين، إنما القسم الآخر يتجلى في الشؤون المتعلقة بسائر دول العالم من أوروبا إلى الصين. تعتبر الولايات المتحدة نفسها كدولة متفوقة اقتصادياً وعسكرياً، مؤهلة أكثر من غيرها لاستخلاص دروس الماضي المفجع لأوروبا في القرن العشرين. ودروس القرن العشرين والحربين العالميتين التي واكبته هي التالية:

١ . توازن الرعب في أوروبا القرن العشرين، بين ألمانيا من جهة وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى، قد أدى إلى حربين عالميتين مدمرتين للحضارة وللجنس البشري على حد سواء.
٢ . دور الولايات المتحدة ـ وهي نظرة المحافظين الجدد خاصة ـ هو استدراك هذا التوازن في الرعب المتبادل والذي قد يؤول آخر المطاف إلى حلول الحرب نفسها بدلاً عن الرعب منها.
٣ . على الولايات المتحدة بعد سقوط الاتحاد السوفياتي في تسعينيات القرن العشرين استباق ما أفرزته الحرب العالمية الثانية من بروز القطبين العالميين والحؤول دون نشأة قطب جديد آخر منافس للولايات المتحدة في هيمنتها للقرن الواحد والعشرين.

على هذه النظرة الوقائية الشمولية المتشائمة الاستباقية يتفق معظم رجال السياسة الفاعلين والمفكرين السياسيين وعلى رأسهم المحافظون الجدد، وذلك من هنري كيسنجر إلى روبير كاغان إلى ريتشارد بيرل إلى بول وولفويتز. فبرأي جميع هؤلاء أن الإذعان لهتلر في مؤتمر ميونيخ عام ١٩٣٨ كان من الأسباب المباشرة للحرب العالمية الثانية وأن سياسة أميركا الوقائية مستوحاة من ضرورة منع هتلرية جديدة من التفشي في العالم نتيجة الإذعان تجاه دكتاتور أو «محور شر» كما يتصوره الدماغ الأميركي الذي تختلط فيه أهواء متعددة: ما يسمى بالموضوعية الكيسنجرية، التطرف الإيديولوجي المطعّم بنوع من الهلوسة بالنسبة إلى المحافظين الجدد.

١١

العقل والحضارة والإسلام

كلما تمعّن المرء بروح الإسلام تحقق أنه كان نهضة قبل عصر النهضة. يوجد في الإسلام بذور الحضارة كلها إذا اتخذناه نقطة انطلاق وقطار حضاري وليس محطتها فقط. ضمن هذه المعادلة يكمن سر الإسلام، سر عظمته، سر رسالته الإنسانية. حقاً ما قاله أنطون سعاده لم يتجاوزه الزمن: كلنا مسلمون شئنا أم أبينا.

ماذا كان مضمون النهضة الأوروبية في القرن السادس عشر؟ أن تبنى الجامعات والمستشفيات والمختبرات بدلاً من بناء المعابد والأديرة والقصور والقبور. معارضة مارتن لوثر لروما كان سببها جمع الأموال من المؤمنين لتشييد الفاتيكان لقاء بيعهم أرضاً في السماء.

لم يدعُ الإسلام إلى إقامة المعابد والقصور والقبور والأديرة، بل دعى

إلى العلم ولو في الصين والى عبادة الله أينما وجد، وإلى دفن الموتى أينما حلوا لأننا لله وإليه راجعون.

فما بالنا وقد حولنا الإسلام إلى عبادات بدلاً من التعبّد فبنينا القبور وشيدنا القصور وجعلنا من معابد الله رموزاً لسلطاننا.

لا يمضي يوم في لبنان إلّا وتسمع بأن مغترباً قرر تشييد كنيسة أو جامع في قريته بينما جميع قرى لبنان تفتقر إلى المجاري الصحية، إلى الماء العذب وأحياناً إلى أبسط شروط الحياة. هل سمعنا أو قرأنا يوماً أن ثرياً فرنسياً أو بريطانياً أو ألمانياً تبرع لتشييد كنيسة لا جامعة أو مؤسسة دراسات أو مستشفى أو مختبر متخصص لمرض عضال؟

الدين في الدول المتقدمة ضرورة لمن يحتاج له وليس أمراً مفروضاً على جميع الناس. الدين ليس وسيلة لإخضاع الناس بل لتحريرها، لمؤاساتها عند الضرورة، لملاقاتها عند الألم، عند الظلم. الإيمان الحاجة ينشط العقل يعطيه دفعاً جديداً للإقدام على مجابهة الشدائد والظلم: اقتحام الصعاب، روح المغامرة، العطاء.

أهمية الأديان تكمن في كونها ثورة للعقل وليست ثورة على العقل. عندما كان عبيد روما يؤمنون بمخلّص ولد في مزود كانوا يعلنون ثورة على عبادة أصنام روما.

١٢

الاستشهاد والإرهاب

اللافت في ما جرى في نيويورك صباح يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ أن تدمير البرجين العالميين فيها كان صمم عليه أصوليون إسلاميون آخرون أيضاً، وكان هذان البرجان يشكلان بنظرهم نوعاً من رموز لعظمة أميركا لا بد من زعزعتها. استطاع بن لادن أن ينفذ مأربه بفضل قدرات مالية وفرتها له انتماءاته العشائرية ضمن مجتمعه القبلي المتمول في المملكة العربية السعودية. وإلا بماذا يمكن تفسير كون أربعة عشر من الفدائيين التسعة عشر الذين قضوا في عملية البرجين يحملون هويات سعودية؟ ١١ سبتمبر يشكل منعطفاً تاريخياً للقرن الواحد والعشرين لا يمكن تجاهله في بعديه الديني والحضاري اللذين يتضمنهما. لقد كشف هذا العمل ضعف المجتمعات الغربية تجاه الإرهاب ـ وما جرى في إسبانيا يوم ١١ آذار ٢٠٠٤ دليل إضافي على ذلك ـ وإنما أيضاً عورات العالم العربي بنواحيه المختلفة.

لأن الذين قاموا بهذا العمل بدءاً ببن لادن وانتهاء بالفدائيين الذي ولا شك هم دون مستوى بن لادن العلمي والاجتماعي، قاموا به لسببين رئيسين هما: الشحذ الديني ضد الآخر الذي لا ينتمي إلى العقيدة الدينية التي ينتمون إليها، والشحذ الثوري ضد المغتصب الذي استولى على أرض الجزيرة العربية بشكل أو بآخر وعلى فلسطين بواسطة حلفائه اليهود.

١١ سبتمبر مطعون به من حيث منطلقاته الدينية والسياسية والحضارية والإنسانية. فما هو الرابط بين اغتيال مجتمع مدني في نيويورك وشركات بترولية تستخرج النفط في المملكة السعودية؟ وما هو الرابط بين الحروب الصليبية وعلاقة المجتمع المدني من كل الأديان والأعراق والعقائد في الولايات المتحدة الأميركية أو إسبانيا؟

لم يكن دافع بن لادن في جميع مداخلاته وبياناته قبل وبعد تدمير برجي نيويورك القضية الفلسطينية مباشرة، علماً بأن الرد على الاعتداءات في فلسطين لا يمكن، ولا فاعلية له إذا تمثّل في قتل أبرياء. لكل ذلك تبدو سلفية الرسالة الموجهة من بن لادن إلى المجتمع الأميركي والدولي غير مجدية وساقطة. بل أكثر من ذلك: إن عمل بن لادن يبرز كون فاعله يعيش خارج العصر لأسباب اجتماعية تربوية لا بد من تصحيحها وإن كانت عمليته تتضمن دروساً تتعدى هذا الإطار وتطرح مشكلات عالمية وقضية بل قضايا لا بد من التصدي لها. لقد أدى هذا الاعتداء عملياً إلى احتلال بلدين إسلاميين كبيرين هما أفغانستان ثم العراق، وإلى وضع يد أميركا على بترول الشرق الأوسط بشكل يصعب على المرء التخيل في المنظور القريب والبعيد كيف يمكن أن نتخلص منه.

يضاف إلى ذلك تداعيات هذا الاعتداء على القضية الفلسطينية نفسها وفسح المجال أمام «الليكود» بقيادة أرييل شارون لمواصلة عملية السطو على أرض فلسطين بكاملها من غير معارضة أميركية أو أوروبية تذكر.

وبالمقارنة مع عمل حربي آخر يتضمن محتوى إرهابياً لا جدل فيه أيضاً هو مفاجأة الأسطول الأميركي في بيرل هاربر من اليابانيين عام ١٩٤١ دون إعلان حرب. علماً أنه لا بد من الإشارة إلى أن اليابانيين كانوا أصحاب مشروع متكامل هو الانتصار على أميركا حربياً لأن اليابان كانت دولة صناعية كبرى لديها الوسائل لتحقيق مأربها.. تدمير البرجين الدوليين في نيويورك تختلف تماماً عن تدمير الأسطول الأميركي في بيرل هاربر من حيث إنه عمل حربي تقوم به صناعة اليابان المتقدمة ضد الصناعة الأميركية التي لا تقل تقدماً عنها. بينما حين دمر بن لادن برجي نيويورك، فلقد فعل ذلك على متن طائرات أميركية مهدداً ملاحيها بواسطة مقصات ورق هي كذلك أميركية الصنع. ردة فعل الولايات المتحدة على حرب بن لادن عليها كانت بفتح النار على جميع الجبهات ضدنا من أفغانستان إلى العراق إلى فلسطين. من ينفي وجود صراع حضارات في القرن العشرين يكون كالنعامة التي تدفن رأسها في الرمال.

١٣

فائدة الذاكرة وفائدة النسيان

المفكرون السياسيون الأميركان الذين في السلطة أو يلهمونها من هنري كيسنجر إلى روبير كاغان يستندون إلى أخطاء أوروبا في القرن العشرين.

التنافس البريطاني الفرنسي ـ وإن كانت ترافقه أحياناً مهادنات طويلة (التفاهم الودي) - (Entente cordiale 1904) كان يعطي لألمانيا برأيهم الفرصة السانحة كي تعيد تسليح نفسها كما جرى بين الحربين العالميتين. باعتقاد كيسنجر أن سياسة تقليل الخسائر وحصر الأخطار (Containment) كانت الوسيلة الأفضل لوضع حد للتمدد السوفياتي في العالم وقد أعطت ثمارها.. بينما المحافظون الجدد يعتقدون أن الولايات المتحدة أمدّت بحياة الاتحاد السوفياتي معتنقين بذلك نظرية ونستون تشرتشل المتشددة بالنسبة لموسكو في مرحلة ما

بعد الحرب العالمية الثانية. كان على الولايات المتحدة برأيهم الإفادة مباشرة من تفوقها النووي على السوفيات في أوروبا الشرقية، انطلاقاً من مبدأ عدم المساومة مع «محور الشر». وتبدو نظرية الحرب الاستباقية الصادرة عن الولايات المتحدة عام ٢٠٠٢ نتيجة لهذا التفكير الذي كان من رواده ونستون تشرتشل غداة الحرب العالمية الثانية.

أما الشق الثاني في عملية سياسة المحاسبة للدول المارقة وحكامها فلها جذورها في سياسة أميركا في القرن التاسع عشر ومن ثم الحربين العالميتين الأولى والثانية خاصة. ورغم أن الاتحاد السوفياتي قد بدا أكثر تشدداً من الأميركان في محاكمة مجرمي الحرب النازيين إلّا أن الأميركان لم يتوانوا بدورهم عن محاكمة مجرمي الحرب النازيين ثم اليابانيين وإعدامهم، وإن كانوا صفحوا عن الأمبراطور هيروهيتو لرهانهم على تحالف أميركي - ياباني ضد تعاظم أمر الشيوعية في الشرق الأقصى.

قام الإسرائيليون بهذه المهمة بالنسبة إلى المسؤولين عن عملية الإبادة بحقهم، كما أن بعض الدول الأوروبية المعنية بجرائم اقتُرفت ضد مواطنيها استعادت بعض هؤلاء المجرمين لمحاكمتهم على أراضيها.

علماً أن جرائم النازيين في ألمانيا الفدرالية بقيت من غير عقاب فيها، كما أن أفريقيا الجنوبية بعد إلغاء التمييز العنصري فيها صفحت عن معظم جرائم الأقلية البيضاء. جرائم الخمير الحمر في كمبوديا بقيادة بول بوت وأعوانه بين أعوام ١٩٧٥ و ١٩٧٨ ما زالت هي أيضاً ولأسباب متعددة من غير عقاب. في رواندا جرت تصفيات جماعية قدرت الضحايا فيها من التوتسي بما يعادل مليون قتيل عام ١٩٩٣.

جرت محاكمة للمحرضين والفاعلين من قبائل الهوتو في بلجيكا ولكنها لم تتجاوز بعض الأفراد المعدودين.

اختلف الأمر في يوغوسلافيا القديمة بعد تفككها عام ١٩٩١ لكون الأوروبيين والأميركيين قد وجدوا أنفسهم معنيين في تطبيق القيم الأوروبية المعتمدة بعد الحرب العالمية الثانية: جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية.

اعتمد لبنان بدوره سياسة «النسيان» التي اعتمدها الألمان بحق مواطنيهم وكمبوديا وأفريقيا الجنوبية.

قد يتضمن في هذا السلوك اللبناني لنتائج حرب ١٩٧٥-١٩٩١ بُعد نظر وحكمة، إذ قد يستحيل التعايش لاحقاً بين أفراد ومجتمعات لم يكتنفها قدر كبير من التسامح وقبول الآخر على علاّته. إلّا أن الحل قد تجاوز الحد المطلوب إذ تولى أمراء الحرب أنفسهم مسؤولية الحكم بينما بقيت لهم مغانم الحرب بكاملها. ولعل ثمن ذلك كان هذا الهدر المتواصل للمال العام والديون المتراكمة على كاهل البلاد التي قل نظيرها في بلد بهذا الحجم الصغير جغرافياً واقتصادياً وإنسانياً.

قال سعيد جنبلاط بعد أحداث جبل لبنان لعام ١٨٦٠ «حسبناها لكن وقعنا فيها». في أعوام ١٩٧٦ وقع كمال جنبلاط ومن بعده بيار الجميل في نفس الأخطاء المميتة. تحالف كمال جنبلاط مع ياسر عرفات في عملية لا ناقة ولا جمل فيها للفلسطينيين وهي الاستيلاء على منطقة «الانعزاليين» أي جونية وكسروان المسيحية بواسطة المنظمات الفلسطينية. أيقن الرئيس السوري حافظ الأسد خطورة الأمر وما قد تؤول إليه تلك العملية من ويلات وردات فعل سيئة

على سورية ولبنان فقام بدور الإطفائي وأوقف المغامرة بإرسال جيشه لوأد الفتنة في مهدها.

بيار الجميل وابنه بشير مشيا على نفس الطريق الوعر فنشرا ميليشياتهما، بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان، في المناطق الدرزية من الجبل. كان هذا العمل مدمراً للتحالف الدرزي ـ الماروني أولاً وللموارنة والمسيحيين ثانية وللكيان اللبناني القائم أصلاً وتاريخياً على هذا التحالف بين الطائفتين.

١٤

التاريخ جزء من المعرفة

التاريخ يعطي إشارات ولكنه لا يحدد المسارات. تدريس فلسفة ابن سيناء والغزالي ومقدمة ابن خلدون في المدارس وكأنهم قمة الفلسفة والمعرفة والسوسيولوجيا لا يعطي الطالب العربي زاداً كافياً لدخول الفلسفة والسوسيولوجيا على المستوى المطلوب في عالمنا الحديث[١].

علماً أن الحداثة ليست حائلاً وبأي شكل من الأشكال بيننا وبين معرفة الماضي ومكتسباته وإيجابياته.

كل ما كتب وكل ما أنجز في الماضي له أهميته إنما ضمن المكان

(١) تجدر الإشارة إلى أن بعض هؤلاء المفكرين يُمنع تدريسهم في الأنظمة العربية والإسلامية لتعارض أفكارهم مع الاجتهاد السائد في هذه الدول.

والزمان الذي أُنجزا فيهما. أفكار ابن خلدون واكتشافات ابن سينا عبقرية في عصرهما وهي فترة من التاريخ يجب دراستها ضمن تاريخها.

العالم الفرنسي باستور واختراعه اللقاح مهم، لكن ضمن الفترة التي تم فيها الاختراع. وكذلك البنسلين للبريطاني فليمنغ أثناء الحرب العالمية الثانية.

كل فكر كل عقيدة كل إنجاز هو وليد زمان ومكان ويجب دراسته في إطارهما. فالماركسية مثلاً هي نظرية انتقادية لسلبيات عصر التصنيع في أوروبا. كل ما في الحياة خاضع لسنة الحياة. والجدل والنقد هما ضمن سنّة الحياة.

لا تعِر أذنيك لمن يحاول حرمانك من جدلية عقلك ولا من سمع أذنيك.

١٥

تاريخية العقائد والعلوم

الخطأ في الحضارات التي أصبحت من التاريخ أنها ظنت علومها وموسيقاها وأدبها أزلية بينما علومها وموسيقاها وأدبها وفلسفتها كان قد مضى عليها الزمن. في نيقيا (إزنيك تركيا اليوم) عقد مجمعان للكنيسة المسيحية أحدهما عام ٣٢٥ ـ حيث كان الدين المسيحي على وشك الانتصار نهائياً على الوثنية في الأمبراطورية الرومانية ـ والثاني عام ٧٨٧ أي حين كانت بيزنطيا هي القوة الفاعلة في الغرب المسيحي وذلك بعد سقوط روما على يد الجرمان.

في المجمع الأول كان الموضوع المطروح هو طبيعة المسيح وألوهيته. منهم من قال أن المسيح هو الابن المساوي لله الآب ومنهم من اعتبره شريكاً له. استمر هذا النقاش اللاهوتي حتى أوائل القرن الرابع الذي شهد اعتناق الأمبراطور والدولة الرومانية الدين المسيحي. جرت

بعد ذلك مناوشات وحروب امتدت إلى جميع أقطار الأمبراطورية من آسيا الصغرى حيث تقع نيقيا إلى مصر حيث كانت نظرية آريوس القائلة بأن طبيعة المسيح هي أدنى بدرجة من طبيعة الآب الذي هو الله.

في السينودس الذي انعقد في نيقيا عام ٧٥٤ كان النقاش يدور حول مكانة الأيقونات والتماثيل في الكنيسة. منهم من كان يطالب بحظرها لكونها أصبحت موضوع عبادة وليست موضع عبادة ومنهم من أصرَّ على السماح بها. حرَّم الإسلام الصور والتماثيل لما اعتبره استمراراً للوثنية عبر المسيحية.

ماذا بقي من هذه المناقشات وهذه الحروب العقائدية أيام روما وبيزنطيا؟ ماذا بقي من الجدل بين الستالينية والتروتسكية، بين الهلال الخصيب والوحدة العربية؟

ما الفائدة من طب ابن سينا في عصر الأنتيبيوتيك؟

ماذا يمكن أن نجني من جدل حول جنس الملائكة في عالم يهم بالهبوط على سطح المريخ واكتشاف النظام الشمسي وسر نشأة الكون؟

في عالم من الوثنيات جاء الإسلام فعلّم الدنيا أن تقدس الحياة بدلاً من الموت والمستقبل بدلاً من الماضي، فما بالنا نقدم الموت على الحياة والماضي على المستقبل؟

١٦

الأنظمة السياسية والعقائد

لكل نظام سياسي أسباب وجود يمكن من خلالها تلمس معالم استتباب سلطانه أو زواله. إن انتشار الأنظمة العسكرية في العالم العربي، إضافة إلى كونها من مظاهر التخلف في العالم الثالث فهي النتيجة المباشرة لقيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨.

انقلاب حسني الزعيم في سورية في أواخر الأربعينيات تلاه انقلاب محمد نجيب وجمال عبد الناصر في أوائل الخمسينيات في مصر، فتوالت بعده سيطرة الجيوش وحلفائها في العراق وليبيا.

كانت الملكية في التاريخ القديم رمزاً لتوحيد الناس كما اللغة والدين. كان رجال الدين يرعون التتويج ويباركون العروش. وما ظاهرة تقليد العباءة للوريث في القبيلة أو الطائفة عندنا سوى الشكل الآخر للتتويج. أما شأن الوراثة فكان يختلف عند الشعوب. عند العرب،

قبل الإسلام وبعده، كان الأنسب أو الأعلم من أهل الصحابة يتقدم على سواه. في روما القديمة لم تكن الوراثة تقوم على قاعدة النسب فحسب. وعند الجرمان والفرنج الذين هم قبائل جرمانية كانت القاعدة الوراثية سارية المفعول وتشمل الإناث أحياناً.

انتهى عهد الملكية في فرنسا يوم الثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩ ثم ألغيت فعلاً عام ١٧٩٣، علماً بأنها أعيدت إلى الحكم عام ١٨١٦ واستمرت فيه لفترة غير وجيزة من القرن التاسع عشر. النظم السياسية التي تتكون طيلة قرون من الممارسة تستمر حية في أذهان الناس بعد زوالها. بقي الجنرال فرنكو في قيادة إسبانيا بعد انهزام الفاشية الذي كان من رموزها الكبار. ثم أعاد الملكية إلى سابق عهدها في مدريد وإن كان ذلك بالشكل الديموقراطي الحديث. انهيار الشيوعية في أوروبا عام ١٩٩٠ لم يمنع استمرارها في موقع القيادة في الصين وفييتنام وكوبا. وقد استمرت الأحزاب الشيوعية تلعب دورها في روسيا وبعض دول الاتحاد السوفياتي القديم.

سقطت الشيوعية في امتحان الإنتاج بعدما كانت وسائل الإنتاج من أسباب وجودها كفكرة وكعقيدة وكمعسكر. لم تستطع الشيوعية ووسائل الإنتاج فيها منافسة النظام الرأسمالي بما فيه الكفاية ضمن مجتمعاتها. سقطت الشيوعية الأوروبية في امتحان الرفاهية كما كانت سقطت الرأسمالية في امتحان أنسنة الإنتاج سابقاً.

قادت الثورة الطبقية الشيوعية شرائح مهمة من المجتمعات زالت اليوم من الوجود: عمال المناجم، عمال المطابع، عمال المصانع بالشكل الذي عرفه العالم أيام شارلي شابلن. هذه الطبقات المقهورة أو المعدومة الثائرة في العالم الرأسمالي القديم في الدول المتقدمة تحولت

إلى بيروقراطيات تطالب بمزيد من الرفاهية.

تبقى طبعاً مشكلة العالم الثالث المتخلف عن ركب العصر والذي نحن من ضمنه.

يبقى أن هذا النظام الماركسي الاشتراكي الذي يرتكز على عقائد انهارت قواعدها ضمن المجتمعات المتقدمة يتمتع بصحة جيدة في بعض دول من العالم الثالث، وذلك لتكيفه مع المرحلة ولاستمرار تأمينه لحاجات مجتمعية ملحة مفقودة في سائر دول العالم الثالث: التعليم، التطبيب، الغذاء. بين دول أميركا اللاتينية تأتي كوبا في مرتبة تحسدها عليها دول مثل بيرو، المكسيك، باناما، هايتي، هندوراس وحتى البرازيل.

١٧

الحقيقة

تبدأ الثورة بالعقل فتنتقل بعدها إلى الحياة والممارسة. عندما أعلن مارتن لوثر انقلابه على الكنيسة الرومانية عام ١٥١٧ وأطلق غاليلو غاليله صرخته «ولكنها تدور» كانت أوروبا قد دخلت عصر النهضة، والإنسانية مرحلة جديدة من تاريخها.

عندما قال باروخ سبينوزا[1] أن الله لا يتمثل لا بشخص له لحية ولا بالقضاء والقدر أعلن الحاخامات في أمستردام - ١٦٥٦ - طرده من المجتمع اليهودي كما حدث لمارتن لوثر قبله عام ١٥١٦ من قبل روما. الجرأة في البحث عن الحقيقة - ثم قولها في الفلسفة وفي

---

(١) هولندي يهودي (١٦٣٢ - ١٦٧٧) درس الدين ليكون حاخاماً فكتب في الفلسفة وأصبح من أكبر المفكرين في تاريخ الإنسانية.

التاريخ وفي السياسة ـ مكلف دائماً وباهظ الثمن لقائله.

ماذا قال مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا في المؤتمر الإسلامي العاشر في تشرين الثاني ٢٠٠٣، حتى قام العالم الغربي ضده ولم يقعد؟ قال للغرب قتلتم ٦ ملايين يهودي من أصل ١٢ مليوناً تم أرسلتم لنا ما بقي منهم على قيد الحياة ليستعمروا بلادنا. أضاف قائلاً: كان اليهود أكثر دهاء منكم بعد فعلتكم بهم إذ جعلوكم تقاتلون من أجلهم بعدما كنتم تقتلونهم. الكلام الواقعي الذي يميط اللثام عما يجري في فلسطين وفي العراق له فعل النار بالهشيم.

كان لفكر مارتن لوثر وغاليله وسبينوزا أثره الفاصل في إطلاق حرية العلم والعلوم فانعكس ذلك على جميع مرافق الحياة. تحول الفكر الأوروبي من البحث في الماورائيات إلى البحوث العلمية بينما كانت الحضارات الأخرى ما زالت تجادل في جنس الملائكة. لا شك أن الدين حاجة والعبادة حاجة إنسانية والله سبحانه حاجة إنما لمن يطلبها. العبادات لها مواقعها والعلوم لها مدارسها.

كشرقيين وكعرب، مسلمين ومسيحيين، نشبه اليوم إلى حد بعيد أهل القسطنطينية الذين كانوا يتناقشون حول جنس الملائكة بينما محمد الفاتح يقصف أسوار مدينتهم بالمدفعية؟

سقوط القسطنطينية كان سببه التحنط الفكري عند أهلها، أي تحنط قدراتهم على الاختراع والمبادرة. كانت روح الإقدام والمبادرة والاختراع في الجانب الآخر من شاطئ البوسفور أي عند المسلمين الأتراك، ولذلك سقطت القسطنطينية. انقلب السحر على الساحر عندما تكابر العقل العثماني على العالم المحيط به فحنّط حياته رافضاً

كل جديد يأتيه من الشمال. كذلك فعلت الصين قبل القرن العشرين معتبرة نفسها محور الحضارة بينما كانت فقدت مواقعها فيها.

١٨

المال والسلطة

علاقة المال بالسلطة لا جدال فيها، إلّا أن السلطة ليست كلها مال والمال ليس وحده الطريق إلى السلطة.

غالباً ما تكون الثروة في حياة الأفراد والأمم المظهر الأبرز للنجاح إلّا أنها ليست كل الحياة.

عندما تقاس قدرة الولايات المتحدة نقيسها بموازين جلها اقتصادية قبل غيرها لأنها الأسهل: موازنة الشركات العملاقة، سوفتوير، موازنة وزارة الدفاع، مخصصات الناسا، موازنة ولاية كاليفورنيا، كذلك القدرات المالية للأفراد.

في روما القديمة كان ولي العهد قبل اعتلائه العرش يوزع «الدنانير»

أو «السيسترس» على حرس القصر كي يرضوا به أمبراطوراً.

بدأ نجم نابوليون بونابرت يلمع في سماء فرنسا بعد اجتياحه المدن الإيطالية وفوزه بالمال منها. يبقى أن المال ليس من شروط بلوغ قمة هرم السلطة وحده. بل إن الثروة قد تكون، بعض الأحيان، عائقاً أمام اعتلاء رأس الهرم.

لا هتلر ولا ستالين ولا تشرتشل ولا ديغول ولا موسوليني بلغوا السلطة عن طريق المال بل لأسباب تتصل بالإغراء وبالإقناع بالعبقرية.

المال والثروة أساسيان للحياة أو لبلوغ السلطة، إلّا أنهما ليسا كل الحياة ولا كل السلطة.

١٩

الجنس والحياة

يلعب الجنس دوراً أساسياً في حياة الأفراد والمجتمعات لأن تجلياته تنعكس على شتى أمور الحياة. الحياة التي كلها جنس مذلة تافهة، والحياة بلا جنس مثبطة للعزائم. الزواج حائط مبكى إنما التزاوج والتوالد والعهد والميراث هي قواعد الحياة وسترتها القرمزية. الجنس بلا قيود لا لذة منه، وتقييد الجنس بلا حدود مجافٍ لسنة الطبيعة. من يحرّم الجنس يعبده ومن يحلله بلا قيد يقتله.

لا قيمة للجنس في بعض أقطار الشرق الأقصى لبخس أثمانه. في مجتمعاتنا الشرق أوسطية، الجنس يتحكم بعقول الناس وعاداتهم وكأنه الهاجس الوحيد في المجتمع والحياة. وفي الحالتين أي الشرق الأقصى والشرق الأدنى، تشكو مجتمعاتنا من التخلف والفقر وعدم قدرتها على السير قدماً في طريق التقدم. الجنس يستنزف عقل

الإنسان فيحرمه العطاء إذا أمعن في ممارسته، ويستأثر بفكره إذا ما حُرم منه باسم عقيدة.

كونوا بشراً، تعارفوا، تعاونوا، تحابّوا، تزاوجوا. لا حدود بين الناس كما لا حدود بين الذكر والأنثى إلّا قواعد العقل والمنطق السليم والاحترام المتبادل والحب. كونوا بشراً ولا تحاولوا أن تكونوا ملائكة.

الجنس هو قسم من الحياة وليس كل الحياة. وعبادة الجنس وثنية كعبادة الأصنام. أصبح الإنسان إنساناً حين تجاوز الضرورات الملازمة للحياة اليومية: المأكل والمشرب والجنس.

وجد سيغموند فرويد[١] في الجنس إحدى القواعد الأساسية لتكوين شخصية الإنسان وتطوره على صعيد الفكر والمعرفة. كما عزا الكثير من الأمراض النفسية والعقلية إلى العامل الجنسي.

---

(١) طبيب نمسوي من أصل يهودي (١٨٥٦ - ١٩٣٩) صاحب مدرسة في طب النفس جعلت منه أحد عمالقة الفكر في القرن العشرين.

٢٠

العقل والحرية

بين الإيمان والعقل حوار لا نهاية له. بقدر ما للإيمان من إيجابيات له من السلبيات، والمثال على ذلك: عبادة الشخص في الفاشية. أما الايمان بالمعنى الإيجابي فهو ما يعطي القدرة للإنسان على تحمل أعباء الكفاح على مجابهة الصعاب. في بعض العقائد السياسية كان ما يشبه الإيمان الديني بدلاً عن الدين: النازية كما الشيوعية.

طبيعة الإنسان، الحياة والموت، يرغمانه على أن يكون صاحب نزعتين متلازمتين: نزعة العقل ونزعة الايمان. وإلا بماذا نفسر هذا الإيمان بالنازية وبالشيوعية وبالقيادات التي أفرزتها بشكل شبه مقدس شبه ديني؟ غياب الدين يولد الفاشية. أليس في ذلك ما يدل على أن الإنسان هو كائن ذو وجهين متناقضين متكاملين: العقل والحلم؛ والمعرفة والخيال. في النازية والشيوعية هوت العقائد إلى مستوى

المعتقدات: أصبح ستالين كالمشعوذ الأفريقي يشفي الشعوب من أمراضها المستعصية، والنازية جنة لبشر أصبحوا كالآلهة يُعبدون. فشل الحلمان، وبذلك دلالة على أن الحياة تمشى على رجلين: رجل العقل التي يتقدم بها الإنسان على طريق المعرفة ورجل الإيمان التي تدفع به إلى شاطئ الأمان والرجاء. العقل والإيمان عنصران من عناصر الحياة. محاربة الدين باسم العقل عبثية كمحاربة العقل باسم الدين. دعوا الناس يأخذون من العقل ما يخدم مصالحهم ومن الدين ما يطفئ غليلهم إلى الأمل.

حرية العقل وحرية الدين متساويتان في الاحترام وعدم المس بهما من ثوابت التقدم الحضاري. وما النزعة التبشيرية التي يبتلى بها المجتمع الأميركي اليوم بتشجيع من المحافظين الجدد وأعوانهم إلّا خطوة للوراء، تجاوزتها الحضارة الغربية فعلياً منذ أواخر القرن التاسع عشر.

٢١

اللباس والحضارة

موقع الإنسان في المجتمع يحدده المنزل، الملبس، المأكل، السيارة، اللكنة. إنها مظاهر لكنها تدل دائماً على سر دفين.

أدخل بطرس الأكبر (١٦٨٢-١٧٢٥) روسيا المسيحية الأرثوذكسية في الحضارة الأوروبية عن طريق المظهر قبل المضمون: أرغم «البويار»[١] على حلق ذقونهم، وأدخل الثياب الأوروبية ضمن المجتمع الروسي القديم رجالاً ونساء.

اعتمد الروزنامة الأوروبية بدلاً عن الروسية التي كانت تعود لألفي سنة قبل المسيح.

---

(١) مالكو الأرض في روسيا القديمة.

عندما أراد مصطفى كمال إدخال تركيا في الحداثة، وذلك بعد الحرب العالمية الأولى، اعتمد نفس التدابير التي كان اعتمدها القيصر الروسي: بدأ بالمظهر ثم انتقل إلى المضمون. بدأ بقص اللحى المتدلية وانتهى بتبديل الشروال بالبنطلون. بل إن الهزيمة المنكرة التي لحقت بالسلطنة العثمانية في الحرب العالمية الأولى جعلته يذهب أبعد من القيصر فأعلن، وفي أول بلد إسلامي، فصل الدين عن الدولة فألغى المحاكم الشرعية، إضافة إلى المدارس الدينية. اقتبس عن الدستور السويسري مصطلحاته، أحصى سكان تركيا، اعتمد الروزنامة الأوروبية والأوزان والمعايير الأوروبية معتمداً الأحرف اللاتينية وسيلة لكتابة اللغة التركية. مَنَع الطربوش، أعطى المرأة الحقوق المعتمدة في الدول الأوروبية المعاصرة لتنظيماته.

يعطي برنارد لويس(٢) أهمية مبالغ فيها للباس في السلطنة العثمانية. لقد فرضت الحاجات العسكرية تبديل البزّة في الجيش العثماني بينما اقتباس الزي المدني الأوروبي لم يكن يطال في السلطنة إلّا قلة صغيرة على رأس الهرم الاجتماعي.

اللباس كالمنزل كالمأكل إنها نمط في العيش يلعب دوره في تكوين فكر الإنسان بقدر ما تفعله المدرسة والجامعة والمصنع. كانت المدن الرومانية، من المنازل التي فيها جميع وسائل الراحة إلى المسارح إلى المعابد إلى الطرقات المعبدة إلى ملابس الجند والأشراف تدل جميعها على عظمة روما وتفوّقها. رجال الإكليروس المسيحيون ما زالوا يقتفون خطى روما القديمة في اللباس، في السلطة وعلى الأخص رأس الهرم فيها: التاج، الصولجان، الثياب المذهبة. يبقى ذلك طبعاً

---

(٢) Bernard Lewis, **Histoire du Moyen-Orient**, p, 330.

ضمن مجتمع محدد المعالم هو رجال الدين بينما المجتمع المدني الأوروبي تجاوزه.

كذلك فعل اليابانيون والصينيون: اللباس القديم هو لرجال الدين للمناسبات العائلية للترفيه عن النفس. هل المواطن الياباني أو الصيني يتنقل في باريس أو موسكو مرتدياً الكيمونو الياباني أو اللباس القرمزي عند البوذيين القدماء؟

الدخول في الحضارة يفرض اقتباس اللباس وساعات العمل والمدرسة والجامعة الحديثة، لأن ذلك يشكل وحدة متكاملة المعالم ورفض أحد عناصرها يقوض الصرح الحضاري بكامله. من يضع التاج على رأسه ويحمل الصولجان بيده يريد أن يحكم كالقيصر لا كالرئيس السويسري. كذلك بالنسبة إلى اللباس: لباس الصحراء للصحراء ولباس المدينة للمدينة ولباس النوم للنوم ولباس السهر للسهر.

قيادة أو ركوب الطائرة والسيارة والباخرة، وإدارة المكتب والمصنع تفرض علينا لباساً ينسجم معها وهي مختلفة عن الألبسة الملازمة لركوب الحصان والعربة التي تجرها الخيل: رفض هذه القواعد في الحياة المجتمعية يؤدي إلى الوقوف على الرصيف بينما الحضارة تسير على الطريق.

٢٢

العقائد والديانات

يجب أن نترك للأديان حرية الحوار وللعقل حرية الإيمان. إذا خرج الدين عن كونه معرفة وتقدماً بقدر ما هو حل وجداني لمشاكل الحياة والموت يكون أصبح آلة سلطوية لاضطهاد الآخرين.

خطورة الدين كما خطورة الأنظمة العقائدية تكمن في أن ممارستها للسلطة تحنطها كمومياء الفراعنة كلينين وستالين فيتوقف قطارها عن السير إلى الأمام. بينما الحياة تفاعل مستمر يعتبر أتباع العقيدة أن الزمن توقف يوم التحقوا بها وانضموا إلى صفوفها. كانت الستالينية الرمز والمثال لهذه الحال المرضية للعقيدة. ماذا بقي من الستالينية؟

طبقة الكهنة في الأديان، كوادر الأحزاب العقائدية في السياسة، يصبحان حراس هيكل غالباً ما يكونون بنوا صرحه كي يحرسوه

فيقبضون بوسيلته على أزمة الحكم على الدين وعلى الدنيا. هكذا يقع التماهي بين حارس الهيكل والهيكل بين العقيدة ومن يدعي حراستها. إنها صنمية جديدة تدعي هدم الصنمية. هكذا فعل ستالين وصدام حسين. شكّل الإسلام في عصره الذهبي نقيض هذه المجتمعات العقائدية المتحجرة كما أن البروتستانتية كانت انتفاضة على الصنمية بشتى صورها.

٢٣

الموت والحضارة

كان الموت والحياة في مصر القديمة سيان، بل إن الموت كان يتفوق بأهميته على الحياة. معظم الحضارات القديمة كانت غارقة في هذا النحو من التفكير: التقمص، عبور نهر «الستيكس» عند اليونان لبلوغ الآخرة. شكّل الإسلام انقلاباً من هذا القبيل: لا قبور تشبه القصور ولا سفن لعبور نهر الموت ولا مؤن وحلى وثياب للآخرة.

أما المسيحية التي شكّلت دين العبيد والمضطهدين، فلقد اتخذت من الجنة بديلاً عن جهنم الحياة بذلك أصبح الموت يشكل في المسيحية القديمة الخلاص من عذاب الدنيا. واستمر ذلك حتى يومنا هذا. كان الإسلام النقيض لأنه دين لمنتصرين.

استوعب الإسلام الجنة واعداً بها كالمسيحية، وبالوقت نفسه تخطى

الموت بالمفهوم القديم: كما نبذ الصنمية نبذ عبادة الموت وتأليه الموتى وعبادة الناس بعد موتهم. كان الإسلام ثورة على الاتكالية: السيف نقيض الاتكالية كما الكتاب.

٢٤

المحاسبة والنسيان والغفران

كما هو بين الناس كأفراد كذلك بين الأمم: الجزاء كالقصاص، الصفح كالنسيان ضرورات لاستمرار الحياة. بعد ثلاث حروب مدمرة ١٨٧٠، ١٩١٤، ١٩٤٠ وقعت فرنسا وألمانيا اتفاق سلام عام ١٩٦٣ جعل منهما حليفين شبه دائمين.

قمة الحقد بلغها الشعبان الفرنسي والألماني في حرب ١٨٧٠ ثم في الحرب العالمية الأولى، حيث أصبحت كلمة «بوش» "boche" التي تتضمن الكثير من الازدراء مرادفة لألمانيا غليوم الثاني بينما الألمان اعتبروا الفرنسيين شعباً في طور الانحطاط.

في الحرب العالمية الثانية بلغ احتقار النازيين لسائر الشعوب قمته: الجرمان شعب مختار بينما شعوب العالم الأخرى من الدرجة الثانية

والشعب اليهودي في أدنى الدرجات.

الحرب العالمية الأولى كانت امتحاناً للحضارة الأوروبية والحرب العالمية الثانية كادت أن تقضي عليها لولا الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي.

الحرب العالمية الأولى كلفت أوروبا ١٢ مليون قتيل، وفقدت فيها فرنسا زهرة شبابها. والحرب العالمية الثانية كلفت العالم ستين مليون قتيل منهم ١٢ مليون ألماني و٢٥ مليون سوفياتي. إحدى النتائج المباشرة للحرب العالمية الثانية كانت إنشاء دولة إسرائيل على حساب العرب في فلسطين.

من أبشع الجرائم التي يمكن نعتها بجرائم ضد الإنسانية وذلك بعد الحرب العالمية الثانية هناك حرب رواندا الإتنية والحرب بين القوميات التي كانت تشكل جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية والحروب المستمرة على أهل فلسطين.

حروب التحرير التي أعقبت الحرب العالمية الثانية التأمت جروحها سريعاً بما في ذلك حرب فييتنام المتعددة الوجوه. إلّا أن الحروب التي لم تلتئم جروحها بعد بالمحاكمات أو بالنسيان فهي كثيرة: جرائم الخمير الحمر في كمبوديا، حرب روندا الإتنية.

هذه الوجوه المتعددة التي تتخذها العدالة لطي صفحة الماضي، الجزاء والصفح فيها متعانقان. في اليابان حيث يبكون موتاهم في هيروشيما فلا يشتمون الولايات المتحدة إنما يترحّمون على الأموات مسدلين ستار النسيان على الماضي «النازي» في مجتمعهم القديم. كيفما أدار

المرء نظره يجد أن النظام الديموقراطي كما قال ونستون تشرتشل هو الأقل سوءاً بين الأنظمة السياسية الأخرى.

يجد الفاشل أو المجرم أو المغامر من يحاسبه يوم الانتخاب. من كان يستطيع أن يحاسب ستالين؟ وضع حد لجنون هتلر كلف الإنسانية ستين مليون قتيل. من استطاع في العالم العربي أن يحاسب صدام حسين على حربين استنزف بهما قدرات العراق والعالم العربي من غير طائل؟

سقط جورج بوش الأب في الانتخاب بعد حرب العراق الأولى وقد يسقط جورج بوش الابن بعد حرب العراق الثانية.

كتب الرئيس سليم الحص في «نهار» ٢٠٠٣/٩/٢ «الديموقراطية هي آلية التغيير، بمعنى أن التغيير يكون نتاج الديموقراطية، ومن جهة أخرى الديموقراطية هي هدف التغيير أو غايته. فلا تغيير من دون ديموقراطية ولا ديموقراطية من دون تغيير».

مشكلة العالم العربي أن جمهورياته ارتدّت إلى ملكيات أما ممالكه وإماراته فقد عادت قبليات.

في ألمانيا ما بعد الحرب العالمية الثانية كان لا بد للشعب الألماني أن يجد السبيل للخروج من المأزق السيكولوجي الذي خلقه له هتلر والنازية: أمجاد زائفة وجرائم تجاوزت كل ما عرفه التاريخ. طي صفحة الماضي من غير ندم مستحيل، وطلب الغفران من المظلومين الضحايا، وقد أزيلوا من الوجود غير ممكن، بل قد يكون مستحيلاً لهوله. ما الحل إذاً؟ وجد الألمان كلمة نوردها بالألمانية لمضمونها

التناقضي المعبر عن حقيقة وواقع في آن. يقول الألمان: Vergangenheitsbewaltigung ما معناه: ضبط الماضي وتفعيل الذاكرة. لا يطرح الألمان على أنفسهم أسئلة على مثال: هل كان اجتياح ألمانيا من قبل الحلفاء فاجعة أو تحريراً؟ هزمت ألمانيا واستبيحت أرضها لكنها وبالوقت نفسه تحررت من الجريمة النازية. هل هو شر أم خير؟ أم أنه شر فيه خير أم هو خير يتضمن بعض الشرور؟ النسيان ممنوع طبعاً. كذلك مسؤولية الشعب الألماني. هذه الكلمة المركبة الطويلة تعبر وتتضمن كل ذلك: ضبط الماضي وتفعيل الذاكرة.

هل في وضع العراق اليوم بعد الاجتياح الأميركي، ما يذكّر بواقع الشعب الألماني بعد اجتياح جيوش الحلفاء لألمانيا عام ١٩٤٥؟ وشعب لبنان كيف ينظر اليوم إلى حربه الداخلية: إنها جريمة بحق جميع الناس إنما كل فريق يحمّل الآخر مسؤولية اندلاعها.

٢٥

المدن وأهميتها

دراسة نشأة المدن وانهيارها قسم من التاريخ بالغ الأهمية إذ إن الحضارة تتمحور حول المدينة: بابل، أثينا، روما، بغداد باريس لندن القاهرة. غالباً ما تكون هذه المدينة بنت نهر، بنت مرفأ على البحر تجر إليها مياه الجبل البعيد أو الينبوع القريب. علماً بأن هناك مدناً هي محطات للقوافل في الصحارى أو السهول: تدمر، بترا، بعلبك.

والمدن شكلت في أوروبا القرون الوسطى الموقع الأمامي لنشأة البورجوازية وزوال الإقطاعية الزراعية. للحضارة قواعد مُدُنية تمتد عبر العصور.

لعب تكوين المدن دوراً أساسياً في تطوير الصناعة والتجارة وبالتالي نشأة البورجوازية الجديدة وارثة طبقة الشرفاء وبانية العصر الحديث.

يعتبر مارك بلوك وهنري بيرين وجاك لوغوف وجورج دوبي[١] من أكبر الباحثين في تاريخ القرون الوسطى. إن تاريخ القرون الوسطى مرتبط في تحولاته بتاريخ المدن ونشأة البلديات والبورجوازية وبزوغ فجر الحريات.

سقوط الأمبراطورية الرومانية قلّص من أهمية المدن في أوروبا الرومانية المهددة بالغزو من قبل القبائل الجرمانية. نزح أهل المدن إلى الريف يعملون في أرض الإقطاعيين ويحتمون بقلاعهم.

نشأة المدن بالمعنى الحديث للكلمة بلغتْه أوروبا في مرحلة متأخرة من القرون الوسطى تزامنت مع انحسار الغزوات البربرية ومع تأقلم القبائل الجرمانية في الأرض التي اجتاحتها وتوقف الغزوات من البحر من قبل الفايكنغ أو النورمان[٢].

في العصر الحديث شكّل احتلال المدن أو هدمها عملاً قتالياً من الدرجة الأولى: تدمير لندن بواسطة طيران متفوق من قبل هتلر، معارك لينغراد (سان بترسبورغ حالياً) وستالينغراد (١٩٤٣)

---

(١) Marc Bloch - مؤرخ فرنسي يهودي الأصل (١٨٨٦ ـ ١٩٤٤) جدد النظريات القديمة بالنسبة إلى تاريخ القرون الوسطى. شهيد من المقاومة الفرنسية ضد النازيين.

Georges Duby - من أساتذة دراسة تاريخ القرون الوسطى الاجتماعي والسياسي. أستاذ في الكوليج دي فرانس من عام ١٩٧٠ إلى ١٩٩١.

Henri Pirenne et Jacques le Goff

(٢) النورمان أو الفارينغ أو الفايكنغ ، قراصنة جاؤوا من اسكندنافيا ـ السويد النروج حالياً ـ مشكلين أكبر تهديد للسواحل والمدن الإنكليزية والفرنسية بين القرنين الثامن والتاسع الميلاديين.

(فولغوغراد حالياً) شكلت منعطفاً في الحرب العالمية الثانية إضافة إلى تدمير مدينة هيروشيما اليابانية بالقنبلة الذرية عام ١٩٤٥. كذلك احتلال بغداد من الجيش الأميركي عام ٢٠٠٣.

يوجد نوعان من المدن في لبنان: الساحلية المرتبطة بالبحر والجبلية المرتبطة بالزراعة. المدن الساحلية المرتبطة بالبحر مستمرة منذ غابر الزمن وإن بشكل متقطع. توقف ازدهارها في المرحلة التي تبعت الغزو الصليبي فسهر الحكم المملوكي على حماية الشاطئ السوري الفلسطيني من غزوات صليبية جديدة.

المدن الجبلية ازدهرت في معظمها بالهجرة المسيحية من الداخل السوري لأسباب متعددة: الاضطهاد التركي لبعض الأقليات، إرادة هذه الأقليات المسيحية التمتع بحرية أكبر في الجبل اللبناني وخاصة في المناطق الدرزية منه(٣).

في الحرب العالمية الثانية دُمرت برلين ومعظم المدن الألمانية وفرسوفيا عاصمة بولونيا، إنما أنقذت باريس وفيينا وموسكو. في الحرب اللبنانية الأخيرة كادت أن تُدمّر طرابلس بينما دمرت معظم معالم بيروت التاريخية والسياحية ولكن تم إنقاذ دير القمر وزحلة.

كان لإعادة إعمار بيروت فضل كبير في إعادة لبنان دولة موحدة وموقعاً اقتصادياً ثقافياً سياحياً في العالم العربي.

---

(٣) Henry Jessut, **Fifty three years in Syria**, Ed. By Fleming H Revell, N-Y, 1910.

٢٦

سياسة الولايات المتحدة

١. في أوروبا والعالم
٢. في الشرق الأوسط

سياسة الولايات المتحدة تمحورت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حول علاقتها بإنكلترا بعد أن كانت جزءاً من مستعمراتها فاستقلت عنها عام ١٧٨٣.

في بحث علاقة الولايات المتحدة كدولة ذات تأثير على مجرى الأحداث العالمية، يجب انتظار نهاية الحرب الداخلية (١٨٧٤ - ١٨٦٧) ليبرز دورها مؤثراً على الصعيد الدولي. علماً بأن هذا البروز على الساحة العالمية كان سريعاً إذ إنه وقبل نهاية القرن التاسع عشر كانت الولايات المتحدة قد أصبحت متفوقة صناعياً على بريطانيا.

بقيت الولايات المتحدة بعيدة عن النزاعات الأوروبية مكتفية بلعب دور المراقب حتى الحرب العالمية الأولى. وبالوقت نفسه ووفقاً لمبدأ الرئيس مونرو ١٨٢٣ كانت الولايات المتحدة حظّرت على الدول الأوروبية التدخل في شؤون القارة الأميركية.

دخول الولايات المتحدة على المسرح الدولي كقوة عظمى حصل فعلياً عام ١٩١٧ واستمر عام ١٩٤١ عند اشتراكها في الحرب العالمية الثانية على المسرحين الأوروبي والآسيوي.

أما الأحادية الأميركية التي كانت النتيجة لسقوط الاتحاد السوفياتي في أواخر القرن العشرين، فلقد فلسفها المحافظون الجدد في الحزب الجمهوري بقيادة بوش الابن بما أصبح «الأمن الستراتيجي الوطني للولايات المتحدة» في وثيقة الحكومة الأميركية الصادرة تاريخ ٢٠ أيلول ٢٠٠٢.

مصادر هذه الوثيقة التاريخية متعددة الجوانب: إنها من جهة تستخلص دروس الحربين العالميتين وسقوط الاتحاد السوفياتي، ومن جهة أخرى تعلن لسائر الدول في التعامل مع الولايات المتحدة حدوداً لا تسمح لها بتجاوزها. لا تنافس عسكري بين الدول كما في مستهل القرن العشرين لأنه يولّد الحرب. لا تنافس على زعامة العالم بين دولتين كبريين كما في النصف الثاني من القرن العشرين لأنه مصدر لتوتر ومقدمة لحروب مستقبلية. إضافة إلى أن الولايات المتحدة ساهرة على منع العودة إلى هذه المعادلات المدمرة القديمة. ولقد قررت الولايات المتحدة أن تتولى قيادة العالم في القرن الواحد والعشرين وأن لا ينافسها أحد في توليها.

ما الذي أضرم النار في هذا الهشيم وأعطى الضوء الأخضر لهذه النظرية الأميركية كي تقتحم العالم؟ ١١ سبتمبر ٢٠٠١. وقد وجدت هذه النظرية مداها الحيوي في اجتياح أفغانستان ثم في احتلال العراق.

يرى إدوارد سعيد[١] في هذا التصرف الأميركي سياسة فوقية استعمارية خطط لها حكام غير منتخبين (إدارة بوش الابن) يستلهمون عقائديين ـ المحافظين الجدد ـ ومفكرين منحازين لوجهة نظر إسرائيلية معادية للعرب والمسلمين على حد سواء أمثال برنارد لويس وفؤاد عجمي.

مواقف إدوارد سعيد مهمة بقدر ما أنه منخرط في الحضارتين ويعرف الإيجابيات والسلبيات في كل منهما، يقول: «التفكير والنقاش والبحث المنطقي إضافة إلى المبادئ الأخلاقية المرتكزة على المبادئ العلمانية التي بموجبها نؤمن بأن الإنسان يصنع تاريخه بنفسه كل ذلك أبدلوه بأفكار مبهمة تعظّم التفرد والمثالية الأميركية أو الغربية وتضع جانباً البيئة والمحيط والنشوء وتنظر إلى باقي الحضارات بازدراء كلي»[٢].

نظرة إدوارد سعيد إلى الحضارة الغربية نقدية ولكنها تصبح عدائية بلا حدود عندما تتخذ من العرب والمسلمين الهدف والعدو الذي يجب

---

(١) كاتب ومؤرخ فلسطيني من مواليد القدس ١٩٣٦-٢٠٠٣ يعتبر من كبار النقاد للسياسة الاستعمارية الأوروبية ومن ثم للولايات المتحدة. دفن في بيت مري في لبنان ـ مقبرة الكويكر ـ وفقاً لوصيته.

(٢) Le Monde Diplomatique, Mars 2003.

القضاء عليه بأي ثمن من قبل المحافظين الجدد. يرفض إدوارد سعيد بالوقت نفسه دغم المتناقضات في استعمال مفردات مبسطة «أميركا» «الغرب» «الرجعية» «الإسلام». ويعترض على تشويه العرب والإسلام والثقافات الأخرى العالمية بهدف تدميرها.

والحل برأيه هو بالعودة إلى خطاب علماني ومنطقي في آن. الخطاب الديني السائد في الأوساط الحاكمة في واشنطن وفي الشرق الأوسط من دولة إسرائيل إلى العالم العربي المحيط بها ينقضه النمط الأوروبي في التفكير الذي لا يخلط بين العقيدة والمعتقدات.

وبرأي إدوارد سعيد أن الاجتهاد والتفسير في الإسلام كوّن في مرحلة من مراحل التاريخ إشكالية كبرى من الضروري مراجعة مضامينها ومفاعيلها على الفكر العربي والإسلامي لنتمتع بحرية أكبر وطاقات جديدة تؤهلنا لمجابهة مشاكل العصر وتجاوز الأزمات التي نتخبط فيها.

٢٧

رفض الحضارة

إن رفض الحضارة يبدأ في رفض المدرسة الحديثة. والديموقراطية الحديثة هي ابنة المدرسة الحديثة. لا فائدة ترجى من الديموقراطية إن غابت المدرسة الحديثة عنها. إذا جرت انتخاباب في قبيلة أفريقية لا وجود فيها لمدرسة، يفوز فيها بالاقتراع السري أو العلني ساحر القبيلة.

للفوز بشهادة الفلسفة كنا ندرس ابن سينا والفارابي وغيرهم من فلاسفة العرب ونحفظ أقوالهم عن ظهر غيب بينما الفلسفة الغربية من علم نفس إلى علوم أخلاقية تدرس بالفرنسية أو الإنكليزية. هذا النوع من التدريس كان يفضي، بشكل أو بآخر، إلى فصل شبه منهجي لكل من لا يعرف لغة أجنبية عن سير الحضارة إذ تتوقف معلوماته عند فلسفة القرون الوسطى أي الفارابي وابن سيناء. علماً أن هؤلاء الفلاسفة هم المدخل لتدريس تاريخ الفلسفة والعلوم ليس إلا.

مناهج التعليم هي كل شيء في العصر الحديث وليس ما نسب إلى فيكتور هوغو «افتح مدرسة تقفل سجناً» إلّا وجهاً من أوجه حقيقة هي أوسع بكثير.

من جهة أخرى فإن مصادرة المدرسة من قبل الديكتاتوريات هي ضمن المنهج السابق نفسه، أي وقف العقل عن التطور الطبيعي مع الحدث، مع التاريخ: النازية، الستالينية ثم صدام حسين وأمثاله في عالمنا.

لذلك وقع هذا الانفصام في أوروبا خلال القرن التاسع عشر بين رجال الدين والتدريس العلماني. أوروبا التي دخلت عصر البخار والكهرباء والصناعة أصبحت بحاجة إلى عمال ومهندسين ومخترعين وليس إلى رهبان تنتجهم المدارس الدينية حيث، بحجة تعليم اللغة والقراة، لا يتعلّم المرء إلّا أخلاقيات في كتب دينية.

يوفر لنا برنارد لويس على هامش كتاباته العدائية ضدنا، الكثير من الدروس إضافة إلى الوثائق المتعلقة بالسلطنة العثمانية وأسباب تخلفها[١]. في موضوع اللباس يذهب برنارد لويس[٢] بعيداً في تحليل أهميته ومدلوله. اقتبس العثمانيون عن الغرب النظام العسكري، من المدفع الذي استعمل للاستيلاء على القسطنطينية إلى البندقية والرشاش بدلاً عن القوس والنشاب والسيف والرمح.

---

(١) Que s'est-il passé: "La formation du Moyen-Orient moderne", Ibid.

(٢) "Histoire du Moyen-Orient", Ibid.

إلّا أنهم عارضوا الطباعة فخسروا بذلك الكتاب والصحافة أي العلوم والمعلومات. بين ما فعله العثمانيون وما فعلناه نحن بدورنا أوجه شبه متعددة: لبسنا الزي العسكري الأوروبي واشترينا البنادق والمدافع علماً اننا أفسحنا في المجال للصحافة وأعلنّا الدساتير على النمط الأوروبي إنما كل الحواشي لهذا القبول بالعصر كان ينقصها المضمون: نركب الطائرة ولا نتعلم صنعها ولا حتى إصلاحها أو صيانتها؛ نعلن الدساتير ولا نطبق منها إلّا ما يروق لنا؛ نلبس الزي العسكري ونبقي علينا زي الصحراء في المدينة بينما نعيش في شقق مبردة ونركب الطائرات والسيارات المكيفة.

عندما نأخذ من الغرب صادراته معتبرين أن لا حضارة عنده وأننا الحضارة فنتيجة ذلك ما نشهده اليوم في فلسطين والعراق. عندهم الطائرات وعندنا المظاهرات. عندهم المصفحات وعندنا اليافطات. ما سبب ذلك؟ سبب ذلك أن مدارسنا كمدارس أوروبا في قرون ما قبل النهضة تنتج بشكل أو بآخر رهباناً لا عمالاً، ومبشرين لا مهندسين، ومنظّرين عن جنس الملائكة لا مخترعين.

كما أن لباس الرجل يعكس موقعه الاجتماعي إضافة إلى طموحاته ونظرته إلى الحياة والمجتمع، اللباس عند المرأة يتضمن شخصيتها. في اللباس معنى ومضمون وأهداف.

العلاقة بين اللباس والوظيفة، بين اللباس والبيئة، بين اللباس والمشروع الذي وراء اللباس هو الأساس وينمّ عن كل شيء. والتباين بينهما له دلالات تنم أيضاً عن صراع ضمن الشخصية وبالتالي عن الركاكة فيها. من يريد قيادة طائرته الخاصة لا يلبس الدشداشة بل لباس الطيارين.

لركوب الجمل، الدشداشة أصلح من البنطلون. أما للسير على الأقدام في المدن فالبنطلون هو الأفضل والشمسية أصلح لاتقاء المطر من العقال.

هذا ما كان يعتقده بطرس الأكبر في روسيا وأتاتورك في أنقرة واليابانيون في طوكيو والصينيون في بكين.

المدرسة واللباس مرتبطان ببعضهما البعض.

٢٨

القومية العربية

القومية مصطلح أوجدته أوروبا القرن التاسع عشر وهي بنت مجتمع صناعي وسوق تجاري كانت اللغة القاعدة ـ الواسطة في نشأتها. أصبحت فرنسا دولة موحدة عندما اعتمدت الفرنسية بدلاً من اللاتينية لغة الدواوين في أيام الملك فرنسوا الأول. توحد العقل الألماني باللغة الألمانية بعد أن ترجم مارتن لوثر التوراة من اليونانية إلى الألمانية. إنما لم تدخل أوروبا عصر القوميات إلّا بعد مخاض وحروب دينية طويلة. في ألمانيا استمرت الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت من عام ١٦١٨ إلى ١٦٤٨ وكانت ذروتها في فرنسا عام ١٥٧٢ دون أن تطفأ نارها تماماً. استمر مخاض الصراع الفرنسي بين الكاثوليك والبروتستانت حتى ألغى لويس الرابع عشر الحرية الدينية الممنوحة للبروتستانت من الملك هنري الرابع.

لم يكن الدين وحده سبباً لإثارة الحروب ولا مصالح الممالك والشعوب. تبسيط التاريخ إلى قواعد ثابتة للمصالح يؤدي إلى نفس نتائج تجاهل دروسه. دوافع الحروب متعددة، فيها الاقتصاد وفيها الثأر وفيها الكبرياء. ما الدور الذي لعبه مصرع أرشيدوق النمسا على يد «إرهابي» صربي في اندلاع الحرب العالمية الأولى؟ ما دور محاولة اغتيال جورج بوش الأب من قبل مخابرات صدام حسين يوم زيارته الكويت إضافة إلى وضع صورته للدوس يومياً على رصيف فندق الرشيد في بغداد في الحرب التي أعلنها جورج بوش الابن على النظام العراقي؟

إذا كانت مصلحة العراق في احتلال الكويت ظاهرة للعيان فالحرب التي شنها صدام على إيران تتضمن من حرب وقائية ومذهبية ما تتضمنه من جنون واستكبار وإرادة اجتراح المعجزات.

يقول فوكوياما إن الموضوع يتعدى أحياناً كل هذه الاعتبارات[١].

اقتبس العالم العربي العقيدة القومية عن أوروبا الرأسمالية البورجوازية والعقيدة الاشتراكية عن أوروبا الشيوعية. الفكر القومي كان سباقاً بالنسبة إلى الزمن وإلى الفاعلية. لم يكن المجتمع العربي ولا الإسلامي متقبلاً للمادية التي اقترن بها الفكر الاشتراكي، ولذلك بقيت الأحزاب الشيوعية هامشية في العالم العربي والإسلامي مما جعل

---

(١) **نهاية التاريخ**، مرجع سابق، «إن الإنسان يختلف كلياً عن الحيوان لأنه يطمع بأن «يُعرف» بمعنى يُميز. أولاً يريد أن يُعرف كإنسان أي بأنه يتمتع بمناقب واحترام الآخرين وهذا الشرف مرتبط وفي درجة أولى بقدرته على المغامرة بحياته في سبيل الاعتبار»، ص ١٦.

الولايات المتحدة تستثمر هذه المعارضة إلى أقصى الحدود خلال الحرب الباردة. الحزبان الوحدويان الأبرز في منطقتنا كانا الحزب «السوري القومي» وحزب «البعث العربي». الأول نشأ في غضون الموجة الفاشية الأوروبية في الثلاثينيات والثاني غداة الحرب العالمية الثانية.

نجح حزب «البعث» في تحقيق الوحدة بين مصر وسورية عام ١٩٥٨ ولكن لفترة وجيزة من الزمن، بينما الحزب «القومي السوري» بقي هامشياً في سورية ومضطهداً في لبنان.

اللافت أن هذه الأحزاب كانت تعتبر العلمانية خطوة أساسية في تكوين الأمة أكانت سورية أم عربية.

هذا الفشل من الحزبين في المراحل الوحدوية السابقة جدير بالاهتمام لأن من دروسه نستطيع رسم خطوات المستقبل.

لا الوحدة استمرت ولا العلمانية استطاعت. لماذا؟

ما البديل عنهما؟ الأمة الإسلامية؟ إن كومنولث إسلامياً ممكن وموجود ولا بد أن له مستقبلاً واعداً، إنما كيف نوحد دولنا وسوقنا مع إندونيسيا وسومطرة؟ إذا كانت العلمانية حلاً غير صالح لمشاكل مجتمعنا فالتقيد بالعادات القديمة سيئاته ظاهرة للعيان. ما الحل إذاً؟

هذه المواضيع جديرة بأن ينكب على دراستها المثقفون العرب ونخبهم وليس أي موضوع آخر يخدم أعداءنا ومصالحهم.

وكيف ولماذا أنتج «البعث» أمثال صدام حسين الذي شن حربين

مدمرتين على جواره الإسلامي ثم العربي وانتهك جميع الأعراف والمبادئ الإنسانية ضمن وطنه.

يبقى أنه من غير وحدة بين الناطقين بلغة الضاد لا عزة ولا مكانة ولا تقدم لنا جميعاً. الصناعة تفرض السوق الكبرى لتزدهر، كذلك الزراعة. فلا تقدم في وطننا إلّا بالوحدة، بالمدرسة بالجهد بالعلم بالنظر دائماً إلى الأمام لا إلى الماضي ولا إلى الوراء. سكن الكهوف كان محموداً يوم لم يكن الإسمنت موجوداً. كانت الأحراج والبراري موئلنا يوم لم تكن توجد المدن الآهلة بالسكان تحتضننا. هل يريدون أن نعود من حيث أتينا كي تصفو لهم مدننا؟

٢٩

الحضارة والإرساليات

من المفارقات التي لا بد أن نتوقف عندها في المجتمع الأوروبي الاستعماري أنه كان مزيجاً من الطمع بالأرض وخيراتها وإدارة التبشير لشريحة في مجتمعه والتعليم الملازم للتبشير.

نجح في الاستيلاء على معظم أراضي القارات الخمس واستثمار ثرواتها ولكن التبشير الديني فشل، بينما التعليم الذي كان ملازماً للتبشير أعطى ثمراته المفيدة للمجتمعات المتأرجحة بين القديم والحديث.

فالبعثات التبشيرية الإنغليكانية أثمرت بتنشئة جيل من المثقفين تميزوا بعلمهم وكان لهم فضل في انتشار المعرفة في مناطق عديدة من السلطنة العثمانية.

أما الإرساليات الكاثوليكية، إيطالية أم فرنسية، فقد انحصر دورها في التعليم غالب الأحيان لمعرفتها المسبقة بعدم جدوى التبشير في المجتمعات الإسلامية، إذ باء مسعاها بالفشل سابقاً في المغرب العربي. كانت الإرساليات الفرنسية تعرف تمام المعرفة أن لا سبيل للنجاح بالتبشير للمسيحية في المجتمعات الإسلامية المغربية والمشرقية، حيث المسيحية بنظر المسلمين هي من ماضي الإسلام وليس من مستقبله.

ولكن الذي أعطى دفعاً جديداً للرهبانيات الفرنسية لترسيخ أقدامها في لبنان وسورية، وذلك قبل الانتداب وبعده، وجود المذهب الكاثوليكي منتشراً بكثافة في لبنان وسورية وفلسطين، وكذلك القوانين المتعاقبة ضد التعليم الديني الذي كللته قوانين العلمنة في فرنسا عام ١٩٠٤.

فالرهبانيات التي أصبحت من الماضي في العالم البروتستانتي وأضحت موضوع تشكيك في فرنسا بالنسبة إلى توليها التدريس للناشئة، أصبحت بالمقارنة مع التعليم المتدني المستوى في السلطنة خشبة خلاص، عنصر تقدم وتحديث وانفتاح على العالم والحضارة. إنما الغريب والمؤسف أنه رغم هذا الدفع الذي شكلته الإرساليات الأجنبية وتحدي الحضارة لعالمنا العربي لم نزل نعيش ـ في معظم أقطارنا ـ العصر العثماني بشتى سلبياته.

إن الأمية في مصر كانت تبلغ، عام ٢٠٠٣، ٤٦٪ بين الذكور و٦٦٪ بين الإناث علماً أن مصر كانت مثالاً يقتدى للتقدم في العالم العربي سابقاً..

تنعكس آثار هذه الأمية على جميع المستويات من علاقة الرجل

بالمرأة، إلى تحديد النسل الذي أصبح تلقائياً في أوروبا ويخضع لقوانين صارمة في الصين الشيوعية بينما يشكل في الشرق الأوسط عائقاً دون التقدم والرقي.

عند دخول بونابرت أرض النيل كان عدد سكان مصر يبلغ ما يقارب ثلاثة ملايين ونصف نسمة تقريباً بينما كان عدد سكان فرنسا يعادل العشرين مليوناً. سكان فرنسا لا يتجاوزون اليوم الستين مليوناً بينما سكان مصر يبلغون ٧٠ مليوناً. تقدم الطب في أوروبا وتدني نسبة الوفيات بين الأطفال بدلاً من أن يجعل مجتمعاتنا تتقدم أضاف إلى تخلفها تخلفاً ـ يحمل وجه الإنسانية والرحمة والحرية في غير مواقعها.

لماذا يحاكم الوالدان على قتل أولادهما ولا يحاكمان على عدم إرسالهم إلى المدرسة؟ هناك قتل في الحالتين. أموال أمتنا تهدر كل يوم للحرس، للترف، للمحظيات، للقصور، بينما أجيال تموت من الأمية والبطالة.

أصول التعليم وشروطه أصبحت معروفة من اليابان إلى ألمانيا إلى ليتوانيا ولا مجال لاختراع مدارس على كيفنا. إنها كالمعادلة الجبرية تصح لكل العقول وكالبنسلين يصلح للمرضى من كل لون وجنس. إن الطالب الذي يتعلم أخلاقيات كونفوشيوس أو بوذا ويرنّم ترانيمهما حتى سن الخامسة من عمره ـ وهو السقف الذي تكتمل فيه معالم العقل وحدود النمو للدماغ ـ لن يستطيع بعد ذلك أن يدخل عالم الثقافة الحديثة. قد يصلح ليكون راهباً يلبس اللباس القرمزي ويجلس القرفصاء كاليوغي تحت أشجار الزيزفون. هل نطمح إلى إنشاء جيل من الرهبان يجلسون تحت شجرة زيتون أم جيل

يصنع المعجزات ويرد كيد الأعداء عنا؟

هذا هو السؤال المطروح على جيلنا، على الطبقات الحاكمة عندنا.
إنه قدرنا. إنه واجبنا.

التاريخ والعقائد

في المجتمعات القديمة الشرقية والغربية منها كان التدريس قوامه الدين أي الإنجيل والتوراة ثم ما بعد انتشار الإسلام أصبح القرآن كذلك. وبفضله أصبحت العربية لغة الدين والحضارة في آن. أما المسيحية فلم يرتبط انتشارها بلغة اللهم إلّا باللغة اليونانية التي كانت لغة رسائل القديس بولس ولغة الحضارة والعلوم أيضاً. لغة المسيح أي الآرامية بقيت لغة بعض قبائل فلسطين وسورية الطبيعية.

ارتباط الإسلام بالعروبة عضوي إنما الخطأ بل الجريمة هو أن نجعل من العروبة قيداً للإسلام وأن نجعل من الإسلام قيداً للعروبة. إنهما عقد في سبيل التقدم والانتصار. يستطيع المرء أن يكون مسيحياً من غير معرفة العبرانية أو الآرامية بينما كان على المسلم أن يتعلم الدين في القرآن وعبر اللغة العربية كي يصبح مسلماً. بفضل هذا التواصل بين

اللغة والدين انتشرت اللغة مع انتشار الدين وبقيت اللغة مع استمرار الدين. فالأمة العربية هي بنت الإسلام بقدر ما أن الإسلام مرتبط باللغة العربية.

ترجم مارتن لوثر التوراة عن اليونانية إلى الألمانية وبذلك وحّد اللغة الألمانية. توحيد اللغة الألمانية بواسطة ترجمة لوثر للتوراة يعكس أهمية ربط اللغة بالإيمان وذلك بإيجابياته وسلبياته. الإيجابية هي في إنشاء لغة موحدة واحدة بواسطة الكتاب المقدس أياً كان، وبذلك وضع حجر الأساس في إنشاء قومية واحدة على أساس اللغة.
السلبيات هي في تجميد اللغة على ما كانت عليه أيام نشأة الدين.

مهمة رجل الدين كانت وما زالت تعليم الناشئة مبادئ الدين التي هي في أساسها مبادئ أخلاقية جامعة تكونت منذ نشأة المجتمعات البشرية: لا تقتل لا تسرق لا تشتهي امرأة جارك...

بقدر ما تقدمت الحضارة أضيفت إلى هذه التعاليم الدينية تعاليم جديدة تتصل بالحضارة وبالمستوى التي بلغته في مراحل التاريخ المتعددة.

كذلك فعلت سائر العقائد السياسية، فأنشأت لنفسها مدارس يُلقن فيها أتباعها تعاليمهم العقائدية يضاف إليها تعاليم العصر: ولكن طغيان العقيدة على تعاليم العصر له أضرار جسيمة تفوق مئات المرات طغيان علوم العصر على العقيدة. وقد شهدنا ذلك في معظم الدكتاتوريات المعاصرة.

حضارة واحدة

حقق العرب بفضل الإسلام انتصارات تجاوزوا بها كل الفتوحات وتفوقوا فيها على جميع الحضارات. يجمع بين مفتي جاكرتا وشيخ الأزهر كتاب واحد في الموجبات والعقود ضمن لغة واحدة خالدة هي اللغة العربية التي أكتب فيها هذه الكلمات. لقد أعطى القرآن بلغته العربية العرب والمسلمين قوة لا تجاريها قوة ومساحة إنسانية لا تفوقها مساحة.

من يعتقد أننا كعرب وكمسلمين على خطأ يكون هو على خطأ، لأن ما يعتقده ربع البشر منذ ١٣٠٠ سنة ويمتد على جميع القارات وهو مستمر لا يمكن أن يجافي الحقيقة. رسالته لا حدود لها وأتباعه لا حصر لهم. إنما السؤال المطروح علينا والذي يتطلب جواباً ليس هل انتصر الإسلام ـ وهي حقيقة ماثلة للأعين ـ بل كيف نجعل هذا

الانتصار على كل المستويات وكيف يمسي انتصاراً للمسلمين. السؤال المطروح هو كيف ينتصر المسلم كما انتصر الإسلام؟ وكيف ندخل على مجتمعات الآخرين رافعين الرأس كالياباني أو الصيني فينحنون لنا بأكثر مما ننحني لهم.

٣٢

تشويه الإسلام جريمة مستمرة

الحملة التي يقودها بعض المثقفين الغربيين على الإسلام لها جذور تاريخية تعود إلى فجر الإسلام. فالثورة التي أحدثها الإسلام جعلت الأديان الأخرى تفتش عن نقاط ضعف فيه لتنال منه وعلى جميع المستويات. في منطق الحياة والموت في سيرة الإنسان في القانون في المعرفة في التقدم في الصلاة. فالصراع الذي اندلع في العالم القديم يوم نشأة الإسلام لم يكن قوامه السلاح وحده بل قوة الإقناع عبر الكلمة أيضاً. وقد شكلت الحروب نوعاً من التبادل الحضاري بين الأمم وإن اعتمد العنف وسيلة. ما اقتبسه الفرنج عن العرب والمسلمين من فنون وقيم إنسانية وحضارة متعدد الجوانب. فضل الأندلس العربي والإسلامي في بزوغ فجر النهضة الأوروبية من الأمور التي لا جدال حولها.

إن النظرة المثالية إلى حوادث التاريخ الماضي تتضمن من السذاجة بقدر ما تحتوي من جهل في التاريخ. إن الذين في الغرب يؤمّون شرقنا طالبين السماح منا عما فعله الصليبيون الأحرى بهم أن يقفوا اليوم بجانبنا لصد الهجمة الصليبية الجديدة التي يقوم بها الصهاينة في ديارنا أي الصليبيون الجدد.

كانت الصليبية حينها في منطق العصر وقد جاءت كردة فعل لاستمرار الحروب التركية ـ الإسلامية على أوروبا المسيحية. كانت الحروب الصليبية أمراً مشروعاً كما كانت حروب الإسلام على الأقطار المسيحية المتاخمة لحدوده ضمن منطق العصر.

فليكفّوا إذاً عن طلب الغفران لحروب صليبية غفرناها لهم لأنها كانت بنت عصرها وزمانها، وليقفوا اليوم بجانبنا لصد حروب صليبية جديدة ليست في مكانها ولا في زمانها.

٣٣

أوروبا تشعر بالذنب
ولا تستطيع التكفير عنه

اتهام الأصوليين في الإسلام بالتحامل على الغرب بأنه صليبي الهوى يغفل ما يتضمن هذا الادعاء من حقائق. نشأة إسرائيل في الأساس ليست إلّا مشروعاً صليبياً مستحدثاً بمضامينه كلها وأهدافه كلها.

الحملة الصليبية القديمة على أرض فلسطين جردها أوروبيون من مختلف الجنسيات: فرنسيون، بلجيكيون، طليان، جرمان، بريطانيون. الحملة الصليبية الجديدة جردها لورد بلفور عام ١٩١٧ عندما وعد يهود العالم بوطن في فلسطين.

الوعد كان بريطانياً والهجرة كانت أوروبية والدافع إليها نازياً أي ألمانياً أوروبياً. فكيف لا يرى العرب والمسلمون في إسرائيل نسخة تشبه إلى حد بعيد الصليبية في القرون الوسطى؟ المنفِّذ هو ذاته

والمنفَّذ عليه هو نفسه وتحت شعارات متشابهة: أرض المسيح للمسيحيين وأرض موسى للموسويين.

تجد أوروبا نفسها تجاه المجتمع الإسرائيلي فخورة بالإنجاز إنما ينغص عيشها عقدة الذنب الملازمة للإنجاز وتداعياته المريعة على المنطقة والعالم.

أوروبا كما يقول الكاتب الإسرائيلي إيلي برنافي مرتبطة بإسرائيل ارتباطاً عضوياً إلّا أن إسرائيل وأوروبا يعرفان بأن إسرائيل وجدت من جراء الظلم الأوروبي لليهود. إسرائيل هي جزء من أوروبا ـ ويكفي معرفة أن دخل الفرد فيها يبلغ ١٨ ألف دولار ـ بينما دخل الفرد في مصر هو ١٧٠٠ وفي سورية ١٠٠٠ وفي الأردن ٢٠٠٠ وفي لبنان ٤٠٠٠. يضيف هذا الكاتب الإسرائيلي، أن أوروبا لا تفهم دور رجال الدين المتنامي في مجتمعنا ولا دور العسكرتاريا المحوري في تفكيرنا الملازم للاحتلال والاستيطان.

«لقد أصبحنا أقل أوروبية مما كنا عليه»، يضيف برنافي. الكلام نفسه كان يردده الصليبيون بعد استيطانهم فلسطين في القرن الثاني عشر. علماً بأن إسرائيل تصدّر إلى أوروبا ثلث منتجاتها وتستورد من أوروبا نصف حاجاتها.

كانت أوروبا الرحم التي انطلقت منها إسرائيل كما كانت أوروبا الرحم التي انطلقت منها الحملات الصليبية. أما أوروبا بعلاقاتها الوطيدة بالعالم العربي ـ فرنسا إيطاليا إنكلترا ـ فتشعر بمثل عقدة الذنب وخاصة بضرورة إيجاد «بحر متوسط هادئ» كما يقول أحد أساتذة الستراتيجية في معهد الدروس العليا الباريسي.

لكن التبدل في الخارطة السياسية للعالم وانتقال مركز الثقل فيه من لندن وباريس وبرلين من ثم موسكو إلى واشنطن، جعل الأمور تتخذ شكلاً مغايراً للواقع العربي - الإسرائيلي. وعقدة الذنب هذه مفقودة في المجتمع الأميركي تجاه الفلسطينيين، والذي ينظر بأكثريته إلى الاستيطان اليهودي في فلسطين وكأنه مغامرة أميركية جديدة ضد الهنود الحمر. ولذلك انتقلت قضية فلسطين من عقالها الأوروبي ومن فوق المحيط إلى نقطة اللا عودة في الولايات المتحدة حيث تلقفها المحافظون الجدد الذين ما زالوا على عهدهم المسيحي القديم من القرون الوسطى. فبينما كانت تنظر أوروبا إلى مشكلة إسرائيل وفلسطين بمنظار علمي أو علماني غالب الأحيان، فإن شريحة واسعة من الرأي العام الأميركي تراه بمنظار توراتي قديم. لذلك نجد هذا التحول السريع من قضية إنسانية ويهود مظلومين، من مضطهدين قاسوا الأمرّين من النازية إلى موضوع إيماني وقضية ملتصقة بالعقيدة الصهيونية التي تستثمر هذه الأصولية الجديدة إلى آخر الحدود.

٣٤

تشويه التاريخ

قوة الإسلام نابعة من تجذره في أعماق التاريخ كما كانت المسيحية من قبل. اليهودية والتوراة أيضاً هما نتاج معاناة طويلة استمرت كتابة فصولها مئات السنين. المسيحية تفاعلت مع شعوب الأمبراطورية الرومانية ودياناتهم أربعمائة سنة قبل أن تصبح دين الدولة. دخل الإسلام على التاريخ مارداً فاجتاح معظم العالم المتمدن بأقل من عقدين. يقوم الإسرائيليون وعرابوهم المتصهينون في الغرب وفي أميركا خاصة بالترويج لتاريخ ملحمي لإسرائيل القديمة غير موجود إلّا في مخيلات شعراء القبائل اليهودية التي عادت من بابل بعد أسرها من الملك نبوخذ نصر، حيث أقامت على جزء من فلسطين بقيت فيه لمدة مائة عام على الأكثر.

قوة الحضارة الإسلامية كانت شفافيتها ووضوح تعاليمها ومنطق معتقدها. كان الإسلام حافزاً على العلم «اطلبو العلم ولو في الصين»

فإذا بعلومنا في الكهوف وأولادنا في الأزقة. كيف ولماذا كنا في المقدمة وأصبحنا نجرُّ الذيل؟

كلمة أبي بكر الصديق يوم وفاة الرسول محمد درس يحتوي كل الدروس: من كان منكم يعبد محمداً فمحمد قد مات ومن كان منكم يعبد الله فالله حي لا يموت.

الله جد، الله كفاح، الله علم لأن في العلم مفتاح كل ما نشتهيه من سؤدد وعزة. والعلم جامعات ومختبرات وجهد من غير كلل. نقش أفلاطون فوق باب مدرسته: «لا يعبر هذا الباب من لا يعرف الرياضيات».

لولا العرب ولولا المسلمون لكانت معرفة الغرب لأرسطو وأفلاطون والرياضيات تأخرت عدة عقود ولربما تأخرت معها نهضته. فما بالنا قد نسينا أفلاطون وأرسطو والعقل ومقتضياته. حرروا أعينكم، أعطوا آذانكم، افتحوا أفواهكم. عيونكم وجدت لترى وآذانكم لتسمع وأفواهكم لتقول الحقيقة. ما بالكم تغلقون العيون بالأجفان وتصمّون الآذان وتضنّون علينا بكلمة حق من أفواهكم. من شاهد شهد، من سمع عرف ومن قال هدى.

لا تخافوا على الجسد لأنه سيبلى. خافوا على الفكر والعقل لأنهما وحدهما سيستمران على قيد الحياة.

الديموقراطية.. كيف ؟

استمر هلموت كول مستشاراً لألمانيا الفدرالية من عام ١٩٨٢ إلى عام ١٩٩٨ أي رئيساً للوزراء على النمط الإسرائيلي أو البريطاني يتمتع بصلاحيات رئيس دولة ورئيس وزراء[١]. في عهده توحدت ألمانيا ولكن ذلك لم يحل دون محاسبته عن رشاوى من شركات ألمانية فرنسية قبلها باسم الحزب. فاستقال على أثرها من رئاسة الحزب الديموقراطي المسيحي.

(١) لعب دوراً أساسياً في توحيد ألمانيا (سقوط حائط برلين عام ١٩٨٩). إنما ذلك لم يحل دون ملاحقته من قبل المحاكم الألمانية لتمويل حزبه بطرق غير شرعية بواسطة بعض الشركات الفرنسية والألمانية للاستمرار في الحكم.

رئيس الوزراء الفرنسي بيار جوبيه[٢] مثُل أمام القضاء في تشرين الأول ٢٠٠٣ لموافقته على توظيفات صورية لصالح الحزب الديغولي في بلدية باريس، وقد صدر بحقه حكم جزائي بالحبس والمنع من ترشيح نفسه في الانتخابات النيابية. وقد صرّح مؤخراً بأنه معتزل العمل السياسي.

طلب جاك شيراك[٣] من مجلس النواب سن قانون يحمي رئيس الجمهورية طيلة ولايته من الملاحقة لأسباب تتعلق بسوء إدارة في بلدية باريس. لكن لا بد من الملاحظة أيضاً بأن هذه السيئات في الديموقراطية لا تقاس بالأضرار التي تلحقها الدكتاتوريات بالأنظمة والشعوب. الاستفراد بالحكم عن طريق حل البرلمانات وحظر الأحزاب وتطويع الإعلام أمور غالباً ما تفضي إلى فواجع: حروب داخلية وخارجية، انحطاط خلقي وحضاري في الحكم وأدواته.

وقياساً على ذلك فإن ثراء عالمنا العربي وتبديد ثرواته في ظل الملكيات أو الجمهوريات الصورية يجعل عوراته محطّ أنظار للعالم. أين تذهب أموال النفط؟ العالم ينظر مذهولاً إلى هذه الطغم الحاكمة التي تبدد المليارات على نافل الأمور بينما الأمية سائدة ودخل الفرد لا يتعدى الدولار يومياً في بعض الأقطار.

---

(٢) من مواليد ١٩٤٥ ومن المقربين إلى الرئيس الفرنسي جاك شيراك. رئيس الوزراء من عام ١٩٩٥ إلى عام ١٩٩٧. عميد مدينة بوردو منذ عام ١٩٩٥.

(٣) مواليد باريس ١٩٣٢، رئيس وزراء لعدة مرات ابتداء من عام ١٩٧٤. انتخب رئيساً للجمهورية عام ١٩٩٥ وجدد انتخابه عام ٢٠٠١.

جمهورياتنا ممالك وممالكنا مجمّعات سكنية للهو والعبث وتبديد الثروات.

جيوش جرارة لحماية العروش وجمهوريات يا ليتها كانت ممالك لرحمت شعوبها أكثر من الجمهوريات.

٣٦

مشكلتنا مع دولة إسرائيل

كتب الرئيس السابق للكنيست والعضو في حزب «العمل» أبراهام بورغ مقالين في «الهيرالد تريبيون» كان آخرهما في تشرين الأول ٢٠٠٣.

كان للمقالين صدى في أوساط المثقفين العرب كما كان للقاء عمان الذي سمي «باللقاء السويسري» في ١١-١٢ تشرين الأول ٢٠٠٣ بين مثقفين عرب ومثقفين إسرائيليين ومنهم موسى بيلين، وياسر عبد ربه الأثر العميق في ضمائر الذين ما زالوا يعتقدون بأن هناك حلاً معقولاً للصراع العربي ـ الإسرائيلي. كل الدلائل تشير إلى أن أرييل شارون، مستثمراً الهوة التي خلقها ١١ سبتمبر ٢٠٠١ بين أميركا والعرب بين المحافظين الجدد في الحزب الجمهوري والعرب والمسلمين عامة، سيمضي قدماً في تهويد الضفة بشكل لا يسمح بعودة مجتمع عربي متماسك سليم جدير بالحياة فيها.

ما قاله بورغ في المقال الثاني في «الهيرالد تريبيون» يستحق التوقف عنده لأنه يعطي موضوع الصراع العربي ـ الإسرائيلي حقه وحجمه وبُعده التاريخي:

> «وهذا هو إعلاني العقدي: أي اتفاق مستقبلي لا بد أن يكون مبنياً على تنازلات متبادلة عن الأرض. والتسوية هذه ليست تبادلاً للعقارات، بل هي عقد معنوي بين طرفين يعترف أحدهما بالآخر، على الرغم من سنوات العداء والآثار العميقة للحقد والثأر.
>
> والواقع أن التسوية هي في الأصل تسوية للأمة مع نفسها. فأنا أؤمن إيماناً عميقاً بأن كل أرض إسرائيل لي. وهذا ما هو مكتوب في العهد القديم، وهو ما علمته لي أمي الخليلية، كما علمته لأحفادها. وأنا أعلم أن حلم فلسطين الكبرى باقٍ لدى الفلسطينيين من الجد إلى الحفيد، وفي كل منزل. ولهذا فإن التسوية الأولى هي بيني وبين نفسي وحلمي. فأنا أتنازل عن حلمي بالعودة إلى الخليل، لمصلحة الحياة الحرة في إسرائيل الجديدة. ويكون على الأخ الفلسطيني أن يتنازل عن حلمه في العودة إلى يافا، لمصلحة الحياة الحرة والكريمة في نابلس».

لا شك بأن ما يقوله بورغ يتضمن من الصدق ما لا يدعنا نيأس من إنسانيتنا: هناك رجال ونساء تعرف أن الظلم ظلم وأن الإيمان بمبادئ موروثة لا يجعل الإنسان العاقل يتخلى عن إنسانيته. العين بالعين والسن بالسن هي من المبادئ الموروثة، إلّا أن المجتمعات المتحضرة تجاوزتها، فالقاتل لا يقتل في دول يفوق عددها المائة حالياً أي ما هو أكثر من نصف دول العالم.

أن يكون أبراهام بورغ تعلم في التوراة أن أرض فلسطين كلها له ولأبنائه هو ما لا يحاسب عليه لأنه ضمن معطيات مجتمعه الموروثة كأخذ الثأر في مجتمعاتنا الشرقية مثلاً وقتل الزانية من قبل أخوتها أو أهلها. إن دعوة بورغ للمجتمع الإسرائيلي كي يقوم مع المجتمع العربي بمساومة تاريخية جريئة تجعل منه رائداً وقائداً يستحق كل احترام.

ولكن مجتمعه تجاوز للأسف كل المعادلات جاعلاً منها نوعاً من حوار طرشان في جو مشحون بروائح النابالم وشظايا القنابل الانشطارية. فلنكن أكثر واقعية في ما نريد قوله في هذا المضمار: ما فائدة كلام داعية للسلام وللحوار كما من زعيم ألماني معارض في ألمانيا هتلرية جيوشها تحتل فرنسا وتحاصر لينينغراد. إن هذه الدعوة للتعايش والحوار وفتح باب النقاش مهمة بالنسبة إلى ما بعد الحرب الدائرة اليوم إذا أصبح هذا المعارض ونعني أبراهام بورغ رئيساً لإسرائيل على غرار ما أصبح كونراد إديناور رئيساً لألمانيا بعد هتلر[١].

(١) بعد تقسيم ألمانيا إلى دولتين غداة الحرب العالمية الثانية تسلم مقدرات ألمانيا الفدرالية حليفة المعسكر الغربي بصفة مستشار من عام ١٩٤٩ إلى عام ١٩٦٣.

٣٧

بيرل هاربر و ١١ سبتمبر

إن المقارنة بين الاعتداء الياباني على الأسطول الأميركي في ٧ كانون الثاني ١٩٤١ في بيرل هاربر وتدمير البرجين العالميين في نيويورك بتاريخ ١١ تشرين الثاني ٢٠٠١ أمر جدير بأن نتوقف عنده.

التفوق الاقتصادي الصناعي الأميركي على اليابان جعل النصر حليف الولايات المتحدة وقد ترجم ذلك باحتلال اليابان.

من نتائج تدمير البرجين في نيويورك كان احتلال أفغانستان أولاً ثم احتلال العراق ثانياً.

ومن نتائج الانتصار الأميركي على اليابان التغيير السياسي والاقتصادي وحتى الاجتماعي الذي أحدثه هذا الانتصار. فمن

مجتمع شبه إقطاعي وقوات مسلحة هي الآمرة الناهية فيه تحت وصاية الأمبراطور هيروهيتو تطور المجتمع الياباني إلى ديموقراطية على الطريقة اليابانية.

التخطيط الأميركي لعراق ما بعد الاحتلال كان بمعظمه يستهلم سابقة خبرة الولايات المتحدة في ألمانيا واليابان ما بعد الحرب العالمية الثانية، فاعتبر منظّروه أن حزب البعث كان نوعاً من الحزب النازي والجيش العراقي مثل «الغيرماخت» Wehrmarcht (الجيش الألماني خلال الحكم النازي أي من عام ١٩٣٥ إلى ١٩٤٥).

تجلت أخطاء المحافظين الجدد في المغامرة العراقية على المستويين: مستوى التخطيط ومستوى التنفيذ. فبينما كان التخطيط مغلوطاً في الأساس إذ إن سبب الاجتياح المعلن هو وجود سلاح الدمار الشامل لدى العراق فقد جاء التنفيذ أكثر سوءاً، من حل الجيش العراقي إلى عملية استئصال حزب البعث الذي كان ضحية صدام حسين وليس من بنات أفكاره كما كانت النازية بالنسبة لهتلر. ثم لم تؤخذ بعين الاعتبار بعض المبادئ الأساسية في القوانين الدولية المرعية من الحفاظ على تراث البلد المحتل إلى رعاية الأسرى إضافة إلى استعمال الأسلحة المحظورة ضد المدنيين..

كان التصرف الأميركي على مستوى التخطيط والتنفيذ كارثياً بل وعلى جميع المستويات. اتخذ الأميركيون من انتصارهم واحتلالهم اليابان نموذجاً يقتدى في العراق، وعليه لا بد من المقارنة بين تصرفات بول بريمر في العراق والجنرال ماك أرثر في اليابان:

١ . استطاع ماك أرثر أن يضع الأمبراطور هيروهيتو بمنأى عن

الملاحقات القضائية لمجرمي الحرب اليابان وقد تم الاتفاق معه لقاء ذلك على توقيع معاهدة صلح ومصالحة.

٢ . قدِم مع جيش الاحتلال الأميركي إلى العراق أحمد الشلبي كزعيم ومخطط للاحتلال وهو لا يتمتع بأي مصداقية لا على الصعيد الدولي ولا على الصعيد العراقي.

٣ . استبيحت مقدرات العراق ابتداء من متحف بغداد إلى جميع مؤسساته ما عدا وزارة النفط، بينما حافظ الجيش الأميركي على مؤسسات ومقدسات الشعب الياباني من المعابد إلى العادات في بلد آسيوي عريق كاليابان.

٤ . جرى تسريح الجيش العراقي الذي كان يتقاضى رواتب زهيدة والذي كانت علاقته بالنظام مختلفة عن ارتباط الجيش الياباني بالنظام.

إضافة إلى كل ذلك فإن الولايات المتحدة تقود حربها ضد «الإرهاب» بشكل يقلق المسلمين في شتى أقطارهم، إذ إنها داخلياً ـ وزارة العدل والمؤسسات الأمنية ـ قد أعلنت حرباً بلا هوادة ضدهم وإن كان ذلك من خلف الستار.

هل تسأل الإدارة الأميركية نفسها كيف يمكنها الانتصار على «الإرهاب» بدون معالجة أسبابه أو ما هي الحدود الجغرافية لهذا الإرهاب؟ يبلغ عدد المسلمين ما لا يقل عن مليار ومائتي مليون من البشر وعددهم مدعو للازدياد وبسرعة في آسيا وأفريقيا والولايات المتحدة بالذات.

٣٨

الفيزياء والميتافيزيقيا

الفاصل بين الحضارة واللاحضارة هو مقاربة الموت. فمن يرضى الموت هو ابن الحياة. استطاع الإسلام أن يكون من أول المقاربات الحضارية للموت بينما أغلبية الحضارات التي سبقته رفضت قبوله كحقيقة من ضمن الحياة.

وخير شاهد على ذلك الحضارة المصرية القديمة: كان المصريون يبنون تحت الأرض مدناً تفوق مدنهم فوقها. جاء الإسلام وقال: لا تعبدوا أمواتكم وتشيدوا لهم الأضرحة والقصور لا إله إلّا الله محمد رسول الله.

كان الإسلام مرحلة على طريق الحضارة الحديثة في احتساب الموت ضمن الحياة كما كان المسيح مرحلة من إعادة الله إلى السماء بعد أن كان أمبراطوراً يجلس فوق عرش روما الوثنية.

كلما ابتعد الإنسان عن الفيزياء واتخذ الميتافيزيقيا سبيلاً للعيش زاد ابتعاداً عن الحضارة. الحضارة هي أن يدوس الإنسان الأرض والقمر والمريخ وبذلك يدوس الموت. تتضمن الحضارة نوعاً من المفارقة والفراق بين الفيزياء والمتيافيزيقيا بين الطبيب والساحر بين القابلة والمستشفى. تجاوزت أوروبا هذا الصراع بين الخطين بهذا الفاصل الذي وضعته بين الفيزياء والميتافيزيقيا بما دعي العلمانية. نحن كشرقيين اعتبرنا العلمانية هرطقة وخروجاً على الدين إنما لم نأت بحل يقودنا إلى الدخول في الحضارة التي هي الفيزياء. لم نقدم على فصل مزودة القلب التي هي الميتافيزيقيا عن مزودة العقل التي هي الفيزياء. إذا كانت العلمنة إشكالية مستعصية فما زال الحل بحد ذاته مطلوباً وبإلحاح فما هو اذاً؟

يوم تدمير برجي نيويورك في ١١ أيلول ٢٠٠١ انقسم الرأي العام العربي، ومنها المفكرون والسياسيون، ليقولوا ما يلي:

١. إن هذا الاعتداء ليس من صنع فدائيين عرب أو مسلمين.
٢. إن الاعتداء خططت له «الموساد».
٣. كتب بعض الصحافيين والمفكرين العرب أن المستوى العلمي العربي أعجز من أن يبرمج عملاً مدمراً بهذه الدقة والفعالية. علماً بأن عملاً كهذا لم يكن يتطلب ولا حتى إتقان قيادة الطائرات بل معرفة قواعد بدائية في القيادة من إرغام ربان الطائرة على تغيير وجهه سيره إلى معرفة أنه فعل ذلك.

هذا التحقير لقدرات العقل العربي لتبرئته من العمل الخطير هو انزلاق نحو متاهات الميتافيزيقيا بدلاً عن علوم الفيزياء أي تحقير لتاريخنا ومنجزاتنا إضافة إلى عدم الثقة بالنفس وسوء جثيم في التربية وافتقاد فادح لروح المسؤولية.

حضارتنا المسيحية والإسلام

الحدثان الأبرزان في تاريخ المسيحية كانا انفصال روما عن القسطنطينية كنسياً عام ١٠٥٤ ثم إعلان مارتن لوثر معارضته لكنيسة روما عام ١٥١٦.

الحدثان الأبرزان في تاريخ الإسلام الحضاري هما الانشقاق الذي حدث في الإسلام بعد اغتيال الإمام علي صهر النبي محمد عام ٦٦١ وخروج الإسلام من الأندلس عام ١٤٩٢.

نشأت المسيحية في الجليل وأورشليم ولكن ولادتها الحقيقية تمت في روما على يد العبيد والمقهورين. لذلك فإن الأناجيل الأربعة ثم رسائل القديس بولس ـ الضابط الروماني ـ انتشرت في العالم القديم باللغة اليونانية التي كانت لغة المثقفين في الأمبراطورية وليس باللغة الآرامية.

جميع العقائد الجديدة تبني هياكلها فوق هياكل العقائد المترهلة التي سبقتها. اليهودية، المسيحية، الإسلام، الشيوعية. صورت المسيحية روما القديمة بؤرة للبربرية والفسق والإجرام. كذلك فعل اليهود الذين كان سباهم نبوخذنصر إلى العراق (٥٨٧ ق.م.) بحضارة بابل وملوكها علماً بأن الحضارة الإنسانية بمضمونها الكتابي والتصويري رأت النور بفضل الحضارات البابلية والأشورية والأكادية.

أما الشيوعية فنعرف كيف صورت الرأسمالية والبورجوازية بأقبح الصور لتبرر عقيدتها.

أما المسيحية والإسلام فكانا دينين نقديين وإتماميين في الوقت نفسه. المسيحية جاءت لتكملة اليهودية والإسلام كتكملة للرسالتين.

في المسيحية كما في الإسلام، قبول لماضٍ وفي الوقت نفسه معارضة له. فيتقدم الرفض على القبول أو العكس وفق الحاجة. المسيحية اضطهدت اليهودية وكذلك الإسلام في بعض مراحله، اضطهد الدينين معاً.

بقدر ما يرتبط ما يسمى «الإرهاب» اليوم بالقسم الرافض من الإسلام لسائر العقائد، بقدر ما أنه يقود معركة خاسرة تعزله عن شريكه في الحضارة ألّا وهو الدين المسيحي. خطورة وأضرار دعوة بن لادن تكمن في هذا الإطار. دعوة بن لادن مشروعة في الأساس ـ محاربة الاستعمار والصهيونية ـ ولكنها محدودة الأفق لتركيزها ليس على حداثة الإسلام بل على سلفيات هي من ماضي الإسلام وليس من مستقبله.

٤٠

هل أعداء الإسلام في مأزق أم المسلمون؟

الموضوع له عدة وجوه إلّا أنه يبقى مطروحاً بشكل أكثر جدية بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ والحملة التي تشنها واشنطن على «الإرهاب» ومن خلاله، وفي معظم الأحيان، على العرب والمسلمين.

طبعاً يجب أن لا ننسى أن الذين قاموا بتدمير البرجين في نيويورك ينتمون جميعاً إلى الدين الإسلامي وكان ١٤ منهم يحملون الهوية السعودية والآخرون من جنسيات عربية مختلفة.

استنكرت الدول العربية هذا الاعتداء وعلى رأسها المملكة السعودية، ولكن الإدارة الأميركية طرحت على نفسها أسئلة لم تبقَ دون جواب.

١. ما هي المدرسة التي تنتج الاستشهاديين؟

٢. لماذا هذا العداء المستميت لمجتمعنا؟
٣. ما الذي يجب أن نفعله لتغيير هذا الواقع؟

جاء الرد سريعاً من قبل الولايات المتحدة إذ جرى احتلال أفغانستان ثم اجتياح العراق. وافقت الدول الأوروبية على اجتياح أفغانستان للرابط بين ١١ سبتمبر وحكم طالبان في أفغانستان، ولكنها عارضت اجتياح العراق بالاشتراك مع معظم دول العالم لضعف الحجج التي تثبت ارتباط العراق بحادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وامتلاكه أسلحة الدمار الشامل الذي كان تعهد عام ١٩٩١ بعدم اختبارها.

طرح الأميركيون السؤال ولكنه يبقى مطروحاً بهم أو بدونهم: لماذا مدرستنا في مأزق؟ هل يريدون لنا مدارساً تعلمنا الإذعان لإسرائيل أم مدارس نتعلم فيها كيف نصبح أحراراً وأبناء العصر؟

كل المشكلة بيننا وبين المستعمرين أننا نطمح إلى مدرسة على مستوى مدارسهم ويريدونا لنا مدارس على مستوى مطامعهم.
هذه هي العقدة وهنا التباين وهنا المشكلة.

أميركا متجهة أكثر فأكثر للقبول بالحاضر العربي السلفي المتردي بدلاً عن مستقبل عربي يؤدي إلى فضح سياستها الرامية إلى إخضاع العالم العربي لإرادتها وإرادة إسرائيل.

ستعدل أميركا حتماً عن نشر الديموقراطية في الشرق الأوسط وعن التعاون مع النهضة العربية كما عدلت عن احتضان الديموقراطية والتقدم في أميركا اللاتينية لأنها وجدت في الديموقراطية والنهضة الأميركية الجنوبية مواقع أكثر عدائية لمخططها الاستعماري.

٤١

هل المسلمون في خطر؟

في ديار الإسلام نقاط قوة لا يضاهيه فيها أحد ونقاط ضعف يجب النظر إليها بعين مجردة كي نحمي أنفسنا من شرورها.

قوة الإسلام والمسلمين في التماسك في الانتشار والثبات أمام المحن والحملات ضدهم. بفضل الإسلام كانت قوة شكيمة الثورة الجزائرية على فرنسا وصمود شعب فلسطين الهائل ومقارعة شعب العراق للاحتلال الأميركي.

ولكن هذه القوة وهذا الثبات يعتريهما جمود يفقدهما أحياناً فاعليتهما، ومرده في معظم جوانبه إلى غرق مجتمعاتنا في دنيا الميتافيزيقيا وإهمالها عالم الفيزياء.

إن ضرورة وقوف الإسلام على رجليه ماسة لأنه يخوض حروباً وعلى جميع الجبهات: فلسطين، العراق، الشيشان، كوسوفو، الفيليبين، كشمير إلخ.

إن لم يكن من الضروري أن يكون له كلمة الفصل فيها جميعاً، فمن الواجب أن يعتمد وسائل أعدائه في صد عدوانهم عليه.

إن التاريخ الإسلامي مليء بالعبر في هذا السياق: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً وأعمل لآخرتك كأنك تموت غداً» لعلي بن أبي طالب.

ماذا نفعل لدنيانا التي ستعيش أبداً إلّا اللهو بالمال الحرام الذي هو مال الشعوب مال الفقراء أي منازلهم ومدارسهم ومستشفياتهم وجامعاتهم.

كل ذلك طبعاً لا يعفي الغرب ولا سيما أميركا من المشكلة التي أوقعانا بها في فلسطين. لذلك فإن السؤالين المطروحين من قبل بعض قادة العرب والمسلمين الواعين يبقيان مطروحين وإن من غير جواب.

يقول عبد العزيز بوتفليقة: «لا يمكننا أن نتجاهل حقيقة جلية وهي أن كل الدول المتحدرة من الحضارات القديمة، والديانات السماوية، والمعتقدات القديمة قد سبقتنا»[1]. مهاتير محمد يسأل من جهته في القمة الإسلامية التي عقدت في ماليزيا في ٢٠ تشرين الأول ٢٠٠٣: لماذا على العرب والمسلمين أن يدفعوا ثمن اضطهاد أوروبا

---

(١) فشل النهضة العربية وسببه، دار النهار، بيروت، ٢٠٠٤.

والمسيحيين لليهود؟ والمسألتان مرتبطتان: التخلف يشرع الأبواب للاستعمار وفق المثل القائل «المال السايب يعلم الناس الحرام».

أهمية موقف مهاتير محمد تكمن في ما يلي:

١ . رئيس دولة غير عربية مسلمة يتحسس مع العرب أوجاعهم في فلسطين والعراق ويتجرأ على قول حقيقة ما يخاف قولها مسؤول عربي .

٢ . الضجة التي أثارها كلامه في العالم والتنديد به ثم طلب الاعتذار عنه من قبل أميركا والدول الأوروبية.. كل ذلك يدل على أن جرحاً بليغاً لم يندمل بعد قد وضع الرئيس الماليزي إصبعه عليه.

مما قاله مهاتير محمد في كلمته أمام المؤتمر هو التالي: «الأمة (الإسلامية) تعامل باحتقار. يتعرض ديننا للتشويه. تُدنّس مقدساتنا. تحتل بلداننا وتجوّع شعوبنا وتقتل». وقال: «إننا في واقع الأمر أقوياء جداً. مليار وثلاثمائة مليون مسلم لا يمكن أن يهزمهم بضعة ملايين يهودي». وأضاف: «إن الأوروبيين أبادوا ستة ملايين يهودي من أصل اثني عشر مليوناً (في إشارة إلى التجربة النازية)، لكن اليهود اليوم يديرون العالم بالوكالة ويجعلون الآخرين يقاتلون ويموتون بدلاً منهم ولأجلهم». ويضيف أنه «حتى بين اليهود، هناك كثيرون لا يوافقون على ما يقوم به الإسرائيليون». ثم دعا مهاتير محمد المسلمين إلى الاتحاد اقتصادياً وسياسياً ودينياً لرد «الإهانة» كما دعاهم إلى تحكيم العلم والعقل وعدم التركيز على القوة حصراً.

اعتراض الأوروبيين والأميركان على ما قاله مهاتير محمد سببه أنه قال الحقيقة. الحقيقة، على حد قول نعوم شومسكي وإدوارد سعيد،

يجب أن تبقى بكل ما يتصل بإسرائيل طي الكتمان. هل أنه قول هراء بأن الأوروبيين بالتضامن والتكامل مع النازيين أبادوا ستة ملايين يهودي؟

ألم يستعمل الأوروبيون هذه المحرقة الجماعية (الهولوكست ـ الشوا) للتعويض على الذين بقوا على قيد الحياة منهم بأرض ليست ملكهم أي فلسطين العربية كفدية لجريمة اقترفها الأوروبيون.

أليست حقيقة أن اليهود لم يخضعوا للاضطهاد في أرض الإسلام بل كانت لهم ملجأ وموئلاً عند اضطهادهم من الأوروبيين في عصر محاكم التفتيش وبعدها، أي تركيا مثلاً في الحرب العالمية الثانية.

أليست حقيقة دامغة لا لبس فيها أن المسيحي الأوروبي باستطاعته أن يشتم المسيح والمسيحيين في الساحات العامة من باريس إلى لندن إلى واشنطن، إلّا أنه إذا تلفظ بكلمة واحدة ضد اليهود ومعتقداتهم تقام عليه الدعاوى باسم «معاداة السامية» ويحاكم أمام القضاء ويحكم عليه بالسجن ويضطهد في مجتمعه حيث الحرية الفكرية مسموحة بل إنها حلال ومطلوبة إلّا بموضوع اليهود.

فما الضير في قول مهاتير محمد أن الستة ملايين الباقين من اليهود يستعملون الغير للقيام بحروبهم ضد العرب والمسلمين؟ وإن كان هذا القول حقيقة مجتزأة فلماذا هذه الضجة العارمة والاعتراضات على مستوى وزراء الخارجية وملامة الرئيس شيراك من قبل الحركات الصهيونية الأوروبية لأنه لم يقم بواجبه في هذا المضمار.

هل هو سر أن الإدارة الأميركية الحالية ومستشاريها وبالأسماء من

ليو بول وولفويتز، إلى بيرل إلى كاغان، إلى كريستول إلى بودوريتز إلى ليدن إلى دونللي إلى جوشوا إلى موراشفيك إلى جاكوب هلبرون إلى غاري شمث إلى فرانك غافني إلى السيدة دانيال بلتكا إلى جورج بوش الابن بالتحديد هم أكثر حماسة لإسرائيل وأطماعها مما هو الطاقم الحاكم في إسرائيل.

مهاتير محمد رفع الستار عن حقائق وبديهيات في مؤتمر إسلامي لا يتمتع واقع الأمر بأهمية تذكر، فقامت من أجل ذلك القيامة ضده لأن الحقائق مقلقة لمن يريد إسدال الستار عليها. إنما ما يثلج الصدور أن هذه الحقائق التي تم إطلاقها في المؤتمر الإسلامي عام ٢٠٠٣ هي كلمات لن تطويها الأيام وقد أصبحت متداولة في العالم الإسلامي بأجمعه. هدف الإدارة الأميركية - يقول شومسكي - أن تصل القضية الفلسطينية إلى حد أدنى فتبلغ مستوى القضية الكردية أي موضوع نقاش بين أكاديميين مجهولة من الناس العاديين عندما تحدثهم عنها. مهاتير محمد خالف الأعراف الدولية والدبلوماسية الرائجة والأعراف في التعامل مع البيت الأبيض وإسرائيل.

لكن العرب والمسلمين وإن تجاهلوا أو جهلوا أصبحوا يعرفون أنه ليس عليهم أن يدفعوا ثمن أخطاء غيرهم، أي النازيين، في الحرب العالمية الثانية وسقوط الشيوعية في الاتحاد السوفياتي الذين ساهموا في إسقاطها فكان لهم من جراء ذلك جزاء إرسال مليون روسي كمحتلين جدد لأرض فلسطين.

الفلسطينيون «إرهابيون» لأنهم يقاتلون لأجل أن يجلو المحتل عن أرضهم، بينما اليهود الأوروبيون وأعوانهم الذين دخلوا الجليل ونابلس وجنين ورام الله جاؤوا لإحلال السلام ونشر الحضارة وفتح المدارس

والمستشفيات في المدن العربية المتخلفة. مهاتير محمد هو رجل معتدل ولم يقل إلّا ربع الحقيقة التي يعرفها جيداً كل أحرار العالم وفي مقدمهم الرؤساء الأوروبيون أي جاك شيراك في فرنسا وشرودر في ألمانيا وبوتين في روسيا.

٤٢

إيران في الإسلام

من الأفكار المسبقة الرائجة في بعض منتديات أهل الفكر في العالم الثالث ولدى عامة الناس ولها جذور ميتافيزقية في غالب الأحيان، أن الأمور مقررة سلفاً من قبل قوى خفية تقود مصير الإنسان والعالم. وهذا الاعتقاد من أسباب إثباط الهمم في المجتمعات الشرقية. قبل الحرب العالمية الثانية كانت عامة الناس تعتقد بأن الاستخبارات الإنكليزية هي التي تدير شؤون العالم ولا شريك لها فيه. بعد الحرب العالمية الثانية أصبحت الـ «سي أي إيه» الأميركية في الغرب والـ «ك ج ب» السوفياتية في الشرق مسؤولتين عن كل ما يعتري العالم من مصائب. علماً أنه وبعيد الحرب العالمية الثانية استقلت يوغوسلافيا في أوروبا الشرقية ومن بعدها رومانيا عن سلطة ستالين ثم لحقت بأميركا الهزائم من حرب كوريا إلى حرب فييتنام. في أواخر السبعينيات اجتاح الجيش الروسي أفغانستان وانهزم فيها وأعقب ذلك تفكك

النظام الشيوعي في أوروبا.

بروز نجم الإمام الخميني على المسرح العالمي من محل إقامته قرب باريس فسره البعض كخطة أميركية ـ فرنسية للجم مطامع الشاه الشرق أوسطية. ثم لم يطل الزمن حتى ظهرت الأمور على حقيقتها: استطاع الإمام الخميني بالتعاون مع المعارضة ضد الشاه والإسلاميين في إيران الانقضاض على الحكم في طهران بواسطة الوسائل المتوفرة له في منفاه الفرنسي من إعلام ومعارضين مقيمين في أوروبا. اعتقاد بعض الباحثين والمعلقين السياسيين أن الثورة الإيرانية تتمتع بدعم غربي عززه كونها تلازمت مع اصطدام الاتحاد السوفياتي بالموجة الإسلامية التي قادتها ضده الولايات المتحدة بعد تدخله في أفغانستان ابتداء من عام ١٩٧٩.

غير أن الحقيقة قد تجلّت وبغير قناع غداة الثورة الإيرانية نفسها التي أطلقت تسمية «الشيطان الأكبر» على الولايات المتحدة و«الشيطان الأصغر» على الاتحاد السوفياتي.

أما الذي جعل الأمور تتخذ منحى خطيراً بالنسبة إلى التحول التي أحدثته الثورة الإيرانية في المنطقة، فهو أن الولايات المتحدة عمدت للتعويض عن حليف بأهمية شاه إيران والجيش الإيراني إلى تقوية أواصر تحالفها مع إسرائيل على مستويات لم تكن بلغتها قبلاً؛ انتقل الرئيس رونالد ريغان من مرحلة التفاهم مع إسرائيل إلى مرحلة التكامل معها.

وبالإمكان تفسير ما جرى في لبنان منذ عام ١٩٧٩، ومنها اجتياح إسرائيل له عام ١٩٨٢، ضمن هذا التكامل في المخطط والأهداف.

يوافق معظم المؤرخين الأميركيين على أن نظرة الرئيس بوش الابن إلى شؤون العالم تتفق مع النظرة «الريغانية» للأمور ومنها إعادة مقولة «محور الشر» الذي يشمل العراق وإيران وكوريا الشمالية.

بدت نظرة الرئيس جورج دبليو بوش إلى ايران لأول وهلة وكأنها أقل عدائية مما هي عليه بالنسبة إلى العراق. إلّا أنه وبعد اجتياح العراق انجلى الأمر على حقيقته، وذلك عندما فتح أرييل شارون ملف المفاعل النووي الإيراني في بوشهر.

محور الاهتمام الأميركي في الشرق الأوسط يتناوب الأولية وفق الظروف والحاجة: منابع النفط وأمن إسرائيل ولا ثالث لهما. وتتخذ إيران أهمية بقدر ما أنها تدخل في ميدان الاهتمام الثاني لأميركا وإن لم تكن غائبة عن الأول. في أوائل شهر تشرين الأول ٢٠٠٣ أعلن أن إسرائيل اشترت من ألمانيا ثلاث غواصات زودتها بصواريخ أميركية الصنع بإمكانها حمل رؤوس نووية وتوجهت إلى الخليج الفارسي.

وكانت قد سربت أنباء وبشكل فيه الكثير من الاقتضاب ـ كما هي العادة عندما يكون الخبر ذا أهمية قصوى ـ بأن الولايات المتحدة سلمت إسرائيل كمبيوترات متقدمة تجعل إصابة الهدف متيسراً وفي منتهى الدقة.

كان هتلر قبل أن يعلن مطالبه من الدول المجاورة يرسل جيشه إلى حدودها ثم يبعث في أعقابه «مفاوضين».

في ٢١ تشرين الأول ٢٠٠٣ حط في مطار طهران ثلاثة وزراء

خارجية أوروبيون: دومينيك دوفيلبان عن فرنسا وجاك سترو عن بريطانيا ويوشكا فيشر عن ألمانيا «واتفقوا» مع وزير خارجية إيران كمال خرازي والرئيس الإيراني محمد خاتمي على «تعليق تخصيب اليورانيوم مؤقتاً» إضافة إلى الموافقة على مراقبة نشاطات إيران في الشأن النووي وتوقيع بروتوكول إضافي للحد من انتشار الأسلحة النووية وإظهار التعاون والشفافية تجاه الوكالة الدولية للطاقة النووية.

أبدت الولايات المتحدة حذرها من الاتفاق بينما شككت إسرائيل بالنوايا الإيرانية مدعية أن إيران تستطيع إنتاج قنبلة ذرية بقواها الذاتية خلال سنة. والموضوع ما زال مطروحاً. هتلر يتغاضى عن الإساءة إلّا أنه لا ينسى.

في المنظار الأميركي هناك توازن قوى رعب لا بد من المحافظة عليه لاستتباب الأمن في الشرق الأوسط وفي العالم: ستة ملايين مستعمر يجب أن يبقوا على مستوى من القوة يجعلهم يفرضون إرادتهم على ثلاثمائة مليون عربي ومليار ومايتي مليون مسلم ويستبيحون أرضهم.

٤٣

المسؤولية اللبنانية في أحداث لبنان

هناك حدثان فاصلان في تاريخ حرب لبنان ١٩٧٥ ـ ١٩٩١ يعبّران عن مسؤولية اللبنانيين فيها رغم ما قاله غسان التويني عنها والذي يبقى جزءاً من الحقيقة: «حرب من أجل الآخرين».

في كل الحروب الداخلية يتدفق السلاح على المقاتلين من كل حدب وصوب لدعم فريق ضد آخر. يضاف إلى ذلك إرسال الرجال للاشتراك في الحرب أحياناً. هل من حرب داخلية في القرن العشرين لم يتداخل فيها الآخرون فتصبح حروبهم، قبل أن تكون حروب أهل البلاد؟ اشترك في الحرب الأهلية الإسبانية ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ الألمان والطليان والمتطوعون من جميع الدول الأوروبية. أما الحرب الداخلية اليونانية وذلك بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٦ ـ ١٩٤٩ فقد اشترك فيها الجيش البريطاني وكانت الغلبة فيها للنظام الملكي على الحزب

الشيوعي اليوناني. والأمثلة عن الحروب الداخلية التي تصبح حروباً إقليمية أو عالمية لا تعدّ ولا تحصى. من حرب كوريا إلى حروب أفغانستان. فلبنان إذاً لم يتفرد بالتدخلات الجانبية والأجنبية في حربه الداخلية بل كان شأنه فيها شأن الآخرين.

هذه اللمحة الموجزة من معالم الحرب اللبنانية، إضافة إلى اختيار لبنان الرسمي والشرعي طي صفحة الحرب من غير محاسبة المتقاتلين، لا تعفينا من قول بعض الحقائق عنها.

قول الحقيقة يشبه أحياناً الحماقة أو البلاهة، إنما تجاهل الحقيقة أو جهلها فقد تكون غالباً بلاهة وحماقة أكبر. اعرفوا الحقيقة تخلصكم. اعرفوها وقد لا تعلنوها إلّا يوم يحين وقت البوح عنها، لكن اعرفوها.

العمل الأكثر عدائية الذي قام به الفلسطينيون ضد الأحزاب المسيحية المناوئة لهم كان صعودهم إلى جبل صنين عام ١٩٧٦ وتهديدهم مناطق كسروان والمتن وجبيل بالاجتياح. إنها المغامرة الفلسطينية الأخطر والتي جعلت بيار الجميل وكميل شمعون وسليمان فرنجية يطلبون تدخل الجيش السوري النظامي في لبنان.

من جرّد هذه الحملة على المناطق المسيحية؟ ياسر عرفات، أحمد جبريل، جورج حبش، نايف حواتمة؟ من فينا يعتقد بأن هؤلاء «الغرباء» عن لبنان كان باستطاعتهم حتى التفكير باجتياح المناطق المسيحية وتنظيم حملة عليها إن لم يكن يعاضدهم فيه قسم لا يستهان به من اللبنانيين. إن المسؤول عن هذه الحملة الخطيرة كان رحمه الله كمال جنبلاط ورفقاء دربه من جورج حاوي أمين عام

الحزب الشيوعي إلى غيرهم من قيادات لبنانية أرادت الذهاب بالمغامرة العسكرية إلى آخر الطريق.

المقصود مما أقوله أنه يكفينا تحميل الآخرين مغبة أعمالنا ومغامراتنا وتهورنا وجرائمنا أيضاً، وإلا عدنا فوقعنا فيها مجدداً لأن من قتل أخاه قتل نفسه.

تفاعلوا مع أخيكم ولا تقتلوه. الحب والكراهية، هما ضمن الحياة أما القتل فهو خارج الحياة. ابتعدوا عن القتل. احترموا الحياة كي تحترمكم.

نجاح هذا الاجتياح للمناطق المسيحية كان أدى إلى تهجير أهلها. ماذا كان استفاد اليسار وفلسطين والقضية العربية من هذا التهجير؟

يوم اجتاح الجيش الإسرائيلي جنوب لبنان وجبله عام ١٩٨٢ انتشرت ميليشيا الكتائب في المناطق الدرزية بحجة منع «الإرهاب». من كان المسؤول عن هذا الانتشار؟ الرأي العام يحمّل الشيخ بشير الجميّل مسؤولية هذه الحملة العسكرية على الجبل. بينما هناك مسؤول واحد عنها هو بيار الجميل وبنفس القدر من المسؤولية ابنه بشير وبنفس القدر من المسؤولية التي يتحملها كمال جنبلاط عند قيام المنظمات الفلسطينية بالصعود إلى صنين لاجتياح منطقة كسروان.

رحم الله كمال جنبلاط وبيار الجميل يوم أصابا ويوم أخطأا الحساب. إلّا أن معرفة الحقائق والتوقف عندها والتأمل فيها أمر لا بد منه كي نصوّب طريق مستقبلنا.

لا نطلب محاكمة، عقدنا الخناصر جميعاً على طي صفحاتها. تجاوزنا المحاكمات والمحاسبات وقد طواها قانوناً مرور الزمن. إلّا أن الحقيقة يجب أن يُفصح عنها. لم يغمض جفن الفرنسيين قبل أن يعرفوا الحقيقة حول اشتراكهم في عملية الهولوكوست ضد اليهود ـ وهي جريمة ضد الإنسانية ـ وقد اشترك بها فرنسيون أيضاً عاونوا النازيين الألمان فيها ضد إخوتهم اليهود الفرنسيين. بذلك استراح الفرنسيون وإن لم يسترح ضميرهم.

الشيء نفسه بالنسبة إلى حرب الجزائر: باب الجدل مفتوح حولها. ماذا عن القتل وعن التعذيب؟

كلفتنا حرب لبنان مايتي ألف قتيل ما عدا المشوهين والمعوقين. حقائقها يجب أن تعرف، حتى لا نعيد فصولها تحت شعارات أخرى ومن قبل متقاتلين جدد يوماً ما.

جذور الأمة العربية الواحدة مغروسة في لبنان وإن كانت غصونها تمتد إلى الدار البيضاء. كل قضية وإن بدت لبنانية الجذور فهي عربية الفروع وامتداداتها تطال الوطن العربي من المحيط إلى الخليج. لبنان بطوائفه وعقائده ونزعات أهله المتناقضة والمتكاملة في آن هو النموذج المصغر عن العالم العربي الذي لا بديل له عن الوحدة ليقف على رجليه. وما يجري في العراق اليوم يعكس هذه الملابسات وفي جميع تناقضاتها.

أهمية الشرق العربي نابعة من بتروله

لكل عصر مواده الأولية وتقنيته المتقدمة. كان الحرير والتوابل يشكّلان مواد أساسية في عصرهما كما كان المنجنيق والقوس والنشاب يقرران مصير المعارك بين الدول.

الحضارات التي عرفت سروج الخيل قبل غيرها استطاعت أن تتفوق على الحضارات التي كانت تمتطي الخيول عارية. والفيلة لعبت دوراً مهماً في المعارك التي دارت بين روما وقرطاجة كما الجمل قبل الإسلام وبعده. أحب العرب سيوفهم فدعوها «الهندي» و«المهند» ـ لأنهم استوردوه من الهند ـ و«الحسام» و«الصارم» و«البتّار» و«الباتر» إلخ. وتغزلوا بها لأنها كانت توأم سؤددهم: السيف والخيل والليل. انتصر الصليبيون في غفلة من أهل البلاد لأنهم كانوا يعتمرون خوذاً فولاذية بينما لم تكن هذه الخوذ رائجة بين أهل المنطقة. فلما اعتمدتها

الجيوش الإسلامية، الأتراك ثم الأكراد، تعدلت موازين القوى في المنطقة. خلال الحملة الصليبية الأولى كانت طريق آسيا الصغرى مفتوحة أمام الصليبيين لعدم تجذر العنصر التركي فيها. ابتداء من القرن الحادي عشر أخذت القبائل التركية التي اعتنقت الإسلام تبسط سيطرتها على آسيا الصغرى وبذلك توقفت طرق الإمداد عن طريق البر للصليبيين في فلسطين.

للتقنية دائماً دور أساسي تلعبه في المفاصل المهمة من التاريخ. استطاع السلطان محمد الثاني الاستيلاء على القسطنطينية بفضل جيش متقدم على جيوش عصره بالتنظيم والفاعلية، إضافة إلى استعمال المدفعية المستحدثة التي مكنته من دك أسوار المدينة المحاصرة. اجتياز كريستوفر كولومبس للمسافة البحرية التي تفصل أوروبا عن أميركا لم يكن ممكناً لولا اختراع الدفة التي تسمح للسفن الكبيرة بتغيير مسارها عند الحاجة.

كيف استولت أوروبا على العالم في القرن التاسع عشر؟ بسفنها البخارية، بالبندقية. بماذا أميركا وإسرائيل يقرران مصيرنا اليوم في الشرق الأوسط؟ بخوذ جنودهم التي لا يخترقها الرصاص وبمصفحات «أبرامس» التي لا تخترق صفائحها قذائف الـ«آر. بي. جي» من الحرب العالمية الثانية، وبطوافات «أباتشي» وطائرات «ف ١٦» التي لا تطالها مدافع الـ DCA من الحرب العالمية الثانية أيضاً.

بعد الحربين العالمية الأولى والثانية برز دور النفط محورياً في الشرق الأوسط، خصوصاً بعد أن استنفدت الولايات المتحدة مخزونها خلال الحرب العالمية الثانية. يضاف إلى ذلك التطور الذي طرأ على

الصناعة من جراء الحرب العالمية الثانية وكون البترول يشكل عنصراً أساسياً فيها.

إذا نظرنا إلى الأمور بعين مجردة وجدنا أنه وبالإضافة إلى ما يعتبره فوكوياما إرادة إثبات الوجود في الصراعات بين الأفراد والمجتمعات، ما زال الاستيلاء على الثروات الطبيعية التي هي مصدر كل تقدم وازدهار من أسباب الحروب الأساسية.

من أسباب الحربين العالمية الأولى والثانية كانت حاجة ألمانيا إلى مستعمرات تستثمر خيراتها وتشكل سوقاً لمنتجاتها. كانت بريطانيا وفرنسا قد استولتا على معظم أراضي القارات الخمس فلم يبق لألمانيا دور تلعبه في هذا المضمار.

اجتياح الاتحاد السوفياتي من قبل النازيين عام ١٩٤١ كان يتضمن كسر شوكة النظام الشيوعي الذي شكّل تهديداً للنظام النازي ولكنه وفي الوقت نفسه، استعمار الاتحاد السوفياتي القديم، كان قد يوفّر لألمانيا النازية موارد طبيعية فائقة الأهمية من النفط إلى المعادن.

٤٥

التخلف ومعالمه

عوارض داء التخلف معروفة. وكذلك أدويته. التخلف في التربية: إنجاب الأطفال ثم عدم إرسالهم إلى مدرسة على النمط الأوروبي أو الياباني أو الصيني. التخلف في المسؤولية السياسية: عدم التفريق بين المال العام والخاص. التخلف في التعامل مع القانون: اعتبار الحاكم نفسه بمنأى عن تطبيق القوانين والدساتير فيجترح البرلمانات الاسمية، والموازنات الوهمية، والسلطات الوراثية.

إن الانتقاد الموجه إلينا من قبل برنارد لويس[١] وإن كان لاذعاً ويتضمّن شماتة أحياناً فلا بدّ من دراسته للتبصر في ماضينا وحاضرنا

(١) أستاذ في جامعة برنستون الأميركية. يعتبر من الاختصاصيين الكبار في تاريخ السلطنة العثمانية والشرق الأوسط.

واستكشاف مستقبلنا. برنارد لويس مؤرخ معادٍ للعرب والمسلمين إجمالاً ويختلف بذلك عن المستشرقين القدامى كالذين عرفناهم في القرنين السابقين من ماسينيون[٢] وأساتذة المعهد الفرنسي في دمشق ولورنس العرب الشهير.

من يوم نشأة إسرائيل مضى زمن المحاباة بيننا وبين عدد غير قليل من المستشرقين الغربيين. يقولون ما يضمرون لنا وإن تسلحوا بالموضوعية التي نعرف مضمونها وخاصة الأميركيين واليهود منهم. ونحن بدورنا نقول لهم حقائقهم كما فعل إدوارد سعيد ومهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا. بيننا وبينهم صراع بالكلمة قاده إدوارد سعيد عالمياً وميشال شيحا لبنانياً ومحمد حسنين هيكل على مستوى المنطقة.

مشكلتهم ومشكلتنا أنهم يضعون إسرائيل في كفة ميزان ويضعوننا جميعاً كعرب وكمسلمين في الكفة الأخرى منه ويفاضلون. لنا نظرة أخرى للأمور لن نتردد في قولها. الجريمة والاستعمار هي كذلك. وما دمنا أحياء لن يطويهما النسيان.

---

(٢) Louis Massignon (١٨٨٣ - ١٩٦٢) مستشرق فرنسي أستاذ في كولدج دي فرنس والدراسات العليا. من أهم مؤلفاته «**موت الحلاج شهيد الإسلام الصوفي**»، ١٩٢٢. اتسمت دراساته بالود والتقدير للعرب والإسلام.

٤٦

هل أن العرب أو المسلمين عنصريون؟

كان العرب نواة الإسلام وكان الإسلام نواة الحضارة بكل ما للكلمة من معنى. اعتنقه الهنود كما اعتنقه الأوروبيون وكان سمحاً كريماً يذود عن الضيف، يحمي الضعيف، يطعم السائل. لم يكن المسلمون ولا في أشد عصور الانحطاط عنصريين بالمعنى المعروف للكلمة. بلغ اليهود أسمى المواقع والمراتب العلمية في الأندلس العربي وكانوا وما زالوا يتمتعون في المشرق الأفريقي العربي بمكانة يحسدون عليها. كان الإسلام صديقاً لليهود ومعتزاً بأصحاب البشرة السوداء المنتمين إليه. عندما يقول مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا في المؤتمر الإسلامي عام ٢٠٠٣ أن «الأوروبيين قتلوا ستة ملايين يهودي من أصل اثني عشر مليوناً ومع ذلك فإن اليهود يحكمون العالم اليوم بالوكالة» تقوم المحافل الدولية الغربية ولا تقعد لهول ما يقوله علماً بأن كلامه لا يتضمن شيئاً مهيناً لا للفاعل ولا للمفعول به. إنها

حقيقة تاريخية لا غبار عليها.

إذا أجرينا استفتاء شعبياً ليس في العالم العربي ولا في العالم الإسلامي بل في أوروبا والولايات المتحدة وسألنا المواطن العادي: أليست سياسة الولايات المتحدة في الأمم المتحدة ووزارة الدفاع والبيت الأبيض متضامنة كلياً مع إسرائيل ومطامعها في الشرق الأوسط فماذا عساه يكون الجواب؟

للإسلام مدينتان مقدستان للأسباب المعروفة المتصلة بالأديان السماوية الثلاثة: مكة والمدينة للمسلمين وحدهم، بيت المقدس للأديان السماوية الثلاثة[1]. والإسلام كما نعرف دين ما زال ينبض بروح الشباب كما كانت عليه المسيحية من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر، وبالتالي فإنه يولي مكة والقدس أهمية كبرى موروثة لا تضاهيها أهميةً أي قضية أخرى في العالم. تقوم الولايات المتحدة اليوم بمد إسرائيل بالتأييد العسكري والسياسي بلا حدود كي يستولي ستة ملايين مهاجر يهودي على فلسطين بكاملها بما فيها القدس التي هي مدينة للأديان السماوية الثلاثة.

بماذا يمكن للعرب والمسلمين أن يصفوا دولة كبرى مسيحية سوى بالصليبية الجديدة، بالتعصب الأعمى، بالظلم، وباستعبادهم؟! في ذهن وعقل العربي والمسلم العادي وحتى المستنير منهم: بماذا يستطيع

(١) لجميع المسلمين: تشكل مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس (أولى القبلتين وثالث الحرمين) مدناً مقدسة، يضاف إليها بالنسبة للشيعة النجف الأشرف، حيث مثوى الإمام علي ابن أبي طالب، وكربلاء حيث استشهد الحسين بن علي.

وصف هذا السلوك الجائر للإدارة الأميركية والمحافظين الجدد فيها؟ أليس بأنهم صليبيون جدد يعتدون على شعب ودين آخر دون أي مسوغ شرعي وبذلك يجعلون من سلفيات بن لادن حججاً ميتافيزيقية يقارع بها حججاً ميتافيزقية أخرى؟

مهاتير محمد يقول: يا عالم يا ناس يا عرب يا مسلمون يا مسيحيون يا وثنيون.. ستة ملايين مهاجر من عندكم يقودهم موتور يريدون الاستيلاء على أهم مقدساتنا بعد أن يقتلوا أولادنا وإخواننا العرب والمسلمين ولا تحركون ساكناً! اسمعوا وعوا. انظروا وافعلوا ما يمليه عليكم واجبكم وكرامتكم وضميركم وتاريخكم. وليس من مجيب.

بل أجابت الدوائر الحاكمة أو المحكومة في أوروبا وأميركا: إنك معاد للسامية. إنك عنصري يا مهاتير محمد. يجب أن تعتذر عن أقوالك لأن كل شيء على ما يرام في فلسطين والقدس وبيت لحم وأنت على خطأ وجاهل ومتعصب.

كان هتلر عنصرياً وكتب كتاباً يعترف فيه بعنصريته هو «كفاحي» والنتائج معروفة. الحكم اليهودي القائم في فلسطين يعلن ويعامل العرب كبرابرة وأشرار يجب إبادتهم أو ترحيلهم عن ديارهم والعالم يسمع وينتظر أن يجري ما جرى في رواندا والبوسنة والسودان. في البيت الأبيض يدّعون الديموقراطية والعدل والمسيحية المتسامحة ويفعلون في فلسطين بواسطة حلفائهم الصهاينة ما فعله هتلر في أوروبا.

ما يجري في القدس ديبلوماسياً وما جرى في جنين عسكرياً هو

بمستوى ما كان يفعله هتلر وستالين في أوروبا.

نعم لقد أصبحنا عنصريين ولا ساميين في مواجهة الصهيونية وأتباعها وحلفائها.

في كل الأحوال لا بد من التوقف عند عبقرية الشعب اليهودي على كل الصعد، كما الشعب الألماني بالتمام، واعتبار الصهيونية كالغصن الفاسد منها تماماً كالنازية بالنسبة إلى الألمان. ألمانيا هي غوته وشيلر وفان براون وبتهوفن. واليهود يمثلهم أينشتين وفرويد وماركس وبرغسون وليس بن غوريون وموشي ديان وأرييل شارون. يقول أوري أفنيري عن الصهيونية والطاقم الحاكم في إسرائيل وتسلط العقيدة الصهيونية على الإنتلجنسيا المسموعة الكلمة في البيت الأبيض والبنتاغون أكثر بكثير مما ورد على لسان الرئيس الماليزي مهاتير محمد. إذ يعتبر أن السياسة الليكودية ستؤدي ليس بإسرائيل وحدها، بل بالعالم إلى ما لا تحمد عقباه[٢].

---

(٢) جريدة **النهار**، ٢٦ نيسان ٢٠٠٣
بعض من سيرة جاي غارنر وآخرين
«تدرج العادة اليوم على التكلم على «اليوم التالي». لنتكلم عن الليلة التالية.
بعد انتهاء الأعمال العدوانية في العراق، سيواجه العالم بواقعين حاسمين:
أولاً، إن تفوق الأسلحة الأميركية الباهر يستطيع القضاء على أي شعب في العالم، مهما كان شجاعاً.
ثانياً، إن المجموعة الصغيرة التي بدأت هذه الحرب ـ تحالف أصوليين مسيحيين ومحافظين يهود جدد ـ قد حققت انتصاراً كبيراً، ومن الآن فصاعداً ستسيطر على واشنطن من دون حدود تقريباً.
يشكل التوليف بين هذين الواقعين خطراً على العالم وخصوصاً على الشرق الأوسط، والشعوب العربية ومستقبل إسرائيل. إذ إن هذا التحالف هو عدو=

= الحلول السلمية وعدو الحكومات العربية وعدو الشعب الفلسطيني وعدو معسكر السلام الإسرائيلي على نحو خاص.

فهو لا يحلم بأمبراطورية أميركية على شكل الأمبراطورية الرومانية وحسب، بل يحلم أيضاً بامبراطورية إسرائيلية مصغرة، تحت سيطرة أقصى اليمين والمستوطنين. هو يريد تغيير الأنظمة في الدول العربية كلها. وسيتسبب تالياً بفوضى دائمة في المنطقة، يستحيل توقع تداعياتها. يتألف عالمه العقلي من مزيج من حماسة أيديولوجية ومصالح مادية بحتة. وطنية أميركية مبالغ فيها وصهيونية يمينية.

إنه لمزيج خطير. ففيه شيء من روح أرييل شارون، الرجل الذي لطالما امتلك خططاً بالغة العظمة لتغيير المنطقة، تتألف من مزيج من خيال مبدع وشوفينية مندفعة وإيمان بدائي بالقوة الوحشية.

من هم الرابحون؟

إنهم «المحافظون الجدد». مجموعة صغيرة، أعضاؤها كلهم تقريباً من اليهود. وهم يحتلون المراكز الأساسية في إدارة بوش، كما في مؤسسات الأبحاث التي تضطلع بدور مهم في صوغ السياسة الأميركية وصفحات الرأي في الصحف المؤثرة.

لسنوات عدة، كانوا مجموعة مهمشة أخذت تغذي جدول أعمال يميني في المجالات كلها. ناضلوا ضد الإجهاض والشذوذ الجنسي والفن الإباحي والمخدرات. وعندما تسلم بنيامين نتنياهو السلطة في إسرائيل، قدموا له مشورتهم في كيفية محاربة العرب.

جاءت لحظتهم الحاسمة مع انهيار البرجين. كان الجمهور والساسة الأميركيون في حالة ذهول، مرتبكين بالكامل، غير قادرين على فهم عالم قد تغير بين ليلة وضحاها. المحافظون الجدد كانوا المجموعة الوحيدة التي تملك تفسيراً جاهزةً وحلاً. بعد تسعة أيام فقط على الاعتداء، نشر وليم كريستول (ابن مؤسس المجموعة، إيرفينغ كريستول) رسالة مفتوحة إلى الرئيس بوش، يجزم فيها أنه ليس كافياً إبادة شبكة أسامة بن لادن، لكن من الضروري أيضاً «إزالة صدام حسين من السلطة» و«الانتقام» من سورية وإيران لدعمهما «حزب الله».

= نشرت الرسالة المفتوحة في «الويكلي ستاندرد» التي أسسها كريستول بتمويل من قطب الصحافة اليميني المتطرف روبرت مردوخ الذي تبرع بعشرة ملايين دولار لهذه القضية. وقع الرسالة واحد وأربعون شخصاً من المحافظين الجدد البارزين بمن فيهم نورمان بودهوريتز، وهو يساري يهودي سابق تحول إلى أيقونة لليمين المتطرف، ومحرر في مجلة «إنكاونتر» الشهيرة، وزوجته ميدج ديكتير، وهي أيضاً كاتبة، وفرانك غافناي من «مركز الدراسات الأمنية»، وروبرت كاغان من «الويكلي ستاندرد» أيضاً وتشارلز كروتامر من «الواشنطن بوست» وطبعاً، ريتشارد بيرل. بيرل شخصية أساسية في هذه اللعبة. شغل حتى وقت قريب منصب رئيس «مجلس السياسة الدفاعية» في وزارة الدفاع، والذي يتضمن أيضاً إليوت كوهين وديفون كروس. وبيرل هو مدير في «الجيروزالم بوست» التي يملكها الآن صهيونيون يمينيون متطرفون. في الماضي كان مساعداً للسيناتور هنري جاكسون الذي قد المعركة ضد الاتحاد السوفياتي على حساب اليهود الذين أرادوا المغادرة. وهو عضو قيادي في مؤسسة «الأميركان إنتربرايز إنستيتيوت» اليمينية المؤثرة: اضطر أخيراً إلى تقديم استقالته من منصبه في وزارة الدفاع عندما أصبح معروفاً أن شركة خاصة وعدت أن تدفع له حوالى المليون دولار لقاء استفادتها من تأثيره في الإدارة.

في الواقع كانت هذه الرسالة المفتوحة بداية حرب العراق. استقبلت بحماسة من إدارة بوش، التي يتمركز بثبات أعضاء من المجموعة في بعض مراكزها القيادية. فبول وولفوفيتز، أبو الحرب هو الرقم اثنان في وزارة الدفاع، حيث يرأس صديق آخر لبيرل، دوغلاس فايث، مجلس تخطيط البنتاغون. أما جون بولتون، فهو نائب وزير الداخلية. وإيليوت أبراهامس المسؤول عن الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي، ارتبط بفضيحة إيران ـ كونترا ـ إسرائيل. والبطل الأساسي للفضيحة أوليفر نورث يجلس في المؤسسة اليهودية لشؤون الأمن القومي مع مايكل ليدن، بطل آخر في الفضيحة. هؤلاء يطالبون بالحرب الكاملة ليس ضد العراق وحسب بل ضد أعداء إسرائيل الآخرين أيضاً، إيران وسورية والسعودية والسلطة الفلسطينية. دوف زاخيم هو مراقب نفقات وزارة الدفاع.

= معظم هؤلاء الناس، إلى جانب نائب الرئيس ديك تشيني ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد، يرتبطون بـ «المشروع للقرن الأميركي الجديد»، الذي نشر ورقة بيضاء في العام ٢٠٠٢، بهدف «حماية» السلام الأميركي وتعزيزه» - بما معناه سيطرة أميركا على العالم.
اما ميراف وورمسر (ميراف هو اسم إسرائيلي جديد أنيق)، فهي مديرة مركز سياسة الشرق الأوسط في مؤسسة هادسون. وهي تكتب أيضاً لـ «الجيروزاليم بوست» وشاركت في تأسيس مؤسسة الأبحاث الإعلامية في الشرق الأوسط المرتبطة وفق «لندن غارديان»، باستخبارات الجيش الإسرائيلي. تغذي هذه المؤسسة وسائل الإعلام ورجال السياسة بمقتطفات مختارة بعناية من المنشورات العربية المتطرفة. أما زوج ميراف، ديفيس وورمسر، فهو في مؤسسة «الأميركان إنتربرايز إنستيتيوت» التابعة لبيرل ويترأس دراسات الشرق الأوسط. ولا بد من الإشارة أيضاً إلى مؤسسة «واشنطن لسياسة الشرق الأقصى» بشخص أحد معارفنا القدماء، دنيس روس، الذي تولى لسنوات ملف «عملية السلام» في الشرق الأوسط.
في الصحف المهمة كلها، ثمة أشخاص مقربون من المجموعة كوليم سفاير، رجل سحره شارون، في «النيويورك تايمز» وتشارلز كروتامر في «الواشنطن بوست». ثمة صديق آخر لبيرل هو روبرت بارتلي ناشر «الوول ستريت جورنال».
إذا كانت خطابات بوش وتشيني غالباً ما تبدو وكأنها صادرة من فم شارون، فقد يكون أحد الأسباب أن كتّاب خطاباتهم، جوزف شاتان وماتيو سكولي وجون ماكونيل، هم محافظون جدد، كرئيس أركان تشيني، لويس ليبي.
ينجم التأثير الضخم للمجموعة اليهودية الكبيرة هذه من تحالفها الوثيق مع الأصوليين المسيحيين اليمينيين المتطرفين الذين يسيطرون حالياً على حزب بوش الجمهوري. والآباء المؤسسون هم جيري فالويل من «الغالبية الأخلاقية» التي حصلت مرة على طائرة نفاثة كهدية من مناحيم بيغين، وبات روبرتسون من التحالف المسيحي وشبكة الإرسال المسيحية التي تساعد في تمويل السفارة المسيحية في القدس التابعة لجورج دبليو فان دير هوفن، وهي مؤسسة تدعم المستوطنين وحلفاءهم من اليمين.

= والقاسم المشترك بين المجموعتين هو انتماؤهما لإيديولوجيا اليمين المتطرف المتعصبة في إسرائيل. إنهم يرون حرب العراق كصراع بين أبناء النور (أميركا وإسرائيل) وأبناء الظلام (العرب والمسلمين). وبالمناسبة، ليس أي من هذه الوقائع سرياً. فقد نشرت أخيراً في عشرات المقالات في الإعلام الأميركي والعالمي على حد سواء. ويفتخر أعضاء المجموعة بأنفسهم.

الجنرال الصهيوني

الرجل الذي يرمز إلى هذا الانتصار هو الجنرال جاي غارنر الذي عين للتو قائداً للإدارة المدنية في العراق. وهو ليس جنرالاً غير معروف تم انتقاؤه عرضياً. فغارنر هو الشريك الأيديولوجي لبول وولفوفيتز والمحافظين الجدد. قبل سنتين، وقع مع ستة وعشرين مسؤولاً آخرين، عريضة نظمتها المؤسسة اليهودية لشؤون الأمن الأقومي مثنية على الجيش الإسرائيلي «لضبط النفس الملحوظ في مواجهة العنف الدامي الذي تقوده قيادة السلطة الفلسطينية»، الأمر الذي شكل خبراً جديداً لقوات السلام الإسرائيلية. كما أعلن أن «إسرائيل قوية هي مصدر قوة يستطيع المخططون العسكريون الأميركيون والقادة السياسيون الاعتماد عليه».

في حرب الخليج الأولى، أثنى غارنر على أداء صواريخ الباتريوت التي فشلت فشلاً ذريعاً. بعد مغادرته الجيش في العام ١٩٩٧، أصبح بلا أي مفاجأة، متعاقداً مع وزارة الدفاع متخصصاً في الصواريخ. زعم أنه حصل من البنتاغون على عقود غير تنافسية. وهذه السنة، حصل على عقد دفاع بقيمة ١,٥ مليار دولار، بالإضافة إلى عقد بناء نظام صواريخ «باتريوت» في إسرائيل. لذا، لا يوجد مرشح أفضل منه لمهمة قائد إدارة مدنية في العراق، خصوصاً في وقت يجب أن تسلم فيه عقود بمليارات الدولارات للبناء ليتم تسديدها عبر النفط العراقي.

إعلان بلفور جديد

إن أيديولوجيا هذه المجموعة التي تدعو إلى أمبراطورية عالمية أميركية فضلاً عن إسرائيل عظمى، تذكّر الفرد بالأيام السالفة. كان لإعلان بلفور العام ١٩١٧، الذي وعد اليهود ببلد في فلسطين، أبوان: الأم مسيحية صهيونية (من بين أتباعها رجال دوله مشهورون أمثال لورد بالمرستون ولورد=

= شافتسبوري، قبل تأسيس الحركة الصهيونية بزمن)، والأب بريطاني أمبريالي. لقد سمحت الفكرة الصهيونية للبريطانيين بحشر منافسيهم الفرنسيين وإحكام السيطرة على فلسطين من أجل حماية قناة السويس والطريق البحري الأقصر إلى الهند.
الآن الأمر ذاته يحدث مجدداً. فالسنة الماضية، نظم ريتشارد بيرل موجزاً اقترح متكلم فيه شن الحرب ليس على العراق وحسب، بل على السعودية ومصر أيضاً، بغية ضمان معاقل النفط العالمي. وشدد على أن العراق هو المحور ليس إلا. وأحد تبريرات هذا التصميم هو الحاجة للدفاع عن إسرائيل.

هل نراهن بحياتنا؟

يبدو أن هذا كله جيد لإسرائيل. فأميركا تسيطر على العالم ونحن نسيطر على أميركا. لم يمارس اليهود من قبل ذاك التأثير الكبير على مركز قوة العالم. لكن هذا الميل يقلقني. فنحن كلاعب قمار يراهن بأمواله كلها وبمستقبله مقابل حصان واحد، حصان جيد، لا يملك حالياً منافساً آخر، لكنه لا يزال حصاناً واحداً.

سيتسبب المحافظون الجدد بفترة طويلة من الفوضى في العالم العربي والإسلامي. وقد أظهرت حرب العراق أن فهمهم للحقائق العربية متزعزع كما لم تنجح افتراضاتهم السياسية في تخطي الاختبار، وحدها القوة الوحشية أنقذت مشروعهم.

يوماً ما سيعود الأميركيون أدراجهم، لكننا سنبقى هنا. علينا أن نعيش مع الشعوب العربية. والفوضى في العالم العربي تهدد مستقبلنا. قد يحلم وولفوويتز وشركاه بشرق أوسط ديموقراطي، ليبرالي، صهيوني ومحب لأميركا، لكن نتيجة مغامراتهم قد تؤدي إلى منطق متعصب وأصولية تهدد وجودنا في العمق.

قد تؤدي الشراكة بين المحافظين الجدد والأصوليين المسيحيين إلى نشوء قوى مضادة في واشنطن. وإذا هزم بوش في الانتخابات المقبلة، كما حصل لوالده بعد انتصاره في حرب الخليج الأولى، فسترمى هذه العصابة كلها خارجاً.

= يخبرنا الإنجيل عن ملوك اليهودية الذين اتكلوا على مصر، القوة العالمية في ذلك الوقت، لم يقدّروا صعود القوى في الشرق، الأشوريين والبابليين. وقد قال جنرال آشوري لملك اليهودية:
«انتبه أنت تتكل على هذه القضية المعطوبة، على مصر، التي إذا اتكل عليها الإنسان مزقت يده» (الملوك: ١٨: ٢١) ليس بوش وعصابته من المحافظين الجدد قصبة هشة. على العكس، إنه الآن قصبة قوية جداً. لكن هل نراهن بمستقبلنا كله على هذا؟ (أوري أفنيري)

٤٧

إلى متى الهوان؟

الخطة الإسرائيلية المدعومة أميركياً لها عدة فصول وحلقات وتراجيديات ومهازل ديبلوماسية، أما خطوطها العريضة فهي:

١ . رفض أي مقترحات سلام عربية، من مشروع السادات عام ١٩٧٢ إلى المشروع السعودي للأمير عبدالله في بيروت عام ٢٠٠٢.

٢ . دفع الفلسطينيين إلى القيام بأعمال ما يسمى «إرهاباً» لتشويه صورتهم أمام الرأي العام الأميركي والمجتمع الأوروبي الذي ينقاد لأميركا في غالب الأحيان. ومن نتائج هذه الخطة إقحام العرب أكثر فأكثر في العنف العبثي وتصوير كل اتفاق يصار إليه معهم بأن لا فائدة ترتجى منه لأنهم لن يحترموه. والعكس هو الصحيح.

ما الدور الذي لعبته إسرائيل في تجريد هذه الحملة العسكرية العرمرمية على العراق؟

لإسرائيل الحق بامتلاك ما تريد من أرض العرب وللعرب الاستقبالات والابتسامات في واشنطن كما في أفلام المافيا: حيث المصافحة والابتسام يسبقان دائماً الاغتيال. عندما توجه وزراء الخارجية الأوروبيون إلى طهران في تشرين الأول ٢٠٠٣ لثنيها عن تخصيب مادة اليورانيوم كانت الولايات المتحدة قد اتفقت مع إسرائيل على جميع مراحل المداخلة الأوروبية والتدخل العسكري المشترك إذا لزم الأمر[١].

نقلاً عن جريدة «لوس أنجلس تايمز»، فإن إسرائيل كانت جهزت استعداداً لذلك التدخل ثلاث غواصات من صنع ألماني تحمل على متنها صواريخ «هاربون» الأميركية التي يصل مداها إلى ١٣٠ كليومتراً. من جهة أخرى تكون طائرات «ف ١٦» التي تحمل صواريخ مشابهة جاهزة للتدخل.

يضيف مراسل جريدة «اللوموند» أن الحجم الصغير لهذه الصواريخ ـ وعرضها ٣٥ سنتمتراً ـ يدعو إلى الاعتقاد أن إسرائيل أصبحت تمتلك قنابل ذرية ميدانية صغيرة.

---

(١) Le Monde, Octobre 2003.

٤٨

معاداة السامية

إن اللاساميين ـ ومنهم أعداء اليهود بالمطلق ـ يلتقون مع الصهاينة تحت سقف واحد هو الكره العنصري. يعتقد الصهاينة أن على كل يهودي أن يكون صهيونياً، واللاساميون يعتقدون أن كل يهودي لا بد أن يكون صهيونياً. وهذا التماهي يستغله الصهاينة وحلفاؤهم لنعت المثقف العربي أياً كان والمسلمين عامة بأنهم يعادون السامية أي اليهود.

إذا أردنا أن نقيّم اللاسامية عالمياً وما أفضت إليه في القرن الواحد والعشرين عند العرب والمسلمين لا شك أن نشأة إسرائيل كدولة عنصرية في الشرق الأوسط وتعاظم دعم أميركا لها ـ الذي أصبح بعد سقوط الاتحاد السوفياتي غير مشروط ـ يشكّل مفصلاً أساسياً فيها.

فحق النقض الأميركي في مجلس الأمن لصالح إسرائيل وحده يكفي للدلالة على التهور الذي طرأ على السياسة الأميركية حيال هذه الدولة الناشئة وذلك ابتداء من عام ١٩٧٢. واللافت أن التلاحم الأميركي مع الدولة العبرية اتخذ حجماً خطيراً منذ عهد الرئيس ريتشارد نيكسون ومستشاره ثم وزير خارجيته هنري كيسنجر خاصة، ابتداء من أيلول عام ١٩٧٢ حين وضعت أميركا الفيتو ولأول مرة ضد مشروع قرار لمحاسبة إسرائيل على اختراقها اتفاق الهدنة بعد حرب عام ١٩٦٧.

لم يصطدم جمال عبد الناصر ـ الذي كان يقول بأن إسرائيل هي النجمة ٥١ في العلم الأميركي ـ بأي فيتو أميركي ضد مصر بل من وقع ضحيته كان أنور السادات الذي أصبح بعدئذٍ حليف أميركا بدون شروط.

الحماية الأميركية لإسرائيل ثم التعاون بلا حدود بين الدولتين أصبح أمراً واقعاً على أثر الجسر الجوي الذي أقامته الولايات المتحدة لإمداد الجيش الإسرائيلي المهزوم في سيناء من قبل الجيش المصري عام ١٩٧٣.

من عام ١٩٧٢، أي قبل حرب اكتوبر بسنة، وحتى عام ٢٠٠٣ لجأت الولايات المتحدة إلى الفيتو ـ لحماية إسرائيل من التأنيب من قبل المجتمع الدولي على جرائمها في فلسطين ـ ٣٦ مرة من أصل ٥٥. تقف الولايات المتحدة حائلاً دون محاسبة إسرائيل من قبل المجتمع الدولي في كل مرة تقدم إسرائيل على اعتداءات ضد رعايا دول أخرى وحتى الموظفين في الأمم المتحدة.

أليس من واجبنا كعرب وشرقيين، مسلمين ومسيحيين أن نعلن على الملأ ومن غير محاباة لأحد، أننا ضد العنصريين واللاساميين من أي جهة أتوا من هتلر الألماني إلى لوبن الفرنسي إلى الحزب الفاشي النمساوي: نحن ضد «المحرقة» التي أقامها هتلر ضد اليهود. نحن مع اليهودية الدين التاريخي السماوي الذي تميز بأبنائه الأفذاذ من شهداء وعلماء وأبطال. إلّا أننا ضد الفرع الفاسد منه، العنصري المجرم المتمثل بالقتلة والسفاحين الخارجين عن الحضارة والإنسانية أمثال بن غوريون وموشي شامير ومناحيم بيغن وأرييل شارون.

إننا نميز بين ما جرى من تصويت في الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ لتقسيم فلسطين بين العرب ويهود فلسطين وما يجري اليوم من استباحة للأرض في الضفة وفي كل مكان من فلسطين. وإن سياسة الولايات المتحدة وليس سياسة إسرائيل وحدها هي التي تضع هذه المعادلة مجدداً في الميزان.

إن أرييل شارون وأعوانه في إسرائيل يعيدون اليوم بالنسبة إلى العالم العربي والعالم الإسلامي عامة، وبالتعاون اللامحدود مع الإدارة الأميركية والمحافظين الجدد في البيت الأبيض والبنتاغون ووزارة الخارجية، مغامرة أدولف هتلر عام ١٩٣٦.

الولايات المتحدة والحسابات الخاطئة

يعتقد المحافظون الجدد في البنتاغون والبيت الأبيض:

١. أن إسرائيل هي امتداد للولايات المتحدة في الشرق الأوسط.
٢. أن قضية الشعب الفلسطيني قضية إنسانية يجب معالجتها عن طريق المؤسسات الإنسانية المتخصصة في الأمم المتحدة.
٣. أنه استناداً إلى مرور الزمن والسيطرة الأميركية ـ الإسرائيلية المتعاظمة على مقدرات المنطقة، ستتماهى قضية الشعب الفلسطيني مع سائر القضايا المماثلة في العالم: السكان الأصليين في دول أميركا الشمالية والجنوبية، وفي دول الشرق الأوسط قضية الأكراد والأرمن. وبرأيهم ـ يقول شومسكي ـ إن الإعلام سيجاري الرأي العام الذي لا بد أن يسأم من قضية فلسطين. إلّا أن هذه النظرة الأحادية قد تعثرت بالنسبة إلى الولايات

المتحدة التي اجتاحت بغداد لمعاونة إسرائيل على طي صفحة آخر قوة عربية باستطاعتها مناهضة إسرائيل.

وليس مشروع شارون للانسحاب من غزة والذي ينطوي على الاستيلاء على معظم الضفة إلّا الرديف للاجتياح الأميركي للعراق، إذ عطل هذا الاجتياح كل اعتراض عربي ممكن على المشروع الصهيوني للاستيطان في كل فلسطين..

إن خطة الجلاء عن غزة المتداولة في إسرائيل ـ كانون الثاني شباط ٢٠٠٤ ـ ما هي إلّا خطوة جديدة للتوسع في استعمار الضفة بعد أن تحقق لشارون وفريق عمله أن غزة استنفدت كل إمكاناتها الاستثمارية والاستعمارية خاصة بعد نضوب الماء العذب الصالح للشرب وللزراعة.

الأميركيون أصابوا الهدف عندما قرروا بعد التشاور مع أرييل شارون ضرب القضية الفلسطينية بالعمق في اجتياح العراق. وإنما أخطأووا عندما لم يحسبوا لشعب العراق حساباً.

بدأت العمليات العسكرية ضد العراق في ٢٠ آذار ٢٠٠٣ وامتدت إلى ٩ نيسان ٢٠٠٣. ما حققه الاجتياح إضافة إلى إسقاط حكم صدام حسين، كان سرقة متحف بغداد وتدمير معظم المؤسسات الحكومية ما عدا وزارة النفط التي حمتها القوات الأميركية من كل أذى.

أخطأ الأميركيون الحساب على المستويات التالية:

١ . تصوروا أن شعب العراق سيستقبل الجيش الأميركي كجيش صديق عاونهم على إسقاط الطاغية، بينما شعب العراق يعرف تلازم المصيرين الأميركي ـ الإسرائيلي في المنطقة.
٢ . أقدم المبعوث الأميركي على حل الجيش العراقي المؤلف من ٤٠٠ ألف جندي يتقاضون رواتب زهيدة. وكانت نتيجة ذلك تأجيج روح الكراهية في شرائح شعبية واسعة من الشعب العراقي.

إن المغالطات الأميركية تحميها بلا شك القوة العسكرية الأميركية المتفوقة. إلّا أن القوة لا تحمي من الخطأ إذا كان فادحاً بالشكل الذي بدا فيه بالعراق. أن حرب العراق كانت خطأ والمشروع «الديموقراطي» للشرق الأوسط الذي تبع اجتياح العراق سيلقى المصير نفسه الذي لقيه الاجتياح.

لقد تعالت في أميركا أصوات تندد بالمشاريع «الديموقراطية» للشرق الأوسط لأنها ستفضي إلى عكس النتيجة المنتظرة من الإدارة الأميركية. يسمي ذلك صموئيل هنتغتون «مفارقة الديموقراطية»[1] إذ إن نتيجتها معروفة سلفاً.

وهذه المغالطات كانت قد عانتها الولايات المتحدة في تعاملها مع دول أميركا اللاتينية. فالديموقراطية من غير تحسين الأوضاع المعيشية لهذه الشعوب قد أدت إلى انتخاب حكومات اشتراكية سارعت الولايات المتحدة إلى استعمال استخباراتها للاطاحة بها.

---

(١) Gilbert Achcar, **Le Monde diplomatique**, Avril 2004.

من المتوقع أن يصار إلى الأمر نفسه في العالم العربي إذا لم تسارع الولايات المتحدة إلى تحسين صورتها «الديموقراطية» بتعديل سياسة العين الواحدة بالنسبة للتعاطي مع إسرائيل ومساندة الحكام الفاسدين الذين يدعمون سياستها فتساندهم. إن الدعوة إلى الديموقراطية من غير تعديل في السياسة الأميركية بالنسبة إلى إسرائيل ومساندة الطغاة كما كان يجري لصدام حسين قبل اجتياحه لدولة الكويت عام ١٩٩٠، سيؤدي إلى بروز أصوليات في المنطقة تدعو وقبل أي شيء آخر، إلى محاربة الولايات المتحدة وصنيعتها إسرائيل.

وستعود أميركا إلى السياسة نفسها التي كانت تتبعها في أميركا اللاتينية: اللجوء إلى الاستخبارات والمؤامرات لقلب أنظمة «ديموقراطية» تناصبها العداء. فبالدعوة إلى الديموقراطية من غير تبديل في سياستها الإقليمية تبدأ أميركا مخططاً حيث يجب أن ينتهي: تعديل سياستها المنحازة ضد العرب في فلسطين والاهتمام بالمواضيع المعيشية والثقافية للشعوب العربية كأولويات تسبق الديموقراطية ولا تليها.

معاداة السامية بالمفهوم الأميركي ـ الإسرائيلي

انتقاد المسيحيين والمسلمين كما المسيحية والإسلام مباح أوروبياً وأميركياً. بينما انتقاد اليهود أو اليهودية يعتبر جريمة. وقضية مهاتير محمد مع المجتمع الدولي هي النموذج لهذا السلوك الأعور والكيل بمكيالين. ما قاله مهاتير محمد في افتتاح قمة منظمة المؤتمر الإسلامي عام ٢٠٠٣ يتضمن بعض المغالطات التاريخية، إلّا أن الذي أثار سخط الإدارة الأميركية وبعض الدول الأوروبية لم يكن هذا الجزء من خطاب مهاتير محمد بل ما يتعلق بتاريخ الصراع العربي ـ الفلسطيني وجذوره الأوروبية. رفض مهاتير محمد الاعتذار من هذه الأوساط الدولية المنحازة منتقداً ما سماه «النفاق» الغربي الذي يسمح للمبشر الأميركي جيري فالويل بوصف النبي محمد بأنه «إرهابي»، ويعتبر الحديث عن القمع الإسرائيلي للفلسطينيين معاداة للسامية. وتساءل: «ألا يسمح لنا على الإطلاق بانتقاد اليهود إذا قاموا بأشياء

خاطئة؟ إذا كان ممكناً اتهام المسلمين بأنهم إرهابيون، فإن آخرين يمكن أن يتهموا اليهود بأنهم إرهابيون كذلك». وأضاف أن «معظم الزعماء الغربيين منحازون، معظمهم وليس كلهم. وهم يشعرون بأنه إذا كان من المناسب انتقاد العرب المسلمين فإنه من غير المناسب انتقاد الأوروبيين واليهود. يبدو أنهم يعتقدون أنهم أناس يتمتعون بامتيازات».

وأكد أن خطابه في القمة الإسلامية كان «مبنياً على حقائق»، مشيراً إلى أن اليهود لجأوا تاريخياً إلى البلدان الإسلامية حين اضطهدهم الأوروبيون: «لم يكن هناك خلاف بين اليهود والمسلمين، أو بين اليهود والعرب، إلا لما أخذت أرض فلسطينية لحل مشكلة أوروبية ـ يهودية لإقامة دولة إسرائيل. ومذ ذاك، يبدو أنه لم يعد ثمة سلام في الشرق الأوسط. هذه حقائق التاريخ، والقول لي أنني لا أستطيع ذكر حقائق التاريخ يعني حرماني حقي في حرية التعبير».

جاء في بيان للقمة الأوروبية في بروكسيل أن تصريحات مهاتير «لا مكان لها في عالم محترم».

وقبل ذلك، قال وزير الخارجية الإيطالي فرانكو فراتيني الذي تتولى بلاده الرئاسة الدورية للاتحاد الأوروبي، إن ما أدلى به مهاتير «مخالف لفكرة التسامح والحوار بين العالم الغربي والعالم المسلم».

واستدعت وزارة الخارجية الألمانية القائم بالأعمال الماليزي في برلين للاحتجاج على التصريحات «غير المقبولة على الإطلاق». وكذلك استدعت وزارة الخارجية البريطانية السفير الماليزي للاحتجاج لديه.

ورأت واشنطن أن «هذه التصريحات مهينة ونتعامل معها باحتقار وهي موضع سخرية».

وصرح ناطق باسم وزارة الخارجية الإسرائيلية أن تل أبيب «ترفض باشمئزاز هذه التصريحات المعادية للسامية التي تلحق إهانة بضحايا المحرقة».

وأضاف: «نأمل في أن تهبّ كل دول العالم المستنيرة والمدافعة عن السلام والديموقراطية للاحتجاج على هذه التصريحات المشينة التي تبث الكراهية».

وفي المقابل، أكد وزير الخارجية الباكستاني خورشيد محمود قاسوري «أنه واقع تاريخي أن يكون اليهود أخذوا أراضي المسلمين عندما اضطهدوا على أيدي الأوروبيين».

وقال وزير الخارجية اليمني أبو بكر عبدالله القربي أن مهاتير «كشف مشكلة مهمة جداً وهي سيطرة اليهود على الاقتصاد ووسائل الإعلام في العالم». وأضاف: «لا أعتقد أن (الخطاب) كان معادياً للسامية بل كان يعرض وقائع. وليس عدوانياً بل يدعو العالم الإسلامي إلى تحمل مسؤولياته حيال شعوبه»[1].

مهاتير محمد أثار هذه الضوضاء العالمية لأنه رفع النقاب عن الجريمة والمجرمين. إن أهمية كلام رئيس الوزراء الماليزي هي في كونه مسلماً وليس عربياً. إن التضامن العربي الإسلامي هو الطريق السليم والوحيد لقلب الطاولة على رؤوس القراصنة والمجرمين والمتعاونين معهم.

---

(١) (أ. ب، وص ف، رويترز ١٦ تشرين الاول ٢٠٠٣).

٥١

من حرب المعسكرات إلى حرب الثقافات

مصير القرن الواحد والعشرين قرره حدثان تاريخيان فاصلان هما سقوط الاتحاد السوفياتي في أواخر القرن العشرين وتدمير البرجين العالميين في نيويورك بتاريخ ١١ أيلول ٢٠٠١.

لا فائدة من ترداد المعروف عن الحدث الأول الذي أدى إلى تفرد الولايات المتحدة بقيادة العالم من دون رقيب. لا شك أن تدمير برجي التجارة حمل في طياته تبديلاً عميقاً في مصير الشرق الأوسط من جراء هوية الذي أقدموا عليه، فلقد وضعت الولايات المتحدة على أثره يدها على المفصل الأهم من المنطقة العربية ومخزونها البترولي، وتركت لأرييل شارون والمتطرفين اليهود حرية التصرف في فلسطين.

إنها التداعيات المرئية لما حدث في الشرق الأوسط بعد سقوط الاتحاد السوفياتي القديم وتدمير البرجين العالميين في نيويورك.

وللمقارنة فلنطرح على أنفسنا: ما كان أثر الانهيارين الأول والثاني على مواطن إحدى دول شرقي أوروبا على العموم. كان المواطن الروسي أو اليوغسلافي أو الروماني أو البلغاري صاحب هوية تثير الريبة من قبل الدوائر الغربية لأمر سياسي. فالذي يحمل جواز سفر سوفياتياً أو من شرق أوروبا كان ينظر إليه من قبل دوائر الأمن الغربية بريبة إنما برهبة واحترام.

ماذا حدث للمواطن السوفياتي القديم وللروسي حديثاً بعد انهيار الاتحاد السوفياتي؟ ماذا حدث للمواطن العربي بعد هذين الحدثين ذوَي الأبعاد الكونية؟

من مراقبة سياسية للسوفياتي في الغرب أضحت المراقبة على مستوى أخلاقي أو ديني إذا كان مسلماً، وللعربي أو المسلم على حد سواء مراقبة على كونه إرهابياً حتى يثبت العكس.

إلّا أن مسؤولية هذا الانفجار الجديد للعامل الديني في تعامل الدول تقع على عاتق الولايات المتحدة قبل غيرها وقد كان لها اليد الطولى في تسعير ناره: قادت الولايات المتحدة حرباً دينية إسلامية ضد الاتحاد السوفياتي، إضافة إلى دعمها لكل الأنظمة المتخلفة الدينية من أميركا اللاتينية إلى الشرق الأوسط لمجابهة حركات التحرر والاشتراكية في العالم.

هل أن الولايات المتحدة جاهلة بأن الاعتداء على برجي نيويورك كان مرده تخلفاً مجتمعياً ثقافياً متمادياً في الشرق الأوسط رعته هي بنفسها؟

هل أن الإرهاب ومصادر تمويله كانا مجهولين من الولايات المتحدة ولم يكونا بنات أفكارها.. وذلك بشهادة زبيغنيو بريجنسكي مستشار الرئيس جيمي كارتر والمخطط الأول للتصدي الإسلامي للسوفيات في أفغانستان؟

إن تشجيع الرجعية الحاكمة في الشرق الأوسط، وعلى كل المستويات، وضرب الديموقراطية حيث لا تتفق مع مصالح الولايات المتحدة ـ كما في التشيلي والخليج الكاريبي ـ وجد ردة فعله في هذا الانتشار للإرهاب بعد سقوط الاتحاد السوفياتي على يد السلفيات الدينية الإسلامية والمسيحية صنيعتي الولايات المتحدة. كان الداء أميركياً والهدف منه القضاء على المعسكر الاشتراكي. وقد تم للولايات المتحدة ما أرادت. إنما المفارقة كانت أن السلفيات استمرت تفعل فعلها بعد أن كانت قد أتمت المهمات الموكلة إليها. تعتقد الولايات المتحدة أو الإدارة الأميركية بأن الدواء لهذه السلفيات هو الحرب التي بدأتها في أفغانستان ثم طاولت العراق حيث غرقت في رموله المتحركة. فإن كان الموضوع عسكرياً في بعض جوانبه كاجتثاث خلايا الإرهاب الاعتباطي الإجرامي فإن لـ«الإرهاب» بشكل عام جذوراً في الضمائر والقلوب تتطلب معالجات تبدو الولايات المتحدة والإدارة الأميركية الحالية عاجزة عنها.

٥٢

الدور الأول لإسرائيل في محاربة الإرهاب

ليس التحالف الأميركي الإسرائيلي اقتصادياً وعسكرياً فحسب، لأن روبير كاغان ووليم كريستول ولورنس كابلان وريتشارد بيرل وغيرهم من مفكري ما يسمى «المحافظون الجدد» في الحزب الجمهوري يجعلون منه تحالفاً كونياً وعلى جميع المستويات.

الفيتو الأميركي لصالح إسرائيل يقابله باستمرار موقف إسرائيل في الجمعية العمومية لصالح أميركا أياً كانت سياستها. أقرت الأمم المتحدة بعد ١٩٩٢ رفع الحظر الاقتصادي عن كوبا التي أصبحت بعد سقوط الاتحاد السوفياتي دولة محدودة التأثير عالمياً ولا تشكل أي خطر سياسي في القطب الجنوبي من القارة الأميركية، فعارض هذا القرار إضافة إلى الولايات المتحدة، إسرائيل وجزر مارشال.

من شروط الولايات المتحدة على الدول التي تريد فتح صفحة سياسية جديدة معها الاعتراف بإسرائيل. ومن مآخذ الإدارة الأميركية على مصر حسني مبارك هو هذا الحد الأدنى من التبادل الاقتصادي مع الدولة العبرية إضافة إلى عدم عودة سفير مصر إلى إسرائيل احتجاجاً على سياسة شارون في الضفة.

تدعم إدارة بوش المصالح الإسرائيلية في كل مكان من العالم ـ الهند مثلاً ـ والتبادل العلمي والصناعي بين الدولتين جعل من إسرائيل شبه دولة عظمى على المستوى الصناعي والعلمي العالميين.

فأميركا ساهرة على مصالح إسرائيل إلى درجة أنها تناصرها وتدعمها في مشاريعها مهما بلغت هذه المشاريع من تفوق على الصعيد العالمي ومن ظلم للعرب على الصعيد المحلي. حاولت روسيا الاتحادية عام ٢٠٠٣ تمرير مشروع «خريطة الطريق» في الأمم المتحدة فسارعت واشنطن إلى الطلب من موسكو التراجع عن المشروع.

كلل جورج بوش تأييده غير المحدود لإسرائيل بتسليم شارون أثناء زيارته لواشنطن في ١٤ نيسان ٢٠٠٤ كتاباً تتعهد فيه الولايات المتحدة بدعم إسرائيل في موقفها تجاه المستوطنات في الضفة. أي عملياً إلغاء «خريطة الطريق» التي تلغي على أرض الواقع مشروع قيام دولة فلسطينية ضمن حدود ما قبل حرب ٥ حزيران ١٩٦٧، وذلك عام ٢٠٠٥، وعودة المهجرين الفلسطينيين في عام ١٩٤٨ إلى ديارهم ضمن الدولة العبرية.

ومن المعروف أن أرييل شارون اختار الموافقة مبدئياً على كل مشروع لإحلال السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين تتقدم به الأسرة الدولية،

بينما يقوم بإجهاضه عملياً على أرض الواقع بالتعاون مع الإدارة الأميركية.

الرأي العام الأوروبي يعي الواقع المرير الذي تعيشه دول الشرق الأوسط من جراء ما أصبح معروفاً بـ«الدعم الأميركي غير المحدود لإسرائيل». وقد أفصح مؤخراً استفتاء للرأي العام في المجموعة الأوروبية عن وجهة نظر المواطن الأوروبي بالنسبة إلى الخطر الذي يهدد السلام العالمي أكان ذلك من قبل دول كبيرة كالولايات المتحدة أم صغيرة كإسرائيل.

سارعت واشنطن وتل أبيب إلى وصف الاستطلاع المذكور بأنه «معادٍ للسامية»: نتائج الاستطلاع كانت أن ٥٩٪ من الأوروبيين يعتقدون أن إسرائيل تشكل التهديد الاول للسلام العالمي. وفي تحديد أبرز المواصفات الاجتماعية الديموغرافية للذين شملهم الاستطلاع (وهي الجنس والعمر ودرجة العلم والوظيفة ومكان الإقامة) يبدو أن الذين اختاروا إسرائيل في مقدمة الدول التي تهدد السلام العالمي ليسوا الأقل ثقافة. ٦٦٪ من المثقفين اعتبروا إسرائيل الدولة الأكثر تهديداً للسلام العالمي يليهم بالمقارنة الذين توقفوا عن الدراسة بين ١٦ و٢٠ سنة (٥٩٪) أو توقفوا عنها في سن ١٥ سنة (٥٠٪) وقد كتبت سحر بعاصيري في جريدة «النهار» بتاريخ ٥ تشرين الثاني ٢٠٠٣ ما مفاده: أن ٨١٪ من الأوروبيين يؤمنون بوجوب اضطلاع الاتحاد الأوروبي بدور فعال في السلام في الشرق الأوسط. ومثلما صنف الأوروبيون إسرائيل في المرتبة الأولى صنفوا خمس دول عربية، وإن لأسباب أخرى، في مراتب مختلفة (بعد أميركا التي حلت ثانية مع كوريا الشمالية وإيران) وهي العراق وسورية وليبيا والسعودية والصومال.

دور إسرائيل في انتقال الصراع من ما بين المعسكرات (الشيوعي ـ الرأسمالي) إلى صراع بين الحضارات والثقافات لم يكن صغيراً على حجم إسرائيل بل بحجم التحدي الكبير الذي تشكله للعرب وللمسلمين.

فتجييش المسلمين في العالم ضد الولايات المتحدة من إندونيسيا إلى الباكستان سببه الأساسي الموقف الأميركي من إسرائيل وليس الخطب الـ«بن لادنية» عن محاربة الكفار بمعنى المسيحيين بل المسيحيين الصليبيين بمعنى الصهاينة الجدد.

الحضارات لا تموت إنما تتبادل المواقع

تواصلت الحضارات في محيط البحر الأبيض المتوسط من بابل إلى مصر الفرعونية إلى اليونان إلى الرومان إلى فارس إلى العرب.

لكن الإسلام كان أكبر منها جميعاً إذ اخذت الشعوب تدخل الحضارة عن طريق الإسلام. دخل الترك والمغول حضارة عصرهم بواسطة الإسلام. فنصروه وانتصروا به. كان الإسلام نقطة لقاء حضارية لحضارات متعددة فحضنها واحتضنته فعززها وعززته.

من لم يكن يعرف الحضارة اليونانية والرومانية في القرنين الأول والثاني وحتى سقوط روما في القرن الخامس ميلادي كان عملياً خارج الحضارة.

من كان يجهل الحضارة الإسلامية بأجنحتها العربية الفارسية والمصرية والمغربية والكردية والتركية في عصر الفتوحات كان خارج الحضارة. واستمر الأمر كذلك حتى القرن الخامس عشر ميلادي.

من كان يجهل ابن سينا وابن رشد والفارابي وعلم الفلك عند العرب وأبا العلاء المعري كان على هامش الحضارة المسيطرة فوق شواطئ البحر الأبيض المتوسط. من يجهل في عصرنا ماركس (علم الجماعة) وداروين (تطور الحياة) وباستور (علم الطب) وفرويد (علم النفس) وأينشتين (علم الذرة) هو خارج الحضارة اليوم.

تتقدم الحضارة حضارة فتصبح الحضارات الأخرى ثقافات كالصينية واليابانية والهندية القديمة. وهذه الثقافة إذا أرادت دخول الحضارة فبابه مفتوح لها إنما هو واحد أحد بعد القرن السادس عشر ميلادي، إنه أوروبي الهوية ومن أعطاه الصفة المسيحية يتجاهل علمانيته أولاً ـ وقد أكده الدستور الأوروبي الجديد ـ ومشاركة المسلمين في إرساء قواعده ثانياً. الثقافة الأوروبية هي أوروبية بقدر ما كانت أوروبا مسيحية. إنما اشترك في صنعها العرب والمسملون بقدر ما فعله اليهود.

إذاً هذه الحضارة الأوروبية هي بنت أفكارنا أيضاً كعرب وكمسلمين فالتنكر لها هو التنكر لذاتنا.

٥٤

تعزيز عروبتنا وإسلامنا حضارياً وإيمانياً هو سياجنا

عندما خرج العرب من الجزيرة حاملين الرسالة كانوا في واقع الحال يحملون رسالتين: رسالة الإسلام ورسالة العروبة.

الفارق بين العرب والتتار والمغول وغيرهم من الذين خرجوا من الصحارى إلى الحضر شاهرين سيوفهم، أن العرب وإن كانوا غزاة وفاتحين فإنهم كانوا أصحاب رسالة حضارية وكان ذلك بفضل الإسلام. وبفضله بقيت الرسالة وبقيت اللغة العربية. كانت الرسالة الأساس واللغة الوسيلة.

فمَن أسلم اعتنق الاثنين ومن بقي على دينه كالمسيحيين واليهود استوطنوا اللغة وكرموا الرسالة.

لا يكفي الإسلام وحده لإعطاء كل مسلم صفة العربي. والمسيحية لم تكن تكفي للمسيحي العربي كي يعرف العروبة لأن العروبة قد حملها إليه الإسلام.

قول أنطون سعاده: بأننا كلنا مسلمون فمنا من أسلم بالإنجيل ومنا من أسلم بالقرآن، يتضمن من الحقائق ما لا يمكن تجاوزه من الحقيقة ولكنه ليس كل الحقيقة. أما ميشال عفلق، مؤسس حزب البعث العربي، فقد جعل شعار الحزب «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة». والرسالة الخالدة هي الإسلام.

لأن الحقيقة هي أننا كلنا عرب بفضل الإسلام. والإسلام أعطانا ديناً ولغة وحضارة إضافة إلى هذا المدى الحيوي الذي تحسدنا عليه دول الأرض قاطبة. باستطاعتنا القول بعد الرسول العربي بأن البحر الأبيض المتوسط أو «المارا نسترم» الرومانية أصبحت بحيرة عربية إسلامية.

والعالم الإسلامي هو كالعالم المسيحي له المراجع الثقافية نفسها، ولكن ليس دولة واحدة تقودها أهداف وآمال وأحلام موحدة كالعالم المسيحي أيضاً. أما دنيا العروبة والعرب فهي واحدة قائمة بفضل الإسلام واللغة التي حملها إليهم الإسلام.

٥٥

كيف تنقرض الأمم

تنمو الدول باقتصادها وقدراتها على تجييش الناس حولها. التجارة كالصناعة من الأسباب التي تجعل الأوطان تقوم وتزدهر. كانت مدينة البندقية تهيمن على البحر الأبيض المتوسط بسبب ازدهار أسطولها الحربي والتجاري.

مدينة بترا شكلت معقلاً للصمود ضد روما لكونها محطة تجارية على طريق الصحراء. عظمة قرطاجة كان سببها موقعها التجاري وحضارتها الفينيقية فخرج منها هنيبعل الذي وضع روما على باب قوسين من السقوط.

انهار الاتحاد السوفياتي اقتصادياً قبل أن يسقط سياسياً أو عسكرياً في أفغانستان وعلى حائط برلين.

بقيت أميركا وحدها تشرف على مقدرات العالم لأنها القوة الاقتصادية الأقوى والأعتى فيه.

في نهاية الحرب العالمية الأولى تغلّب منطق الانعزال على منطق الانصهار في الذهن الأميركي، فبعد أن أسست الولايات المتحدة «عصبة الأمم» رفضت الدخول فيها.

الحرب العالمية الثانية وخصوصاً بعد تدمير الأسطول الأميركي في بيرل هاربر من قبل اليابان عام ١٩٤١، إضافة إلى التهديد الذي شكّلته النازية لمستقبل العالم بعد تبدل الموازين الحربية مع تعاظم شأن الطيران ودخول عصر الذرة، كل ذلك أرغم أميركا على المشاركة في الشؤون العالمية من غير رجعة. ومن اللافت أن تكون أفكار المحافظين الجدد موجودة في فكر الرئيسين اللذين خاضا الحربين العالميتين الأولى والثانية جزئياً، إضافة إلى تفكير سلفهما جيمس مونرو وذلك قبل دخول أميركا الحربين العالميتين. لخص فرانكلن روزفلت أهداف الولايات المتحدة في خوضها الحرب العالمية الثانية بأربع نقاط: حرية الرأي، حرية الأديان، الحرية بالنسبة إلى الحاجات ونسبة لتجاوز الخوف[1]. كان المقصود من هذا الإعلان للنوايا إعطاء الولايات المتحدة الحق في دخول الحرب العالمية الثانية في حال هُددت الحريات. وهو يشبه إلى حد بعيد إعلان مشروعية الحروب الاحترازية الصادر في بيان الإدارة الأميركية عام ٢٠٠٢.

كان للولايات المتحدة كما للاتحاد السوفياتي ـ بعد تأسيسه عام ١٩١٧ ـ نظرة كونية مفقودة في أوروبا الاستعمارية حتى في أبهى

---

(١) Diplomatie, Ibid. p.345.

أيام سؤددها في القرن التاسع عشر. سبب ذلك أن أوروبا كانت تنقسم إلى دول متعددة الأهواء والأطماع بينما الاتحاد السوفياتي وجد لنفسه عقيدة شرعت له قيادة العالم. وكذلك فعلت الولايات المتحدة باسم التفوق الاقتصادي الذي جسدته مقولة «نمط العيش الأميركي» وبعدها مبادئ الديموقراطية. الملفت في المبادئ الروزفلتية أنها، كإعلان الإدارة الأميركية للمحافظين الجدد، تعطي للقوات المسلحة الأميركية حق التدخل من غير شروط في الشؤون العالمية، كما حصل في العراق باسم «الحاجات» لمواد أولية كالبترول وباسم «الخوف» من شيء مجهول كالإرهاب أو سلاح الدمار الشامل الذي ثبت أنه من نسج الخيال.

هذه المبادئ الأربعة يمكن لجورج دبليو بوش ادعاء تطبيقها في حروبه من أفغانستان إلى العراق وضد أنظمة تعتقد الولايات المتحدة أنها تشكل تهديداً للسلم العالمي.

إنما، وخلافاً لما كانت عليه الفاشية والشيوعية في تصرفها وتطرفها من الهتلرية إلى الستالينية، تبقى الديموقراطية رغم مهازلها أحياناً، تفسح في المجال لروح النقد والمحاسبة.

من كان باستطاعته أن يحاسب فيشنسكي يوم كان يطلب الإعدام لمئات القادة والمفكرين الشيوعيين عام ١٩٣٦ لمنافستهم ستالين على الشهرة أو السلطة؟ صندوق الاقتراع، رغم ركاكته، يبقى مرجعاً لا بديل عنه. الانتخاب، فصل السلطات، حرية التعبير عن الرأي بالكتابة أو بالكلمة أو بالتظاهر هي بالنسبة إلى الديموقراطية السياسية كالمعادلات بالنسبة إلى الكيمياء.

٥٦

زمن الحروب

خضنا حروباً وجرت انقلابات عسكرية في العالم العربي باسم استعادة الحقوق المسلوبة في فلسطين وإعادة المهجرين إلى ديارهم بعد تحرير الأرض من المغتصبين فكان مصيرها الفشل. أوَ ليس من حق المواطن العربي أن يطرح على نفسه السؤال التالي: لماذا فشلنا رغم كل هذه الحروب والانقلابات؟ لماذا ولمرة واحدة اقتربنا من النصر ولم نفز به (١٩٧٣)؟ لماذا هذا التقهقر وعلى جميع المستويات؟

حاول العرب استعادة الحقوق المسلوبة مرتين كانت أولاها عام ١٩٦٧ وثانيتها في حرب أكتوبر ١٩٧٣ أو ما يسميه الإسرائيليون بـ«حرب كيبور».

كانت الحرب الأولى فاجعة بكل ما للكلمة من معنى وعلى جميع

الصعد: سياسة، قيادة، تخطيط، نتائج. يكفي القول أن طائرة مقاتلة واحدة لم تقلع من مطارات مصر للدفاع عن أجوائها، وأن النصر الإسرائيلي كان شاملاً في أقل من ساعتين.

أما حرب أكتوبر ١٩٧٣ فلها قصة تستحق أن نأخذ منها الدروس والعبر. والحق يقال أنه اختلط فيها الحابل بالنابل: حكمة السادات وحنكته، جنونه وسذاجته واحتياله على الشريك قبل العدو، علماً أنه كان يوجد من يفوقه مكراً واحتيالاً ويمسك بخيوط اللعبة بكاملها.

يقول نعوم شومسكي[1]:

«ان الخلاف الذي قام بين وليم روجرز وهنري كيسنجر في ما إذا كان من الضروري إيجاد حل سلمي للصراع العربي - الإسرائيلي انتهى بفوز نظرية كيسنجر التي كانت تدفع إلى وقف الحوار العربي - الإسرائيلي وإبقاء حالة الحرب قائمة. السلام مع مصر يوفر على إسرائيل الحرب على جبهتين وحالة الحرب المستمرة تسمح لإسرائيل باستمرار اقتناص الأرض بعد طرد سكانها. لذلك رُفضت مقترحات السلام لأنور السادات عام ١٩٧١ فلجأ الرئيس المصري إلى الحرب لتحريك القضية وإرغام إسرائيل وأميركا على قبول بعض التنازلات بالنسبة إلى مصر وسيناء».

بخروجه من منطق الحرب الباردة وارتمائه بأحضان أميركا - وكانت الحرب الباردة في أوج استعارها عام ١٩٧٤ - برهن أنور السادات

---

(١) **Pirates et empereurs**, Paris, Fayard, 2003, pp. 237-238.

على أنه كان رجلاً مزاجياً إلى أقصى الحدود لكنه وبالوقت نفسه صاحب رؤية. اعتقد ومنذ عام ١٩٧٤ أن أميركا هي سيدة الموقف ويجب على العرب أن يسيروا في ركابها اقتناعاً منه أنه إذا أعطاها أعطته. القسم الأول من تصوره للأمور أي التفوق الأميركي كان صحيحاً. إلّا أن القسم الثاني منه بات مستحيلاً أولاً للعداء المستحكم بين «الثوار» العرب وأميركا في تلك الفترة من الزمن، ولارتباط أميركا العضوي بكل ما هو صهيوني وإسرائيلي.

استمرت السياسة الأميركية ومنذ ذلك الحين، أي عام ١٩٧٤، منحازة لإسرائيل بلا قيد أو شرط عسكرياً وسياسياً. إذ بادرت إلى استعمال حق الفيتو لصالح إسرائيل في الأمم المتحدة باستمرار ومن غير الأخذ بعين الاعتبار أية مشاعر إنسانية بالنسبة للعرب والمسلمين عامة.

كانت حرب أكتوبر لعام ١٩٧٣ آخر الحروب التي قادها العرب ضد إسرائيل فترتبت على نتائجها أمور مفصلية. ما هي؟

كان أنور السادات قد طرح عام ١٩٧١ مبادرة سلمية تصدى لها الثنائي الإسرائيلي الأميركي بالرفض. أنور السادات كان على بيّنة من أن الرفض الإسرائيلي للسلام مع العرب بالتضامن مع الولايات المتحدة، كما عرض السلام العربي على لسان الأمير عبدالله ولي العهد المملكة العربية السعودية في مؤتمر القمة في بيروت عام ٢٠٠٢ ـ وقد رفض بالتضامن بين الولايات المتحدة وإسرائيل ـ كان أصبح بعد حرب ١٩٦٧ ضمن استراتيجية مستمرة للدولتين.

إسرائيل لا تريد السلام مع العرب لأنها تريد كل أرض فلسطين.

الموافقة على السلام مع صاحب الأرض هو العدول عن طرده منها، وإسرائيل لم تعدل عن طرد عرب فلسطين من فلسطين كي ترضى بتوقيع السلام معهم.

أنور السادات عرف من الأميركان غداة موت جمال عبد الناصر ـ أي منذ عام ١٩٧٠ ـ أن السلام مرفوض لأن الأرض أو المتبقي منها ـ وسيناء التي وطأها النبي موسى وشعبه من ضمنها ـ هي أيضاً جزء من الهدف الاستعماري. فأراد بحذاقته أن يستعيد الأرض بكل الوسائل: الحرب، مشاريع سلام، الحيلة، الارتماء بالأحضان. ضمن هذا التصور أطلق السادات مقولته أن السلام في الشرق الأوسط هو بنسبة ٩٠ بالمائة بيد أميركا. اعتقد السادات مستلهماً ولو جزئياً حرب فييتنام أنه لا يحرك أميركا من سباتها الإسرائيلي العميق إلّا تأزم الأمور عن طريق الحرب ولو كانت جزئية ولو كانت مجتزأة.

يقول الفريق سعد الدين الشاذلي رئيس أركان الجيش المصري السابق[٢] أن انور السادات اتخذ قراراً بطرد الخبراء السوفيات من مصر عام ١٩٧١ لأسباب ما زال يجهلها إنما تصب منطقياً في تصوره عن الهيمنة الأميركية في الشرق الأوسط. كان عدد الخبراء السوفيات لا يتجاوز ٧٥٠٠ عنصر وقد أفقد طردهم من مصر قوتها على التصدي لإسرائيل، على حد قول الشاذلي، في الجو وفي البر معاً. كان الجيش المصري لم يستوعب بعد طائرات الميغ الجديدة ولا المصفحات التي كان أرسلها السوفيات إلى مصر لتعويض خسائرها في حرب ١٩٦٧.

(٢) محطة «الجزيرة» تشرين الثاني ٢٠٠٣.

يعترف الشاذلي ـ وكلامه غير عدائي «بالمطلق» للسادات ـ أن السوفيات كانوا يرسلون إلى العرب السلاح الذي عدلوا عن استعماله في وحداتهم، أي ما يشكل الجيل الثالث في الأقدمية، لأنه ليس السلاح الذي هو قيد الاستعمال وليس العتاد الذي هو قيد التجهيز في المصنع وقيد التجارب في الوحدات الخاصة. كان السوفيات يحرصون على عدم إعطاء العرب السلاح المتقدم الموازي للسلاح الأميركي في الميدان وإلا تسربت أسراره وفقد السوفيات حرية التحرك في أوروبا والعالم. علماً بأن طرد الخبراء السوفيات عام ١٩٧١ بقي لغزاً كما يقول الشاذلي: لأنه بدون الخبراء السوفيات كان الجيش المصري عاجزاً عن استعمال حتى السلاح السوفياتي من الجيل الثالث القديم، والصمود بالتالي، أمام الجيش الإسرائيلي على الأمد الطويل. كلام الشاذلي ذو حدين وإلا كيف نفسر اجتياز القناة وإلحاق الهزيمة بالجيش الإسرائيلي في المرحلة الأولى من القتال.

الوجه الآخر من الحقيقة قد يكون تعليلاً لسلوك الجيش المصري في المرحلة التي تلت الانتصار على خط بارليف وتقاعس أنور السادات عن الاستمرار في التقدم رغم استغاثة الجيش السوري الذي بقي وحده في ساحة القتال.

على ما يبدو من كلام الشاذلي فإن السادات اعتقد أنه بطرده الخبراء السوفيات يسترضي أميركا، ولعله انتظر منها مبادرة لإحلال السلام لم تأت مما زاده يقيناً بضرورة الحرب. فاستعد لها بالسلاح السوفياتي المتوفر علماً منه بأن حربه محدودة الأفق. كانت مكيافيلية[٣].

(٣) نيكولو مكيافيل (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) سياسي وكاتب من مدينة فلورنسا، كتب كتابه الأمير فاتسمت كلمة المكيافيلية بالحنكة والخداع.

السادات أنه لم يخبر حليفه السوري الذي اندفع في القتال من غير نيات مبيتة عن الخطة بكاملها كذلك القيادات المصرية المسؤولة في ساحات القتال. يبقى السؤال: هل كان إفشاء السر الدفين (الخطة) ممكناً دون افشالها برمتها؟

يمكن أن نطرح السؤال التالي أيضاً: ألم يكن وجود الخبراء الروس في مصر حائلاً أمام خطة السادات لاجتياز القنال لأن التدخل الأميركي بجانب إسرائيل يصبح حتمياً في حال بقاء الخبراء والمدربين السوفيات ضمن الجيش المصري المقاتل؟

فبأي شكل نظرنا إلى حرب ١٩٧٣ نجدها حرباً محدودة الأهداف من قبل أنور السادات خاضتها سورية معه ورافقته قلوب العرب أجمعين معتبرين بأنها شاملة جامعة تعيد لهم حقوقهم.

في هذا الخضم من التناقضات اتخذ أنور السادات قراره بالحرب متعاوناً مع السوريين بين أيلول وتشرين الأول ١٩٧٣.

كانت الاجتماعات تتم بين يوسف شكور رئيس الأركان من قبل سورية وأحمد إسماعيل من قبل مصر، بينما أنيطت القيادة على الجبهتين بالمصريين. جاء الإحباط في القيادة السورية على قدر الآمال التي علقت على هذه الحرب. أما أنور السادات، وإن لحقت به الهزيمة آخر المطاف لتدخل أميركي سافر في معركة سيناء، فقد وصل إلى مبتغاه بإحداث «زلزال» في إسرائيل جعل استعادة صحراء سيناء أمراً ممكناً وإن كان ذلك بشروط. حرب السادات كان هدفها توقيع صلح مع إسرائيل مع استعادة سيناء، بينما كانت سورية تطمح إلى ما أبعد من منطقة الجولان.

عندما توقف الجيش المصري عن التقدم وتحول الطيران والمصفحات الإسرائيلية إلى الجبهة الشمالية كانت الصدمة للسوريين أكبر من أن توصف. إذا أردنا إيجاز حرب أكتوبر ٧٣ أمكننا، في ضوء ما قيل وما كتب، أن نقول إنها كانت حرباً بين مكيافياليتين: مكيافيلية الفلاح المصري صاحب الدهاء الفطري ومكيافيلية أستاذ في الدهاء والمكر والمعرفة في التاريخ والقانون هو هنري كيسنجر.

كان الميزان كيفما أمسكت به يميل إلى صالح كيسنجر الذي كان يتباهى السادات بصداقته. أما حافظ الأسد فكان عند كيسنجر بمنزلة خاصة أشار إليها في مذكراته. وذلك للموقف المبدئي الذي اتخذه الرئيس السوري من الحلول المطروحة وغير الشاملة لكل الأطراف العربية.

كان أنور السادات، بالإضافة إلى يقينه بأن الاتحاد السوفياتي عاجز عن إعطاء العرب القدرة على تحقيق النصر على إسرائيل، يريد استعادة سيناء لمصر ويطمح أن يدخل التاريخ بصفة رجل السلام في الشرق الأوسط. ضمن هذا المنظار الميثولوجي المضمون كانت زيارته للكنيست وللقدس. استمرت مصر على خطى السادات بعد الاغتيال كما أن سقوط المعسكر الاشتراكي أعطى مبادرة السادات أبعاداً جديدة كانت تفتقدها ماضياً. قالت جيهان السادات دفاعاً عن مواقف زوجها: لو بقيت سيناء محتلة لكانت حالتنا اليوم تشبه حال الضفة.

هل أن السادات أنقذ مصر أم أساء إليها؟ مشكلة وأهمية مصر أنها شكّلت في قسم كبير من القرن العشرين الموقع الأساسي والمحوري في العالم العربي. وقد انهار العالم العربي فتحملت أكثر من غيرها مسؤولية وأعباء هذا الانهيار.

٥٧

الأديان: ثروات ثقافية

كان الإسلام ولعدة قرون متقدماً على غيره من الحضارات وفي كل مرافق الحياة. في الحرب والسلم في العدل في العلم في المساواة. كان الرسول العربي أكبر الفاتحين لأن فتوحاته كانت حضارية لدرجة أنه لم يكن من مجال للعودة عنها. ماذا بقي من فتوحات الإسكندر وروما والتتار والمغول وسائر الشعوب؟ لا شيء يذكر. مهما قيل وكتب عن النبي العربي يبقى دون الحقيقة.

إن جميع الأديان ثروات ثقافية، حضارية، وهي توجز ضمائر الأمم وتاريخها في مرحلة معينة. للنزاعات حول طبيعة المسيح أبعاد سياسية إذ كانت تتضمن السلام والحرب في المجتمعات القديمة. كما أن النزاعات داخل العالم الإسلامي حول الخلافة أدت إلى نشوء المذاهب واستقلال الأمم. ما يبدو قد مر عليه الزمن كان نتيجة أو

سبباً لنشوء أمم وحضارات وثقافات هي المجتمع البشري المتباين والمتكامل في آن.

انقسمت الكنيسة بعد سقوط روما إلى كنيستين غربية وشرقية. وتميزت فارس عن الدولة الإسلامية المسيطرة أو السلطنة فاعتنقت المذهب الشيعي في الإسلام. هل كانت العقيدة سبب الاستقلال أم أن اعتناق المذهب كان المقدمة للاستقلال؟

الحضارة قامت وترعرعت وتقدمت ضمن هذا التاريخ الأيديولوجي الديني الذي يستحق كل عناية ودراسة واحترام. الدين والإيمان يشكّلان مصدر عزة وقوة للدفاع عن النفس لمحاربة المستعمر، فإيانا أن نحوّله آلة للتفرقة بيننا للنيل من عزيمتنا على مقارعة الغازي أو المستعمر في العراق أو في فلسطين.

الدين ثورة على الظلم، الدين عزاء، الدين صلابة في مجابهة أعداء الخير والحق والمستقبل. لذلك وباسم الدين باسم الحق من أجل مستقبل أولادنا نقف صفاً واحداً مع المقاومين.

يبقى أن نعرف كيف نتصدى ونقاتل ونموت من أجل أرضنا وعقيدتنا، وإنما أيضاً كيف نتقدم في مضمار الحضارة والعصرنة فننافس الأمم الأخرى في جميع المجالات كما فعل اليابانيون والصينيون قبلنا وبطرس الأكبر في روسيا القديمة قبلهما.

هناك سر يجب أن نعرفه نحن الشعوب المستضعفة المقهورة على أمرها: لماذا هناك شعوب يتعدى مدخول الفرد فيها الثلاثين ألف دولار، وبعضها لا يتمتع بموارد طبيعية مثلنا، بينما دخل الفرد في

الأقطار العربية غير النفطية يقارب الدولارين يومياً. لماذا يفوق الناتج الوطني لإسبانيا الناتج القومي لثلاثماية مليون عربي؟ لماذا صادرات دولة فنلندا التي يبلغ عدد سكانها ٥ ملايين نسمة تفوق صادرات العالم العربي مجتمعاً في ما عدا النفط طبعاً.

الجواب ليس عربياً أو إسلامياً أو مسيحياً بل فيليبيني ومكسيكي وغيني وكومبدجي وتايلندي كذلك. ما يهمنا بالطبع أن يكون الجواب عربياً وإسلامياً لأنه يعنينا مباشرة.

٥٨

الحرب والإرهاب

الدول القادرة تشهر الحرب وإن لم تعلنها. كاليابان على أميركا في بيرل هاربر في كانون الأول عام ١٩٤١، وألمانيا على الاتحاد السوفياتي في حزيران ١٩٤١، وجورج دبليو بوش على صدام حسين عام ٢٠٠٣.

أما الضعيف فيلجأ إلى الإرهاب. كالاعتداء على برجي نيويورك وعلى منتجع بالي في إندونيسيا والدار البيضاء في مراكش واسطنبول في تركيا. للإرهاب أسبابه ودلائله كما للحروب دلائلها وأسبابها.

والإرهاب، بالمعنى السلبي للكلمة، كانت تمارسه الدول لإتمام سيطرتها على الشعوب. وما زالت تمارسه بقذارة تفوق ألف مرة قذارة الإرهاب الذي يمارسه المستضعفون. بماذا يمكننا وصف قتل

المقعد المريض الشيخ أحمد ياسين في غزة أوائل عام ٢٠٠٤؟ يلجأ الجيش الأميركي في العراق إلى الأسلوب الإرهابي نفسه الذي يعتمده الإسرائيليون ضد العرب في فلسطين. فينشرون القناصين على سطوح المنازل في مدينة الفلوجة المحاصرة وفي مدينة الحصيبة على حدود سورية ويغتالون المارة من نساء وأطفال وعجائز.

اغتال الجيش الأميركي في الفلوجة ما يزيد على ٦٠٠ مواطن بواسطة المدفعية والطيران والقناصة من على سطوح المنازل للثأر من مقتل أربعة أميركيين والتشويه بجثثهم الذي قام به بعض الجهلة من أبناء البلدة الثائرين ضد الاحتلال. بماذا يمكننا وصف هذا الثأر اللاأخلاقي من سكان الفلوجة الأبرياء إلّا بكلمة «إرهاب»؟

ما الفارق بين ما فعله الإسرائيليون في جنين وفي غزة وما فعله الجيش الأميركي في الفلوجة؟

إن العالم العربي ودنيا الإسلام يكتنزان قدرات تفوق ما عرفته أوروبا والغرب وأميركا عدة مرات. ما بالنا نائمين نمجد الماضي ونبكي الحاضر ونتناسى المستقبل. أين كنا وأين أصبحنا وأين كانوا وماذا أصبحوا؟

جميع الأصنام التي هدمها النبي العربي أعيد بناؤها في عقولنا وهي لا تتزحزح. إما أن نحطمها وإما أن تستمر في تحطيمنا.

إسرائيل والتوراة

لإسرائيل كدولة وليدة عوامل ثلاثة: التوراة، الاضطهاد المسيحي لليهود عبر التاريخ، الحربان العالميتان الأولى ـ وعد بلفور ـ والثانية الـ«شوا» أو المحرقة النازية. ومن الأهمية بمكان الملاحظة أن المشروع الصهيوني للاستيلاء على فلسطين نشأ في غمرة التمدد الأوروبي الاستعماري أي في أواخر القرن التاسع عشر.

لا شك في أن الدّعاة الأوائل لإقامة دولة يهودية في فلسطين كانوا أوروبيي التفكير بمعنى كونهم علمانيين ـ أي دعاة فصل الدين عن الدولة ـ إن لم يكونوا أيضاً ملحدين.

إلّا أنه بعد الحروب المتتالية التي خاضها العرب ضد إسرائيل وخاضتها إسرائيل ضد العرب، أصبح الكلام اللاهوتي والديني في

صميم الصراع القائم على أرض فلسطين.

السبب الحقيقي لهجرة اليهود إلى فلسطين كان الاضطهاد ذا الجذور المسيحية لليهود في أوروبا. كانت التوراة السبب الرئيسي لاختيارهم فلسطين كوطن بديل عن أوروبا. إنما هذا الخيار لم يتبلور إلّا في أواخر القرن التاسع عشر لأنهم عندما طردوا من إسبانيا في القرنين الخامس والسادس عشر لجأوا إلى السلطنة العثمانية وليس إلى فلسطين بالتحديد.

أصبحت التوراة مصدراً ملهماً لإنشاء دولة في فلسطين أواخر القرن التاسع عشر بدعوة من الكاتب اليهودي الهنغاري الأصل تيودور هرتزل عام ١٨٩٦.

فالتوراة كانت التبرير للاغتصاب بينما الأساس هو الاضطهاد الأوروبي لليهود، علماً أن الذي دفع ثمن ذلك هم العرب والمسلمون.

في الأديان كما في العقائد، التفسير والتنفيذ يلعبان دوراً بأهمية العقيدة نفسها. لقد استند توركميدا[١] في محاكم التفتيش إلى تعاليم الإنجيل، وفيشنسكي[٢] في محاكمات ١٩٣٦ الستالينية إلى تعاليم ماركس وأنجلز، وصدام حسين في العراق إلى مبادئ حزب

---

(١) توماس توركميدا (١٤٢٠ ـ ١٤٩٨) رئيس محاكم التفتيش في إسبانيا في ذلك الوقت. وقد تم على يد هذه المحاكم طرد المسلمين واليهود من إسبانيا.

(٢) اندريه فيشنسكي (١٨٨٣ ـ ١٩٥٤) مدّعٍ عام في محاكمات موسكو ١٩٣٦-١٩٣٨ ثم وزير خارجية الاتحاد السوفياتي من عام ١٩٤٩-١٩٥٣ ومثّل الاتحاد السوفياتي في الأمم المتحدة حتى وفاته.

البعث الاشتراكي. ماذا يجمع بين أدعياء الإسلام المنتصر على الاستعمار في الجزائر والإرهاب باسم الإسلام في قرى ومدن الجزائر المعذبة؟

بينما كان الصراع يتمحور في معظم دول العالم في القرن العشرين بين اليمين واليسار ـ الرأسمالية والشيوعية ـ كان الصراع يدور في العالم العربي والإسلامي بين الجيش والأحزاب الإسلامية: عبد الناصر والإخوان المسلمين في مصر، الجيش السوري والإخوان المسلمين في الثمانينيات في حماه وحلب، الجيش الجزائري و «جبهة الخلاص الإسلامية» عام ١٩٩٢، الجيش التركي ونجم الدين أربكان رئيس الوزراء الإسلامي عام ١٩٩٧، الانقلابات العسكرية المستمرة في الباكستان وآخرها من قبل الجنرال برويز مشرف عام ١٩٩٩ على نواز شريف الذي كان يقود تجمع الأحزاب الإسلامية.

في زيارة إلى دمشق عام ١٩٧٦ قال لنا الرئيس حافظ الأسد: «الجيش مدرسة شعبية يتعلم فيها ابن الريف كيف يتعامل مع الماكينة». في منظار الرئيس السوري الجيش هو مدرسة. كانت هذه النظرة سائدة في العالم الذي ورثناه عن السلطنة العثمانية ثم الدول الاستعمارية وخاصة بعد نشوء إسرائيل. إنما السؤال الذي يبقى مطروحاً هو: هل باستطاعة الجيوش أن تصبح البديل عن المدرسة وهل بغير وجود المدرسة التي عرفتها أوروبا في القرن التاسع عشر بالإمكان الركون إلى الجيوش أو حتى إلى الأحزاب أو الديموقراطية؟ المدرسة الإجبارية الحديثة هي مفتاح الجيوش والأحزاب والديموقراطية. لماذا يبلغ دخل الفرد في إسرائيل ٢٠ ألف دولار وفي العالم العربي لا يتعدى الألف دولار أحياناً؟ لأن اليهود حملوا معهم من الأقطار الأوروبية التي نزحوا عنها المدرسة بالمفهوم الأوروبي الحديث وليس

فقط قلنسوات الحاخامات التي هي فولكلور تبريري إضافي لعملية السطو والسرقة التي يقومون بها في فلسطين العربية.

العراق ـ إسرائيل

للاجتياح الأميركي للعراق سببان: البترول وإسرائيل. بالمنظار الأميركي الحديث لا تقلّ حاجة الولايات المتحدة لإسرائيل عن حاجتها إلى البترول بل إنهما متكاملان: إسرائيل جندي أميركي على منابع البترول. بعض الأسباب التي ادعاها موسوليني لاجتياح ليبيا والحبشة عام ١٩٣٦ ادعتها الإدارة الأميركية أيضاً لاجتياح العراق: نشر الحضارة (الديموقراطية بالنسبة إلى أميركا اليوم) وإزالة حكم بربري متخلف من الساحة الدولية. لماذا كان مرضيّاً على هذه البربرية يوم اجتاح صدام حسين إيران ودمر اقتصادها ثم قتل ألوف الأكراد خنقاً والشيعة ذبحاً وكيف أصبحت بعد ذلك جريمة تستحق العقاب؟

٦١

أميركا والقومية العربية

يعزو إدمون رباط[١] عداء فرنسا لفكرة القومية العربية أيام الانتداب إلى معركة ميسلون[٢] وإلى الثورة العربية ضد السلطنة بالتعاون مع الضابط البريطاني لورنس[٣] والى ما كانت تبديه بريطانيا ثم أميركا في مدارسهما من عطف تجاه نزعة شعوب المنطقة إلى الوحدة باسم العروبة والإسلام.

---

(١) مقدمة الدستور، دار النهار، ٢٠٠٤.

(٢) جرت على مشارف دمشق عام ١٩٢١ بين الجيش العربي السوري والجيش الفرنسي بقيادة الجنرال غورو. واستشهد فيها وزير الدفاع السوري يوسف العظمة.

(٣) توماس إدوارد لورنس (١٨٨٨ـ١٩٣٥) ضابط في المخابرات البريطانية ـ عاون عرب الجزيرة على محاربة السلطنة العثمانية. اكتسب شهرة عالمية في كتاباته عن هذه المرحلة (أعمدة الحكمة السبعة).

في الفترة نفسها التي شهدت تصادم المصالح الفرنسية ومدارسها وجامعاتها مع الفكرة العربية، نرى الجامعة الأميركية ترعى كل ما ينمّي الفكرة العربية ويساند المنتمين إليها.

شهدت الأمور انقلاباً نوعياً في المواقع والمواقف بعد إقامة إسرائيل. فبينما تحاول فرنسا وبكل الوسائل رأب الصدع بينها وبين الدول العربية وتدعو إلى تعاونها، تتخذ الولايات المتحدة بعد بريطانيا أنطوني أيدن[٤] وحرب السويس عام ١٩٥٦ موقفاً معادياً لكل ما هو وحدوي بين العرب.

وبرأي نعوم شومسكي وإدوارد سعيد، أن الولايات المتحدة وقفت في الماضي القريب أيام ما سمي بـ«المد الناصري» وتقف اليوم، سداً منيعاً أمام كل نزعة عربية للتوحيد أو الوحدة. علماً أن في الوثيقة الصادرة عن الإدارة الأميركية عام ٢٠٠٢[٥] دلالة كافية على أن الولايات المتحدة لا تعتمد هذه السياسة المناهضة لقيام مراكز قوى جديدة في العالم في العالم العربي وحده. بل أن السياسة الأميركية المناهضة لكل مراكز قوى محتملة في العالم تشمل أوروبا الغربية أيضاً كما دول الاتحاد السوفياتي القديم. وقد لجأت مؤخراً بعد الانقلاب الذي أطاح بالرئيس شفرنادزه في جورجيا (كانون الثاني عام ٢٠٠٤) إلى الطلب من روسيا سحب جيشها من المنطقة بينما الجيش الأميركي يحتل أفغانستان والعراق ويهدد إيران وسورية.

---

(٤) (١٨٩٧ - ١٩٧٧) وزير خارجية بريطانيا في عدة مراحل ثم رئيس وزراء من عام ١٩٥٥ إلى عام ١٩٥٧.

(٥) The National security Strategy of the USA, Sept. 2002.

ما نريد إماطة اللثام عنه هو أنه بينما كانت فرنسا هي العدو للفكرة العربية بعد الحرب العالمية الأولى، نجد إنكلترا تنبري لهذا الدور على المسرح الشرق أوسطي بعد تأميم قناة السويس وحربها على مصر عام ١٩٥٦ بمشاركة فرنسية. ثم تلقفت الولايات المتحدة الدور نفسه بعدها، منذ هزيمة العرب عام ١٩٦٧ لما اعتبرته نصراً إسرائيلياً على السوفيات بمقدار ما هو نصر إسرائيلي على العرب.

يعتقد إدوارد سعيد ونعوم شومسكي وإيف لاكوست(٦) أن الإدارة الأميركية منذ عهد الرئيس نيكسون وانتهاء بالرئيس بيل كلينتون ثم بوش الابن تقود حرباً شعواء للحؤول دون توحيد العرب كلمتهم، ليس فقط لأسباب بترولية وحماية إسرائيل بل لمصلحة الولايات المتحدة نفسها واستمرار هيمنتها على مقدرات العالم في هذه المنطقة.

إن خطورة اجتياح العراق بقدر ما له من أهداف بترولية وإسرائيلية فهو ابن هذا التخطيط الأميركي الشامل، إذ يهدف إلى إحكام قبضة الولايات المتحدة على اقتصاد العالم كما جاء في وثيقة ٢٠٠٢ الأميركية.

---

(٦) مجلة **Hérodote**
"Revue de géographie et de géopolitique", no 109, Paris 2003.

٦٢

البربريتان

نعيش في عصر تقوده بربريتان: بربرية البرابرة التي هي نحن، وبربرية الحضارة التي هي أميركية. ونعيش في عصر إرهابيين: إرهاب الدولة الذي يتمثل بالولايات المتحدة وحليفتها إسرائيل، وإرهاب الشعوب الذي يتمثل في ما يسمى «بالقاعدة» و«الشيشان» و«جيش إيرلندا الجمهوري».

يختبئ وراء إصبعه من يظن بأن حرب الإرهاب في امتدادها القاري هي غير عقائدية أو غير دينية أو غير حضارية. إنها حرب بين ديانات جرى تشويهها على يد سلفيين منشقّين يهود وإسلاميين ومسيحيين.

توركميدا موجود في كل الأديان والحضارات. لقد نصب شارون نفسه في فلسطين وبوش في العراق توركميدا عصرهما يقتلان ثم

يحاكمان. يحرقان ثم يبرران فعلتهما. لا يكفي المحافظين الجدد مثل ريتشارد بيرل وبول وولفوفيتز أن يحملا شهادات جامعية كي يصبحا راشدين. أطباء المعتقلات النازية كانوا أيضاً يحملون شهادات جامعية رفيعة. الجريمة تلبس سراويل الاعتدال وترتدي ثياب العفة إنما ذلك لا يعفيها من الجريمتين: الانحياز والاغتصاب.

.

إذا لم يتحلّ المؤمن بالرأفة والرحمة التي هي من صلب الأديان فهو ظالم وهو آثم ويستحق العقاب.

ماذا يميز أوروبا عن أميركا في نظرتيهما للسلم والحرب والتعامل بين الشعوب والمساءلة الدينية؟

أصبحت أوروبا في معظمها مجتمعاً علمانياً وذلك من روما إلى باريس إلى موسكو مروراً ببرلين، بينما بقي المهاجرون الأوروبيون إلى أميركا مطبوعين بعقيدة التبشير الديني التي حملوها معهم عبر المحيط[١].

---

(١) لنبدأ بالديانة. تشهد الولايات المتحدة إحياءً للإيمان المسيحي في العديد من المجالات في الحياة المدنية والسياسية، في حين أن نشر العلمانية جارٍ على قدم وساق في أوروبا. تشكّل الولايات المتحدة حالياً المجتمع الأكثر اهتماماً بالدين بين الديموقراطيات الغربية. ففي استطلاع للرأي أجرته مؤسسة «هاريس إنترأكتيف» عام ٢٠٠٣، قال ٧٩٪ من الأميركيين إنهم يؤمنون بالله، وقال أكثر من ثلث الأشخاص الذين شملهم الاستطلاع إنهم يشاركون في الطقوس الدينية مرة في الشهر أو أكثر. في المقابل، أظهر العديد من استطلاعات الرأي أن هذه الأرقام أقل بكثير في أوروبا الغربية. وفي الولايات المتحدة، قالت غالبية الأشخاص الذين شملتهم=

يوجد في أميركا المعاصرة نمط تبشيري في معالجة الأمور بلغ أوجه في عهدي رونالد ريغان وجورج دبليو بوش، وتجلى في شعار «محور الشر» الذي أطلق على بعض الدول المناهضة لسياسة الولايات المتحدة في العالم من الاتحاد السوفياتي سابقاً إلى العراق وإيران وكوريا الشمالية. هذه اللغة التبشيرية انحسرت في مجتمعات محدودة عند الأوروبيين، بينما بقيت منتشرة في أوساط واسعة من المذاهب البروتستانتية في الولايات المتحدة ومنهم المحافظون الجدد وخاصة أصحاب النزعات الصهيونية بينهم[٢].

إن النزعة التبشيرية التي حملها المهاجرون إلى أميركا من إسبان وبرتغال في القرن السادس عشر إلى أميركا اللاتينية، ومن إنكلترا إلى ماساشوستز على ظهر سفينة «مايفلاور» عام ١٦٢٠ ما زالت حية تلهم بعض المذاهب التي ترى في إسرائيل صورة عن أميركا القديمة. مع الفارق طبعاً أن هذه الشيع البروتستانتية تتجاهل، أو تجهل، أن فلسطين القرن العشرين بسكانها العرب ومحيطها العربي والإسلامي

= الاستطلاعات في السنوات الأخيرة إنهم يؤمنون بالملائكة، في حين أن وجودها يعتبر على ما يبدو محالاً في أوروبا إلى درجة أن لا أحد يفكّر بها؟ (بيتر شنيدر، روائي ألماني، **نيويورك تايمز**، ترجمة نسرين ناضر، جريدة **النهار**، ١٤ نيسان ٢٠٠٤).

(٢) العبارات التي استعملها الرئيس جورج دبليو بوش مثل «حملة صليبية» و«محور الشر» وتقسيم العالم معسكرين بقوله «من ليس معنا هو مع الإرهابيين»، تكشف أن السلطة العلمانية في الولايات المتحدة ترتدي عباءة دينية، الأمر الذي أُصبح غير وارد على الإطلاق في أوروبا. أليس هذا الشعور بالعصمة الدينية ما دفع، على الأرجح، الأعضاء البارزين في إدارة بوش إلى جر بلادهم إلى حرب ضد العراق على أساس معلومات تبيّن أنها غير صحيحة؟ (المصدر نفسه)

ليست أميركا بسكانها الهنود الحمر ومحيطهم الوثني القديم.

تخطئ أميركا إن ظنت بأننا الهنود الحمر، أكان ذلك بالنسبة إلى جيشها في العراق أم للقتلة الإسرائيليين في الضفة وفي غزة.
لسنا الهنود الحمر. إننا الهنود السمر.

٦٣

بربرية اليمين الجديد في عهد بوش الابن

في الشرق الأوسط حضارتان تعتبران من تراث الإنسانية: حضارة مصر الفرعونية وحضارة العراق البابلية. دخل بونابرت مصر فنفخ الروح فيها ودخل جورج دبليو بوش الثانية فدمرها واستباحها. دخول بونابرت إلى مصر يعتبر بزوغ فجر النهضة في تاريخ الشرق العربي فماذا عن دخول جحافل جورج دبليو إلى بغداد؟ حملة سويس جديدة بالتحالف مع الصهاينة أم قصة صبرا وشاتيلا في طبعة منقحة؟

دخل بونابرت مصر مصطحباً معه العلماء ودخل جورج دبليو العراق مصطحباً معه اللصوص والقتلة والإرهابيين والصهاينة والمزورين.

الفارق الزمني بين دخول ابن فرنسا ـ أو كورسيكا ـ القاهرة والآتي من أميركا ـ أو تكساس ـ إلى بغداد هو مايتا عام من الحضارة والعلم والتقدم والثقافة.

ماذا كانت النتائج؟
الآتي من كورسيكا جاء ومن أولى همومه إحياء تراث مصر العريق، نشر العلم والعلوم بواسطة الطباعة والصحافة في الشرق. والآتي من تكساس كان همه الوحيد حماية وزارة النفط ومشتقاته وإهداء باقي مرافق العراق للصوص والقتلة والقوادين.

المقارنة بين الزمنين والرجلين تكفي للدلالة عما تتضمنه مغامرة الإدارة الأميركية من خطر مرتبط برجعيتها فكرياً وسياسياً وحضارياً. لذلك ذهب بعض المفكرين الأوروبيين الذين نشاطرهم الرأي إلى القول بأن الحرب القائمة بين الطبقة الحاكمة في واشطن وبين «الإرهاب» المتمثل «بالقاعدة» هي حرب بين سلفيتين أو بين بربريتين.

الأديان سبيل حضارة

انطلاق الأديان والعقائد يصبو في أساسه إلى فتح صفحة جديدة من التاريخ في التقدم والحضارة الإنسانية. كانت المسيحية في روما القديمة تحمل في ثناياها شوق العبيد إلى تغيير واقعهم الأليم بواقع جديد يمثله ميلاد المخلّص وانتقالهم من نير العبودية إلى حرية المعتقد والإيمان.

كانت المسيحية ببساطتها الإنجيلية تمثل رغبة المحرومين الدخول في جنة المترفين، تتقاسم معهم الخبز «أعطنا خبزنا كفاف يومنا».

ألم يكن الإسلام بدوره باباً دخل منه أهل الجزيرة على حضارات أخرى كانت تفوقهم، فتفاعلوا معها فنشأ بهذا التفاعل حضارة متقدمة اجتاحت العالم من أقصاه إلى أقصاه؟

وإلى ماذا سعت الشيوعية والماركسية في حينها إلّا لتوحيد المحرومين، العمال والفلاحين، وإعطائهم ملكوت الأرض المملوكة من غيرهم.

الخطر الكامن في العقائد هو في تحويلها إلى احتكار أو امتياز تجلى في الستالينية، فتنشأ بذلك طبقة من الكهان تعطل تفاعل العقيدة مع الناس مع الفكر مع التاريخ. كذلك فعلت الستالينية بتعاليم ماركس وكذلك فعلت كنيسة القرون الوسطة بتعاليم المسيح وكذلك يفعل بعض المسلمين بالإسلام.

إن الأديان والعقائد هي من سبل التقدم والرقي والحرية وليست الحائل دونها. كانت اليهودية ثم المسيحية ثم الإسلام المنطلق لانعتاق شعوبها من نير العبودية على أشكالها. ألم تكن اليهودية ثورة على فرعون مصر والمسيحية ثورة على أوثان روما وأشرافها والإسلام ثورة على القبلية والوثنية على أشكالها؟ «اطلبوا العلم ولو في الصين». كيف نطلب العلم في الصين وبيوتنا بلا سقوف وأولادنا بلا دروس ونساؤنا في المعتقلات لا يحق لهن حتى قيادة السيارات؟

المال والديموقراطية

تنزيه الديموقراطية من المال كالاختباء وراء الإصبع: من أثينا إلى روما القديمتين إلى الولايات المتحدة اليوم، للمال دور يلعبه. يطفو أو يختبئ وراء ستار الإحسان وفقاً للأحداث والظروف. خطر المال على الديموقراطية يشبه إلى حد بعيد خطر الكهان على العقيدة. قلة تستولي بشكل أو بآخر على كل. عدد رؤساء الوزراء الملاحقين لأسباب رشوة في إيطاليا يفوق الأبرياء منهم[1]. في التحقيقات التي

(١) بتينو كراكسي، أمين عام الحزب الاشتراكي الإيطالي ورئيس وزراء من عام ١٩٨٣ إلى عام ١٩٨٧. لوحق بتهمة الرشوة والتجأ إلى تونس هرباً من الملاحقة حيث توفي في ٢٠٠٠/١/١٩.

ـ جوليو أندريوتي، نائب ايطالي في الحزب الديموقراطي المسيحي، رئيس وزراء لعدة مرات من عام ١٩٧٢ إلى عام ١٩٩٢. اتهم بالتواطؤ مع المافيا ولوحق لعدة سنوات ثم برئ من غير أن تزول قناعة الرأي العام بتورطه. =

تلت اغتيال رئيس الوزراء الإيطالي إلدو مورو(٢) تبين أن المخابرات الأميركية كانت ترسل المال بالحقائب إلى الحزب الديموقراطي المسيحي كي يستطيع الوقوف سداً منيعاً أمام تقدم الحزب الشيوعي الإيطالي المتفوق على سائر الأحزاب الشيوعية في الغرب.

أما برلسكوني رئيس وزراء إيطاليا الحالي، فسيرة حياته مشحونة بالتجاوزات والمخالفات وقد صدرت بحقه عدة أحكام معظمها جزائي يتعلق بالرشوة والتزوير. عمد عام ٢٠٠٣ إلى إصدار قانون يجعله بمنأى عن الملاحقة طيلة ترؤسه للوزراء فنقضه المجلس الدستوري الإيطالي.

لوحق آلان جوبيه، رئيس الوزراء الأسبق في فرنسا، عام ٢٠٠٣ لمخالفته المالية في بلدية باريس حين كان رئيسها، فصدرت بحقه أحكام جزائية تحول دون ترشحه للانتخابات لمدة عشر سنوات. أما الرئيس الفرنسي جاك شيراك فقد طلب منه المثول أمام القضاء لتجاوزات حصلت أيام رئاسته لبلدية باريس، فأقر المجلس النيابي قانوناً يعفي رئيس الجمهورية من الملاحقات فترة توليه رئاسة الجمهورية.

في ولاية الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران لوحق وزير خارجيته رولان دوما لعمولات تتعلق ببيع سفن حربية لحكومة تايوان بلغت مئات الملايين من الدولارات.

- رئيس الوزراء الإيطالي برلسكوني (٢٠٠٣ - ٢٠٠٤) وملاحقاته المتعددة من أجل رشوة وتهرب من ضرائب.

(٢) إلدو مورو (١٩١٦ - ١٩٧٨) وزير ورئيس وزراء من عام ١٩٧٤ إلى ١٩٧٦، خطفته «الالوية الحمراء» وأعدمته.

تلقى أرييل شارون قبل أن يصبح رئيساً للوزراء «مساعدات» تقدر بمليوني دولار استعمل قسماً منها لمآربه السياسة وقسماً آخر لاستثمار مزرعة يملكها في صحراء النقب. استجوب مع ولديه من قبل قاضي التحقيق ثم طوي الموضوع عام ٢٠٠٤.

ارتباط الديموقراطية بالحريات الأساسية حرية الرأي حرية التظاهر حرية الإعلام، هو الكابح الذي يقيد النزعة إلى الإفادة من المال العام والاستفراد بالحكم بدون وازع وبلا حدود. من هنا تبدو الديموقراطيات في العالم الثالث والعالم العربي بصورة عامة مزيفة: تحولت الجمهوريات إلى ممالك والحريات الأساسية (الصحافة والإعلام) إلى أجهزة في خدمة الملوك وحواشيهم والمال العام إلى مال خاص من غير رقيب.

يوم صدور أول صحيفة عثمانية في القرن التاسع عشر كانت مهمتها الأساسية نشر فرمانات السلطان لإبلاغها إلى من يلزم من أبناء الشعب. استمرت العقلية ذاتها مسيطرة في ذهنية الحاكم ضمن العالم العربي بعد زوال السلطنة، إذ يعتبر أن الصحافة هي وسيلته لإبلاغ رأيه للناس وليس العكس. موضوع انتقاد الحاكم لم يكن مطروحاً في السلطنة ولا يزال غير مطروح في الممالك والجمهوريات التي ورثتها. تميزت الصحافة اللبنانية بهامش من الحريات وفقاً للمقاييس الأوروبية في التعاطي مع الحكام اللبنانيين والعرب فاصطدمت بحائط من التقليد لقي على أثره عدد من الصحافيين اللبنانيين حتفهم.

إن الديموقراطية رغم سلبياتها تبقى أقل سوءاً من سائر الأنظمة ـ كما كان يقول ونستون تشرتشل ـ لأن لها حدوداً ترسمها لنفسها ضمن

مبادئ استقلال السلطات والحريات العامة والانتخاب. فالدساتير أو القوانين الأساسية تبقى الحارس والشاهد على حماية هذه القواعد والحريات من الاستئثار والاستبداد[٣].

أما عن الاستبداد والتبديد في عالمنا العربي فحدث ولا حرج. كانت ميزانية الدفاع للولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية تقاربماية مليار دولار. إذا جمعنا مدخول دول الخليج وليبيا والعراق فإن

---

(٣) «الأنظمة الأرستقراطية معرضة بشدة لتغيرات غير محسوسة من خلال استرخاءات متدرجة كما بيناها بصورة عامة بالنسبة لكل الدساتير. ذكرنا أن سبباً غير وجيه قد يكون مصدر اضطرابات. عندما يستغنى عن بند من الدستور يصبح من السهل قبول تغيير آخر أكثر أهمية حتى زعزعة كل البنيان السياسي. هذا ما حصل مثلاً لدستور «توريوم» Thurium حيث كان يوجد قانون لا يسمح بموجبه إعادة انتخاب القائد إلّا بعد فاصل خمس سنوات من الولاية الأولى. لكن بعض أفراد الجيش الشباب من أصحاب الخبرة والوجاهة في وسطهم والشديدي الاحتقار للآخرين، ويقيناً منهم أنهم يصلون بسهولة إلى غايتهم، سعوا في البداية إلى إلغاء هذا القانون بشكل يسمح فيه بالقيادة دون انقطاع. كانوا يظنون على كل حال أن الشعب سيعيد انتخابهم بحماس. وما لبس القضاة الموكلون الحفاظ على القوانين والذين كانوا يسمون أيضاً مستشارين، وبالرغم من ميلهم إلى معارضة هذا المنحى، أن رضخوا لهذا التدبير لإعتقادهم أن هذا التعديل يقتصر على بند واحد وسيحترم المعنيون البنود الدستورية الأخرى. لكنهم عندما أرادوا فيما بعد معارضة تعديلات أخرى لم يعد بمقدورهم المقاومة وانتقل زمام الدولة بكامله إلى السلطة الشخصية لمصلحة الذين سعوا إلى هذه التغيرات».

Aristote, **La politique**, Paris, Librairie Philosophique, J. Vrin, ed 1995, 600 p., 374-375 (V, 7, 1307).

ترجمة الدكتور أنطوان مسرّة، جريدة **النهار**، ١٤ نيسان ٢٠٠٤.

مداخيل النفط لديها فاق هذا المبلغ بأضعاف. ماذا فعلوا بهذه الأموال وكيف صرفت؟

طغمة من الأميين والفاسدين يقررون مصير شعوب وقدرات باستطاعتها أن تغير وجه التاريخ. هل كانت حصلت حرب العراق لولا هذه التوأمة في السلطة بين الجهل والهدر والجريمة؟ ضمن هذه المعادلة التاريخية بين التخلف وسوء التقدير في قلب عالمنا العربي تقام دولة قوامها مهجرون من كل الأعراق فتصبح دولة يخشى جانبها. تمنح الهند والصين تكنولوجيا تفتقران إليها (بمساعدة أميركية طبعاً) بينما نتلهى بالغانيات واغتيال المعارضين والصحافيين والأصهرة[٤].

(٤) لجأ حسين كامل وصدام كامل صهرا صدام حسين برفقة أولادهما وزوجتيهما رغد وريا إلى المملكة الاردنية هرباً من نير صدام وبطش ابنه البكر. جرت محاولات لإعادتهما إلى العراق فتكللت إحداها بالنجاح بشرط أن يعود الفاران إلى بغداد مع عائلتهما والأموال التي حملاها في حقائبهما يوم الفرار لقاء صفح صدام حسين ومنحهما الأمان. فلما عادا إلى العراق عُزلا عن عائلتهما وافتعلت ضدهما مظاهرات أدت إلى اغتيالهما.

٦٦

نحن وأميركا

لا شك بأننا دخلنا كعرب وكمسلمين في معركة متعددة الجوانب مع الولايات المتحدة الأميركية، إضافة إلى أن ما يرتكب من جرائم في فلسطين ـ والتي هي مسؤولة عنها بقدر إسرائيل نفسها ـ دخلت في اجتياحها العراق خضم المعادلة العربية ـ الإسلامية ـ الصهيونية بعناصرها الكونية جميعها. حدد المحافظون الجدد أبعاد معركة العراق (ريتشارد بيرل في كتابه الأخير «كيف نفوز في الحرب على الإرهاب» ٢٠٠٤) وبول وولفو يتز في كل مداخلاته، بأنها على أربعة مستويات: تدمير أسلحة الدمار الشامل للعراق، طمأنة إسرائيل على مستقبلها، ضمان احتياجات أميركا والعالم من الطاقة، نشر الديموقراطية في الشرق الأوسط.

ماذا تبقى من هذه الأهداف السامية للمحافظين الجدد في العراق

وفي العالم العربي؟ أسلحة الدمار الشامل غير موجودة، البترول العراقي لم يعد يكفي، ولعدة عقود، لإعادة تعمير العراق، مستقبل إسرائيل كان مضموناً من غير هذا التورط الأميركي، أما نشر الديموقراطية في العراق والعالم العربي فقد أصبح موضوعاً للتندر.

عندما انتخب شارون رئيساً للوزراء كان يقول بأنه جاء لينشر السلام بين العرب وإسرائيل، وأن الدولة الفلسطينية هي إحدى أمنياته. يجدر سؤال المحافظين الجدد وبول وولفويتز: قولوا لنا أين السلم والسلام أين دولة فلسطين؟

اجتياح الجيش الأميركي للعراق يتضمن من الخطورة ما جعله يوازي أهمية الحروب الكبرى في تاريخ القرن العشرين: الحرب العالمية الثانية، حرب كوريا، حرب فييتنام. بل إنه يتجاوز بعضها أهمية في بعض النواحي. مقارنة هذه الحرب بالحربين الكونيتين الأولى والثانية لتداعياتهما الاقتصادية والسياسية في المنطقة وفي العالم قد تجوز أحياناً.

ما يجب أن نعيه في المرحلة التاريخية التي نعيشها أنها وإن كانت مناقضة لأمنياتنا في عدة وجوه، لا بد لنا من استيعاب مضامينها جميعاً لتجاوزها. علينا التفكير بما سيتبع الانسحاب الأميركي من العراق كي لا يصبح العراق مشكلة بعد التحرير تفوق مشكلته قبله. سترحل الجيوش الأجنبية عن العراق آجلاً أم عاجلاً. ولكن يبقى أن نعرف كيف ندير دفة الحكم فيه كي لا تربح إسرائيل من حرب العراق ما خسرته الولايات المتحدة فيها.

الولايات المتحدة: ما لها وما عليها

إن القرن العشرين الأوروبي يشكل العمود الفقري لكل التفكير الأميركي حول عالم الغد ومصيره.

خاضت الولايات المتحدة الأميركية في القرن العشرين حربين عالميتين بسبب أوروبا وكانت الحرب الأخيرة ـ ضد الفاشية ـ أدهاها. لم تنسَ أميركا الثمن الذي بذلته من الأرواح لإنقاذ دول أوروبا ولا الأرباح التي جنتها منها.

الانعزالية الأميركية ـ من الرئيس مونرو صاحب نظرية «أميركا للأميركيين» إلى ولسون بعد الحرب العالمية الأولى الذي كان له الفضل في إنشاء عصبة الأمم ثم ارغم على مقاطعتها من جراء قرار انعزالي اتخذه الكونغرس ـ لم تطبق فعلاً إلّا حين لم تكن المصلحة

الأميركية تقضي بالتدخل. فالسوق العالمية والمواد الأولية كانت تفرض على الحكومات الأميركية، وباستمرار، سياسات أقل ما يقال فيها بأنها استعمارية المضمون من شواطئ اليابان إلى الصين إلى الشرق الأوسط.

الانعزالية الأميركية هي خرافة يروجها أصحاب هذه النظرية عندما تكون مصلحة الولايات المتحدة في خوض الحروب لم تنضج بعد. انسحب الجيش الأميركي من لبنان عام ١٩٨٤، ومن ثم من موريتانيا بعده، لأنه لم يكن في استمرار التدخل فوائد ومصالح أميركية تفوق التضحيات للاستمرار في المجابهة.

لقد اشتركت الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر ومن ثم في القرن العشرين في جميع الحروب التي شنت في الشرق الأقصى من اليابان إلى الصين إلى كوريا إلى فييتنام، وفي جميع حروب أوروبا العالمية التي تبعتها ثم الحرب الباردة، فتحملت أميركا معظم التبعات فيها. بعد أن طوت الولايات المتحدة وبريطانيا صفحة صراعهما الاستعماري في القرن الثامن عشر، أصبح تحالفهما أمراً حتمياً على امتداد العصور في أوروبا والشرق الأقصى والشرق الأوسط. في أوروبا تلبست أميركا آمال وأهداف بريطانيا في الحربين العالميتين. كما أن الولايات المتحدة استلهمت آمال وأحلام بريطانيا في الشرق الأقصى والأوسط. إن تضامن الرئيس أيزنهاور في حرب السويس عام ١٩٥٦، مع خروتشوف لطلب وقف العدوان على مصر، لم يكن إلّا نوعاً من الحماية الأميركية لبريطانيا وحليفتها فرنسا. التوازن العالمي هو الذي أملى حينئذ على أيزنهاور موقفه من العدوان على مصر أكثر منه سياسة القرصنة الاستعمارية التي قادتها بريطانيا وفرنسا ضد جمال عبد الناصر ومصر.

يبقى أن الحرب العالمية الثانية بما خلفته من ويلات ودمار، كانت الرائد للفكر الأميركي المعاصر في القرن العشرين من والتر لبمان إلى جورج كنان إلى هنري كيسنجر إلى بول وولفويتز: أمثولة القرن العشرين بالنسبة إلى الإنتلجنسيا الأميركية، ولا سيما منهم المحافظون الجدد، هي أن توازن الرعب لا يفضي إلى السلام بل إلى حروب مستمرة. كذلك كانت الحال أثناء الحرب الباردة حيث كاد يؤدي تفاعل الأحداث وفي عدة مرات إلى حرب عالمية ثالثة. في الذهن الأميركي ثلاثة محاذير لا بد من التصدي لها: الفاشية وخصوصاً في الجانب الاضطهادي منها لليهود؛ الشيوعية في أصولها غير الليبرالية في الاقتصاد إلى فروعها الديكتاتورية في السياسة؛ الإرهاب بالمطلق بعد ١١ سبتمبر أكان ذلك لدوافع السلفية الإسلامية كما في بالي، أو لأسباب وطنية كما في فلسطين. لقد دخلت إسرائيل في الذهن الأميركي من الأبواب الثلاثة هذه فأصبح ذلك من مقومات الفكر الأميركي المتطرف دون تمعن لا في الأحقية ولا في الشرعية ولا في الإنسانية وملاحقها المعترف بها في المنظمات الدولية.

إسرائيل هي الثأر من الفاشية واللاسامية؛ وإسرائيل في انتصارها على مصر الناصرية وسورية البعثية حليفتي الاتحاد السوفياتي السابق، قهرت المد الشيوعي في العالم. إسرائيل هي الحليفة الأولى لأميركا لأنها تحارب «الإرهاب» العربي الإسلامي الذي ضرب أبراج نيويورك ويشكل العدو الأول للولايات المتحدة في الحرب الدائرة من الشرق الأوسط إلى الشرق الأقصى.

إن في هذا الدمج لأمور متعددة ليس فقط قصر نظر إنما إقحام لأميركا في حروب كونية حدودها مجهولة، وظلم شعب صغير في فلسطين لا يريد أكثر من التمتع بحقوق سائر الشعوب.

لا ريب في أن المثقفين في أوروبا، كما في سائر العالم قلقون من سلوك الولايات المتحدة وتنظيرات المحافظين الجدد والتي تعكس نفس العداء للعلمانية والمنظمات الدولية من الأمم المتحدة إلى المحاكم الدولية. إن معارضة انتساب أميركا إلى محكمة دولية لجرائم الحرب، ومنعها من محاكمة الجنود الأميركيين، ومعارضة «اتفاقات كيوتو» للبيئة، وعدم الانضمام لمعاهدة حظر الألغام الفردية.. كل ذلك ينمّ عن نوايا لا إنسانية ما برحت أن ظهرت في التعامل الأميركي مع الأسرى من غوانتانامو في كوبا وأبو غريب في العراق. يضاف إلى ذلك أن سياسة الولايات المتحدة في القارة الأميركية التي أعلنها الرئيس مونرو عام ١٨٢٣ لا تشيع التفاؤل، لا سيما إذا تأملنا في نتائجها وما آلت إليه هذه القارة الأميركية من فقر وتعاسة على شتى المستويات. تميزت سياسة الولايات المتحدة في هذه القارة بالسطو على ثرواتها الطبيعية وقمع حركات التحرر فيها أكثر من النزعة إلى السهر على تقدمها وارتفاع مستوى المعيشة لشعوبها. وما نشهده اليوم في أميركا اللاتينية من تقهقر على شتى المستويات لا يجعلنا نتفاءل في ما ينتظرنا إذا أسلمنا العنان إلى أصحاب الأمر والنهي في البيت الأبيض والبنتاغون. ولا شك أن الولايات المتحدة تستحق قيادة تتميز بالواقعية والحكمة والرأفة، على غرار ما كانت عليه أيام فرانكلن روزفلت وجون كيندي وجيمي كارتر وبيل كلينتون، كي يشعر العالم بأن بشراً وليس قراصنة بترول وسلفيين ومهلوسين وكذابين يقودونه.

وهنا يطرح السؤال الكبير: ما لم تفعله أميركا في محيطها القريب لماذا يا ترى ستفعله في بلاد بعيدة عنها كالشرق الأوسط العربي؟

استمرت أميركا في اتباع سياسية السطو على ثروات أميركا اللاتينية

لعشرات السنين، وما زالت سياستها هي نفسها غير آبهة لمصير شعوبها، فلماذا تريد اليوم نشر الديموقراطية والثقافة والتقدم في الدول العربية الإسلامية التي لا يجمعها بها إلّا النفط ومشتقاته؟

الديمقراطية التي تريدها أميركا في الشرق الأوسط هي الديموقراطية التي تحمي إسرائيل من سخط العرب على سياستها الجائرة الإجرامية بحق عرب فلسطين.

من يريد الخير للناس يبدأ بفعل الخير مع أهل بيته. نشر الديموقراطية لا يبدأ في العراق وسورية وإيران بل في دول أميركا اللاتينية قبل غيرها.

٦٨

أميركا وفلسطين

بعد اجتياح جيش الولايات المتحدة للمكسيك عام ١٨٤٨ وجدت قيادته، تلافياً لقيام ثورة شعبية ضدها، أن الانسحاب من العاصمة مكسيكو إلى أقاليم صحراوية من المكسيك مثل كاليفورنيا وتكساس وأريزونا هو الأجدى.

والنتيجة معروفة عن هذا الفصل من التاريخ المزدوج بين المكسيك وجارتها. وهنا يجدر التساؤل: هل أن أميركا ستفعل نفس الشيء في العراق؟

المنطق الذي قاد الولايات المتحدة إلى حماية وزارة النفط العراقية وترك الحبل على غاربه في كل ما تبقى يوم دخولها بغداد، قد يقود الإدارة الأميركية إلى الانسحاب من المدن العراقية غير الآمنة

والانكفاء إلى المناطق الأقل خطراً على أمن جنودها، وهي المناطق الريفية التي تحتوي على آبار البترول.

لذلك من واجب كل عربي أن يضع نصب عينيه أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تفعل في العراق ما لم تفعله في الهندوراس والدومنيكان والمكسيك والأرجنتين. الفضل في نهوض أوروبا ما بعد الحرب العالمية الثانية يعود لأوروبا نفسها وليس للولايات المتحدة مهما حاولت الولايات المتحدة أن تصور لنا نفسها جمعية بر وإحسان. الفضل في نهوض أوروبا كان التربية الأوروبية، المدرسة الأوروبية، العقلية الأوروبية قبل أي شيء آخر.

والأمور تختلف في عالمنا العربي حيث لا بنية تحتية يمكنها استيعاب الرأسمال الأميركي الذي سيحول الإمارات والممالك والجمهوريات إلى شركاء صغار لطواغيت استثمارية عملاقة تهمل جميع مرافق الحياة عندنا.

في المرحلة الحرجة والمريرة التي نمر بها أميركياً وصهيونياً وحضارياً يجب أن نضع نصب أعيننا الحقائق التالية:

١ . الولايات المتحدة هي نتيجة اجتياح مهاجرين أوروبيين لأرض مأهولة تمت إبادة أهلها أو حصرهم في مزارب "reserve" للهنود الحمر. وإسرائيل أيضاً هي نتيجة اجتياح مهاجرين أوروبيين لأرض يقطنها سكان أصليون تَمّ قتلهم أو تهجيرهم أو حصرهم في غيتوات أو reserve عربية كما جرى للهنود الحمر في أميركا.

٢ . اليهود الذين جاؤوا فلسطين القديمة أتوا إليها بفعل إيمان وعوز

واضطهاد. كذلك كانت حال المهاجرين إلى العالم الجديد أي إلى أميركا في القرن السادس عشر وما تلاه.

٣ . بما أن الجزء الذي يؤلف الولايات المتحدة كان بمعظمه مستعمرة بريطانية، فإن انتماء الذين استوطنوا هذا الجزء من القارة الجديدة يعود إلى العنصر الأنكلو ـ ساكسوني وإلى مذهب البروتستانت الذي يعتبر التوراة ملهماً أساسياً للإيمان عندهم. كذلك كانت فلسطين مستعمرة بريطانية قُيض لأوروبيين ينتمون إلى الدين اليهودي، والذين يعتمدون أيضاً التوراة كتابهم، أن يستولوا عليها.

لذلك نجد الألمان والفرنسيين والروس، وحتى البريطانيين العلمانيين يتحفظون بالنسبة إلى السياسة الليكودية تجاه فلسطين بينما الولايات المتحدة تتضامن مع هذا الحزب في تجاوزاته وتطرفه وجرائمه. علماً أن المحافظين الجدد الذين يلهمون الحزب الجمهوري وبالتالي الإدارة الحالية في الولايات المتحدة يعتبرون من حلفاء الصهاينة بلا حدود.

٦٩

لبنان والعروبة

لبنان الحديث رأى النور بعد الحرب العالمية الأولى بقرار فرنسي كما الأردن بقرار بريطاني.

لا شك في أن الفكرة الوحدوية العربية المتمثلة بإبراهيم اليازجي ونجيب العازوري والملك فيصل بن الحسين وميشال عفلق وجمال عبد الناصر هي التي كانت تحمل بذور النهضة لما تتضمنه من قدرات على التطور والإنتاج والصمود، أكان ذلك على صعيد الاقتصاد، أو العلم، أو الثقافة. إلّا أن اقتسام العالم بين الدول الأوروبية المنتصرة في الحرب العالمية الأولى كان المنطق السائد في تلك المرحلة من التاريخ.

استطاع لبنان في زمن طغت فيه الأحادية على دول المنطقة، وبفضل

تفاعله مع الدول المتقدمة، أن يعطي للأمة العربية رعيلاً من المثقفين والمناضلين والمجاهدين لا يستهان بهم. إذا شئنا تلخيص إيجابيات لبنان فلا بد لنا من الاعتراف بأن تعددية مشارب وثقافات طوائفه كان لها الفضل في الحريات الثقافية التي ميزته. كما أن سلبياتها كان من نتائجها الحرب التي شهدناها من عام ١٩٧٥ إلى عام ١٩٩١.

ركائز لبنان متعددة الجوانب طائفياً، وبالتالي ثقافياً وسياسياً، ولها قواعد ثلاث لا مندوحة من الرجوع إليها: القاعدة الأولى أن لبنان التاريخي أوجده الدروز، القاعدة الثانية أن المسيحيين والموارنة بتمددهم الديموغرافي أعطوه حجمه الاقتصادي والإنساني الحالي، والقاعدة الثالثة أن المسلمين بنزعتهم الجهادية وحاجاتهم الاجتماعية أرسوا قواعده باشتراكهم المتميز في معركة الاستقلال ومن ثم معركة التحرير من الاحتلال الصهيوني.

٧٠

العولمة

لقد أصبحت العولمة واقعاً لا مفر منه في القرن الواحد والعشرين بعد سقوط حائط برلين في أواخر القرن الماضي، أي في شهر تشرين الثاني عام ١٩٨٩. كان في العالم دورتان حياتيتان، على حد قول أنطون سعاده، فأصبح له دورة حياتية واحدة ضمن نظام واحد وذلك رغم استمرار الصين وفييتنام وكوبا على العقيدة الشيوعية.

في العالم القديم المعروف في منطقتنا لم تبلغ حضاراته العولمة إلّا في مرحلتيه: اليونانية مع فتوحات الإسكندر، والرومانية التي تكللت بانتشار المسيحية. ثم كان الإسلام من مكة إلى الأندلس إلى الهند. العولمة في العصر الحديث تشمل الكرة الأرضية، وقد تطال كواكب السماء. كان لكريستوف كولمبوس وماجلان الذي دار حول العالم عام ١٥٢٠، الفضل في عولمة العالم بعد الرومان والإسلام. أعطى

الرجلان العولمة مداها على امتداد كوكبنا.

أما العولمة الثانية فقد تمت عند نشأة الصناعة في القرن التاسع عشر: البخار الذي فتح المحيطات للسفن الأوروبية، ثم الكهرباء ـ بانتظار الذرة. القرن التاسع عشر الأوروبي أخضع العالم بوسائله العلمية والصناعية لجنده أولاً ولصناعته ثانياً، فانهارت جميع المنتجات الحرفية من الهند إلى السلطنة العثمانية. انحدر مستوى المعيشة في العالم غير الأوروبي إلى مستويات غير مسبوقة من الفقر والجوع. تبع ذلك استباحة أراضي الدول الأفريقية والآسيوية فأمست الهند «جوهرة» في تاج الملكة فيكتوريا والسلطنة العثمانية «الرجل المريض» في المحافل الدولية. تقود الولايات المتحدة اليوم ـ من أفغانستان إلى العراق ـ حملة مماثلة للتوسع الأوروبي القديم. وهي بإطلاقها ما يسمى «حرية التجارة» تقضي قضاء مبرماً على منتجات الدول الفقيرة. فكما أن الصناعة الأوروبية أفرزت الفقر والحرمان والتهجير ضمن مجتمعات قرن التاسع عشر، فإن حرية التجارة تعيد إلى الواجهة الأساليب والنتائج ذاتها، أي الفقر والحرمان والهجرة لكل ما هو غير الدول الصناعية السبع. وبوادر هذه النتائج ظاهرة للعيان في أميركا اللاتينية «محمية» الولايات المتحدة ومختبر نواياها تجاه عالمنا الأفريقي والآسيوي. كيف لدول أميركا اللاتينية أن تنافس قمح وبندورة وفاكهة الولايات المتحدة المدعومة من الحكومة الأميركية بألوف ملايين الدولار؟ للعولمة شروط من التكافل والتضامن بين الدول والمجتمعات لم تطبقها الولايات المتحدة إلّا ما ندر بسبب نظامها الرأسمالي التنافسي بلا حدود.

وبالتالي فإن العولمة التي لا مفر منها ومفهوم الديموقراطية متناقضان في سياسة الولايات المتحدة تجاه الدول الفقيرة. تعترض الولايات

المتحدة على تصنيع الأدوية التي تملكها الشركات الأميركية من قبل الدول الفقيرة بأسعار متدنية بينما الأيدز والأمراض السارية تفتك فتكاً ذريعاً بمواطنيها.

٧١

أوروبا والحضارة

يتبارى المثقفون الأميركيون في محاسبة أوروبا على أخطائها وجرائمها من هتلر إلى ستالين متناسين أن أميركا كانت وطن الجريمة المفضل (المافيا) وسياسة الإبادة الجماعية من الهنود الحمر إلى هيروشيما.

لسنا في مجال الدفاع عن أوروبا وقد قاسينا الأمرّين منها قبل غيرنا (معاهدة سايكس ـ بيكو ١٩١٦) بل نرغب في وضع الأمور في نصابها.

لأوروبا الفضل في دخول الإنسانية في مرحلة جديدة من تطورها، وما فعلته الولايات المتحدة من منجزات تحسد عليها هو السير في ركاب أوروبا واستثمار منجزاتها.

أما المكابرة في مواقف المحافظين الجدد تجاه أوروبا القديمة، إضافة إلى

الأمم المتحدة، فقد جاءت الرمول المتحركة في العراق لتعيد المصداقية إلى أصحابها.

لقد أخطأت أميركا الحساب في خوضها الحرب ضد العراق مرتين كل واحدة منهما تكفي لخسارة الرهان: فلقد خاضتها مستندة إلى أسباب واهية كاذبة، إضافة بأنها ناقضت يوم خاضت غمارها جميع القواعد الحضارية التي تدعي بأنها حاميتها.

لا شك أن في خلفيات هذه الحرب الاستعمارية النفط كما معتقدات سلفية مناقضة في الشكل، إن لم يكن في الأساس، للمعادلة التي كانت قائمة خلال الحرب الباردة وأعطت ثمارها بفوز أميركي على جميع الجبهات. فبينما كانت العقيدة الدينية هي الحجة التي تتوسلها أميركا لخوض حربها ضد الشيوعية بواسطة المسيحية والإسلام، أصبحت الحجة هي الهدف. وبذلك دخلت الولايات المتحدة منطق الميتافيزقيا والسلفيات كالصهاينة حلفائها و«الإرهابيين» خصومها.

كان الهدف هو قهر الشيوعية بتحالف أقامته أميركا بين الإسلام الممثل بالعرب والمسيحية الممثلة بروما خاصة. أما اليوم فإن الهدف هو ضرب الإرهاب الممثل بالعرب ولجم الإسلام بواسطة تحالف يهودي مسيحي أصولي ضد العرب والإسلام. والمراهنة خطيرة على كل الصعد وليس فقط بمحاربتها المسلمين تحت غطاء محاربة الإرهاب إنما بإشراك اليهود والصهاينة في هذه الحرب وإعلان تحالف غير محدود بينهم وبين أبشع صور هذه المعاداة للعرب والمسلمين كما في فلسطين وفي أبو غريب والفلوجة. «صدام الحضارات» قائم والمسؤول عنه الإدارة الأميركية وتهورها ومغامرتها الاستعمارية في فلسطين والعراق.

٧٢

نابوليون والثورة الفرنسية والعراق

كان كمال جنبلاط يعتبر أن الثورة الفرنسية هي الحدث الأهم في تاريخ الإنسانية. كان يردد دائماً على مسمعي وغالباً متوجهاً إليّ: يجب على العرب كي ينهضوا أن يقوموا بثورة كبرى على الذات كالتي قام بها الفرنسيون عام ١٧٨٩. كان يقول أيضاً أن عودة الفرنسيين إلى الدين بعد ابتعادهم عنه أيام الثورة أعطت الدين أبعاداً جديدة هي أسمى ما في الأديان. انتشرت مبادئ الثورة الفرنسية بفضل نابوليون بونابرت ولكنه كان هو أيضاً من دق أول إسفين في نعشها. فعل ستالين الأمر نفسه بالثورة البلشفية.

يوم دخل بونابرت مصر عام ١٧٩٨ كان جندياً متفوقاً في صفوف الثورة الفرنسية إذ لم يكن قد توج نفسه أمبراطوراً بعد.

المقارنة بين بونابرت وستالين تصح بقدر ما أن دور ستالين في تحرير أوروبا من النازية كان بأهمية حملات بونابرت لإخضاع ممالك أوروبا لأفكار الثورة الفرنسية. يبقى أن من سخريات القدر أن الرجلين لعبا دوراً مماثلاً في القضاء على الثورة التي جاءا إلى الحكم باسمها.

منجزات نابوليون بونابرت لم يقرّ بها الفرنسيون إلّا بعد فترة طويلة من سقوطه لأن حروبه المدمرة كانت قد أفقدت فرنسا زهرة شبابها وأصبحت ولعقود دولة من الدرجة الثانية. محاكمة ستالين على جرائمه المتعددة متوفرة للجميع اليوم لفداحتها، إنما يبقى السؤال ـ إضافة إلى إنقاذ أوروبا من النازية ـ هل أن لستالين قسطاً في إدخال روسيا في عصر الحضارة الأوروبية الحديثة؟ الإجابة عن السؤال تتطلب فترة من الزمن يعاد فيها حساب الإيجابيات والسلبيات كما لنابوليون الذي أرسى بالقانون المدني قواعد فرنسا الحديثة. في الولايات المتحدة اليوم بذور ستالينية وأملنا في أن تتجاوزها الديموقراطية الأميركية. بماذا يمكننا تفسير أنه تلى اجتياح بغداد استباحة متحفها من قبل حثالة الناس، بينما بقيت في مأمن وزارة النفط فيها؟

المسؤولان عما جرى في متحف بغداد سيبقيان وإلى الأبد رموزاً للبربرية الحديثة من جورج دبليو بوش إلى رونالد رامسفيلد، كما بقي بونابرت وشامبليون[1] رموزاً لنهضة مصر القديمة والحديثة.

---

(١) جان فرنسوا شامبوليون (١٧٩٠-١٨٣٢) اكتشف معاني أحرف الخط الهيروغليفي المصري عام ١٨٢٤. كانت حملة بونابرت استقدمت معها من منطقة الرشيد في مصر كتابات في ثلاث لغات على نصب تذكاري موجود اليوم في المتحف البريطاني. هذه الكتابة التي لأحد الملوك البطالسة، بتوليميه الخامس، جعلت شامبوليون بفضل معرفته للغة اليونانية يفك رموز الأحرف المصرية الفرعونية.

الرأسمالية بلا قيود

هزيمة المعسكر الاشتراكي في أوروبا جرت على عدة مراحل. لا ريب أن الذي قاد حملة الخروج من الاشتراكية بمفهومها الديموقراطي ـ الأحزاب الاشتراكية الديموقراطية في أوروبا الغربية ـ كانت مارغريت ثاتشر[1] رئيسة وزراء بريطانيا من عام ١٩٧٩ إلى عام ١٩٩٠. تزامن مع وصول مارغريت ثاتشر إلى الحكم في بريطانيا وانتخاب رونالد ريغان[2] رئيساً للولايات المتحدة ترهل الاتحاد السوفياتي قيادة

---

(١) رئيسة حزب المحافظين عام ١٩٧٥، أصبحت رئيسة وزراء بريطانيا في عام ١٩٧٩ واستمرت في الحكم إلى عام ١٩٩٠. تميز عهدها بالليبرالية الاقتصادية والصلابة على الصعيد الدولي حيث قادت حرباً ضد الأرجنتين من أجل جزر فوكلند.

(٢) حاكم كاليفورنيا من عام ١٩٦٧ إلى ١٩٧٤، انتخب عن الحزب الجمهوري رئيساً للولايات المتحدة عام ١٩٨١. استمر في الحكم حتى=

وعقيدة واقتصاداً. مما أتاح لأميركا أن تقود حملة شعواء ضد المعسكر الاشتراكي من أفغانستان على تخوم الاتحاد السوفياتي إلى الفضاء بواسطة مشروع جهاز دفاع كوني بالصواريخ. تعثر اقتصاد الاتحاد السوفياتي تحت وطأة الحملتين بعدما كان متقدماً على غيره في الستينيات.

فالحرب كانت قائمة في الغرب على الاشتراكيتين الماركسية الشيوعية والاشتراكية الديموقراطية، وانتهت بهزيمة الاشتراكية في شقيها الماركسي الشيوعي من جهة والليبرالي الأوروبي من جهة أخرى.

الأمر يعنينا لأنه يتصل بأوضاعنا ومصالحنا كشرقيين وأبناء مجتمعات في طور النمو. بقدر ما أن المجتمعات المتقدمة الأوروبية تعتبر أن حرية الرأسمال ـ ميلتون فريدمان[٣] ـ هي الكفيلة بتقدم المجتمع بقدر ما ينعكس الأمر على الطبقة العاملة في دولها وعلى الطبقات الفقيرة في العالم الثالث.

فمن لا يرعى أصحاب الدخل المحدود والفقراء داخل مجتمعه ـ نيويورك ولندن وأمستردام وباريس ـ لن يأبه لحالة فقراء العالم.

يقول ميشال روكار[٤] رئيس الوزراء الفرنسي السابق أن الدخل

= عام ١٩٨٩ حين خلفه جورج بوش الأب عن الحزب الجمهوري. تميز عهده على الصعيد الداخلي بالليبرالية وبتخفيض الضرائب، وعلى الصعيد الدولي بالتشدد ضد المعسكر الاشتراكي. تبنى فكرة شبكة الدفاع البالستي.

(٣) نال جائزة نوبل عام ١٩٧٦، من مواليد نيويورك عام ١٩١٢.

(٤) **Le Nouvel Observateur**, no 2035, 6 - 12 November 2003.

الفردي في الدول التي هي في طور النمو قد تراجع إلى درجة ينبئ فيها بكوارث عالمية حتمية. فبينما كان الفارق في الدخل بين أفريقيا وأوروبا بالنسبة إلى الفرد من واحد إلى خمسة عام ١٩٠٠ فقد أصبح من واحد إلى ثلاثين في عام ١٩٧٠ وانهار من ١ إلى تسعين عام ٢٠٠٣.

هذا الفشل في التضامن بين الشعوب رافق وبلا شك انهيار الفكر الاشتراكي على صعيديه الماركسي والديموقراطي. إن ما آلت إليه حالة أفريقيا ـ مرض السيدا والجوع ـ هو والنموذج الحي للتناقض واللامبالاة الذي يتجلى في سياسة الولايات المتحدة خاصة، بعد انهيار الاشتراكيتين الماركسية في موسكو والليبرالية في لندن وباريس.

أما المأساة العربية في هذا الخضم فهي ماثلة للأعين. إذ بينما الطبيعة وهبتنا كل أسباب التقدم يتدنى المستوى المعيشي والحضاري في الدول العربية باستمرار. يقترب هذا المستوى، ما عدا في بعض دول الإمارات ـ الواحات إلى معدل دول القارة السوداء المفتقرة إلى كل شيء.

فكرة القومية العربية وإن كانت مستوردة من أوروبا القرن التاسع عشر، كمفهوم الجمهورية والدستور، فإنها وكسائر مفاتيح الرقي كفيلة بالنهضة بنا إذا قومنا مسارنا وأحسنّا استعمالها. مفهوم القومية، مبدأ الدستور أصبحت مفاهيم عالمية كمعادلات الكيمياء والفيزياء ولا مندوحة من استعمالها للدخول في العلوم الحديثة. نعود فنقول لا يوجد كيمياء أو فيزياء أوروبية وكيمياء أو فيزياء مشرقية، ولا يوجد مدارس أوروبية ومدارس مشرقية ما عدا في اللغة لأن العلوم مشتركة بين جميع الشعوب، وقد شهدنا في القرن العشرين كيف أن الاتحاد

السوفياتي حاول التفرد ببعض المرافق العلمية وفشل. بقدر ما نتواضع في سلّم العلم والعلوم بقدر ما نرتفع في الحضارة. والأمر ينطبق على الأفراد والمجتمعات على حد سواء. مفتاح خلاصنا هو في يدنا. خلاصنا في عقل وزراء التربية في دمشق والقاهرة والرياض وبغداد وبيروت.

فليكن مثلُنا رئيسي وزراء الدانمارك والسويد وليس حكامنا أصحاب البوينغ واليخوت الخاصة. ما الفائدة لأمة يملك قائدها خمسين قصراً وقد شيد خمسين معبداً وليس في رعيته عالم واحد في الكيمياء أو الفيزياء أو الذرة؟

قال الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة عند اختتام المؤتمر الثاني لـ«مؤسسة الفكر العربي» في بيروت في كانون الأول ٢٠٠٣: «لا يمكننا أن نتجاهل حقيقة جلية، وهي أن كل الدول المتحدرة من الحضارات القديمة، والديانات السماوية، والمعتقدات الكبرى الأخرى قد سبقتنا، بكثير، على درب التطور والرفاهية، سواء أكانوا هندوساً، أو بوذيين، أو كونفوشيوسيين، أو يهوداً، أو، طبعاً مسيحيين. كانت قوى التقليد والتجميد تقف ضدهم (المفكرين العرب أولاد النهضة) وتحبط جهودهم في كل مرة. لقد طرح هؤلاء المصلحون، ذوو النظرة المستقبلية، مشاكل الوطن العربي في صيغ لم تتمكن الثقافة المنتشرة آنذاك أن تقبلها»(٥).

---

(٥) فشل النهضة العربية وسببه، المصدر نفسه.

٧٤

المقاومة والإرهاب

محاولة فصل المقاومة للاحتلال عن الإرهاب ضد المدنيين لم تقتصر على أميركا وعلى الغرب بالنسبة إلى الشرق الأوسط بل تعدتهما إلى الفصائل الفلسطينية نفسها. التفاوت بين المنطقين منطق المستعمِر والمستعمَر كان دائماً كبيراً إلى درجة أنه لولا «الإرهاب» ضد المدنيين أحياناً لم يكن للمستعمَر إلّا التسليم للمستعمِر. هل يجب مقارعة جنود المحتل وحدهم أم أنه من الضروري اقتحام داخل المستعمرات للرد على الاحتلال؟ ضرب إسرائيل ضمن حدودها عام ١٩٤٨ هل هو عمل إرهابي أم يدخل في نطاق المقاومة أكان ذلك ضد الجنود والمجندين أو ضد الأبرياء؟ هل يوجد أبرياء في إسرائيل ما دام الاحتلال مستمراً وقتل العزل من الفلسطينيين قائماً على قدم وساق؟ احتارت المقاومة الفلسطينية في إعطاء أجوبة هذه الأسئلة قبل وبعد الانتفاضة الأولى ثم الثانية عندما لجأت إلى السلاح.

ليست الأمور في العراق المحتل أقل تعقيداً مما هي عليه في فلسطين. ما هو الوصف الذي يمكن إعطاؤه لقتل دبلوماسيين أو رجال أعمال أميركان كما في الفلوجة والتمثيل بجثثهم؟ ما الوصف الذي يمكن إعطاؤه لقتل دبلوماسيين أو صحافيين من دول محايدة كاليابان؟ إذا كان الرأي العام العالمي اشمأز من الاعتداء على مكاتب الأمم المتحدة وقتل دي مستيريو ممثلها، فبماذا يمكن وصف نسف مقر الصليب الأحمر في بغداد؟

ما هو الحد الفاصل بين المقاومة والإرهاب؟ أليست كل مقاومة إرهاباً وكل إرهاباً مقاومة؟

في فلسطين صراع بين مغتصب أرض باسم مفاهيم دينية وعرقية تخطاها الزمن، ومقاوم يريد الذود عن أرضه وزيتونه والمياه التي يسقي بها دواليه. إذا كان اغتصاب الأرض وطرد سكانها يبدو في بعض المحافل الدولية مشروعاً فلا مشاحة من أن يصبح رد المغتصب عن سرقة الأرض وشن حرب الإبادة بكل الوسائل ومنها الإرهاب مشروعاً.

طبعاً إن اغتيال تلامذة في مدارسهم وأطباء في مستشفياتهم يبقى عملاً غير إنساني مهما كانت اسبابه ودوافعه. ولكن المطلوب أن تتقيد به إسرائيل أيضاً وهي لم ترتدع عن فعله لا في جنين ولا في نابلس.

من المؤسف أن تكون الجيوش والأمم والحضارات قد لجأت في بعض الظروف إلى خرق المبادئ الإنسانية التي تدّعي الالتزام بها. تعتمدها عندما يخدم ذلك مصالحها وتتجاوزها عندما تصبح هذه المبادئ لا

تخدم مخططها. قتل الأبرياء حرام، واصطياد المارة على الطرق جريمة تثير غيظ الرئيس الأميركي بوش وأعوانه عندما تكون الضحية إسرائيلية. نصّب الجيش الأميركي في الفلوجة على سطوح الأبنية المحيطة بالبلدة قناصين وقتل ما يقارب ستماية مواطن جلهم من النساء والأطفال.

إننا نوافق على استنكار الإرهاب من بغداد إلى منتجع بالي في إندونيسيا إلى الكنيس في اسطنبول إلى أبو سنبل في مصر. ولكن بماذا يمكن وصف ضرب أحياء غزة بواسطة صواريخ طائرات «ف ـ ١٦» ومروحيات الآباتشي بحجة قتل إرهابي يقيم في شقة سكنية؟ كم من الأولاد والنساء والشيوخ يقتل الإسرائيليون يومياً بواسطة هذه الطائرات والمروحيات الأميركية الصنع؟

بماذا يمكن وصف تدمير مدينة درسد الألمانية في أواخر الحرب العالمية الثانية من قبل الطيران البريطاني والأميركي ـ ٢٠٠ ألف قتيل ـ وتدمير هيروشيما وناكازاكي بالقنبلة الذرية؟ ألم يكن سكان هذه المدن من المدنيين الأبرياء؟ الفلسطيني الذي يفجر نفسه في حافلة للركاب مجرم ـ وهو يضحي بحياته في سبيل قضيته العادلة ـ أما الطائرة والمصفحة التي تهدم شارعاً سكنياً بكامله في غزه أو نابلس فإنها تحمل بين جناحيها رسالة حضارية وفي فوهة مدافعها كلمات حب.

إن الذي يجري اليوم في فلسطين هو أعمال حربية من الجهتين لا تحترم فيها ـ ومن الجهتين ـ أي اعتبارات إنسانية أو أخلاقية. علماً بأن المعتدي هو إسرائيلي يلبس قفازات ويعتمر دروعاً أميركية الصنع لاصطياد المواطنين العزّل.

وليس من الصدف أن يبرز اثنان من صقور «المحافظين الجدد»[١] ليقولا بأن رهاني البنتاغون والبيت الأبيض قد سقطا الأول تلو الآخر في العراق: الأول أن تأتي قوات دولية تحل مكان القوات الأميركية، والثاني أن القوات العراقية كانت تستطيع أن تحل مكان القوات الأميركية لأن بعض الأعمال الإرهابية ـ يشترك فيها مجندون عراقيون.

يوم اجتاز الجنرال الألماني فون باولس نقطة كالاش ودخل مدينة ستالينغراد ـ فولغوغراد اليوم ـ في شهر أيلول/سبتمبر ١٩٤٢ كان يقود حملة قوامها مليون جندي و ٥ آلاف مجنزرة و٣ آلاف طائرة وتاريخ أسطوري من الانتصارات العسكرية. بدت المدينة ساقطة عسكرياً حتى أقدم جيش الاحتياط بقيادة الجنرالين روكوسوفسكي وايرمنكو قوامه القوزاق على مهاجمة الجيش الإيطالي الذي كان حليف هتلر في الحرب العالمية الثانية ومهمته حماية خطوط إمداد الجيش الألماني. انهزم الطليان أمام الهجوم في منطقة كالاش فأحكمت الكماشة على الجيش الألماني المتواجد في ستالينغراد.

نورد هذه المرحلة الفاصلة من تاريخ الحرب العالمية الثانية، لنقول بأن الضربة القاضية للخصم تكون دائماً في نقطة الضعف عنده وليس في مركز القوة لديه. قطع طرق الإمداد يأخذ غالب الأحيان وجهاً إرهابياً، إلّا أنه لا مشاحة من اقتناص الفرص في النقاط الضعيفة للعدو: نسف قطار يحمل مواطنين أبرياء إنما بين ركابه ضباط نازيون

---

(١) وليم كريستول وروبرت كاغان «ويكلي ستاندرد» ـ **جريدة «النهار»**، ٧ كانون الأول ٢٠٠٣.

ألمان كان في نظر الغستابو[٢] إرهاباً بينما كان في نظر الشعوب الأوروبية عملاً بطولياً للمقاومة ضد العدو.

ما يجري في فلسطين يقيّمه شمعون بيريز[٣] على أنه خطأ من الليكود يمكن تصحيحه بحكم حزب العمال، بينما لا يرى نعوم شومسكي في كل ما يجري على أرض فلسطين إلّا مشروعاً استعمارياً تلعب فيه إسرائيل دور الشرطي المتقدم للامبريالية الأميركية[٤].

والتصميم الأميركي على البقاء في العراق بأي ثمن كان ـ معاهدة تحالف مع الحكومة المقبلة ـ تتضح معالمه من يوم إلى آخر ويعطي لاجتياح العراق حجمه الحقيقي، إضافة إلى ما جرى في جورجيا أواخر تشرين الثاني ٢٠٠٣ حيث أقصي شفرنادزه[٥] عن الحكم.

---

(٢) البوليس الألماني المسؤول عن تصفية المعارضين في ألمانيا ثم «الإرهاب» في أوروبا المحتلة ثم اليهود والغجر إلخ.

(٣) **Un temps pour la guerre, un temps pour la paix,** R. Laffont, Paris, 2003.
«يجب أن نضع نصب أعيننا في تفتيشنا عن السلام أنه لا يحق لنا أن نسيطر وأن نحكم شعباً آخر»، ص ١٣.
«علينا أن نقاوم الإرهاب وعلينا خاصة أن نتخلص من الحالة التي أوجدته. ولذلك يجب علينا الاهتمام بجذوره وليس فقط بمظاهره الرهيبة»، ص ١٧.

(٤) نعوم شومسكي، **Le profit avant l'homme** المصدر نفسه، من ص ٨١ إلى ١٠١.

(٥) إدوارد شفرنادزه وزير خارجية الاتحاد السوفياتي من عام ١٩٨٥ إلى ١٩٩٠. أصبح رئيساً للمجلس التنفيذي لجمهورية جيورجيا عام ١٩٩٢ ثم رئيساً للجمهورية عام ٢٠٠٠.

حطّ على أثر ذلك، وفي ٩ كانون الأول ٢٠٠٣، وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد في أذربيجان واجتمع مع الرئيس إلهام علييف ومسؤولين في وزارة الدفاع الأذرية ليبحث معهم في مشروع نشر قوات أميركية في أذربيجان لحماية حقول النفط وخطوط الأنابيب التي تنقله إلى الأسواق الغربية.

وكان مساعد رئيس أركان القوات الأميركية في أوروبا الجنرال تشاك فالد قد لمح إلى أن جورجيا قد تصبح قاعدة عمليات متقدمة في إطار مراجعة الأسلوب الذي تنتشر فيه القوات الأميركية في العالم، نظراً إلى موقعها الجغرافي الذي يؤمّن أقصر رحلات إلى الشرق الأوسط وروسيا والصين(٦).

وقد أعلن وزير الدفاع الأميركي رامسفيلد في كابول أوائل كانون الأول ٢٠٠٣ أن الولايات المتحدة لن تنسحب من أفغانستان حتى بعد إجراء الانتخابات النيابية.

استطاعت بعض الدول أثناء الحرب الباردة أن تفوز بالسلاح النووي كالصين والهند وباكستان وإسرائيل. ولكن تماسك الدول داخلياً يلعب دوره في قدرتها على حماية استقلالها قبل أي أمر آخر. سقط الاتحاد السوفياتي من الداخل قبل أن يسقط عملياً في ساحة المجابهة مع الولايات المتحدة ـ أما باكستان فقد مشت رغم قدراتها النووية في ركاب الولايات المتحدة لضعف تركيبتها الداخلية واهتزازها المستمر. بقيت الصين ومحورها في مأمن من الهيمنة الأميركية بقدر ما استطاعت تطوير اقتصادها متكيفة مع مقتضيات العصر. اختارت

---

(٦) جريدة النهار، نقلاً عن رويترز ـ و ص ف.

الهند بدورها السير في الركاب الأميركي بعد سقوط حليفها ومورد سلاحها الاتحاد السوفياتي خصوصاً أن «الإرهاب» و «الإسلام» يشكّلان بالنسبة لها في كشمير مشكلة تقارب مشكلة «الشيشان» بالنسبة إلى موسكو.

٧٥

اليسار الإسرائيلي وأوروبا

كان شمعون بيريز[١] حاضراً في المنعطفات الأساسية من تاريخ المنطقة منذ عهد بن غوريون أول رئيس وزراء لدولة إسرائيل إلى أرييل شارون. شمعون بيريز من الذين يضعون رجلاً في الحقل ورجلاً في الفلاحة، يؤيد شارون ما دام يفلح في مخططه التدميري الاستعماري ويعارضه حيثما يكون هو وفريقه الحل الآخر للأزمة في إسرائيل والمنطقة اذا تفاقمت أمورها. في كتابه المذكور آنفاً يعيدنا بيريز إلى الماضي البعيد والقريب لتذكيرنا أن دولة إسرائيل أقامها رجال علمانيون ـ بن غوريون على رأسهم ـ وإن كانت التوراة مصدر إلهامهم جميعاً. يمكن إسرائيل أن تكون في مسيرتها وحكمها دولة علمانية. ومع ذلك تلعب العقائد ورجال الدين فيها دوراً

(١) **Un Temps pour la guerre un temps pour la paix** المصدر نفسه.

«إرهابياً» يبرر الاستيطان والاستبداد وقتل السكان الأصليين في فلسطين. لأن المشروع في أساسه استعماري علماني أوروبي خطوطه المتقدمة على المسرح هم رجال دين كما كان يفعل الاستعمار الأوروبي القديم: يرسل رجال الدين ولكن يسير على خطاهم الجند وهم اللاعبون الأساسيون. هذا علماً بأن الخطر موجود بالنسبة لنا من الموقعين: الإلهام العلماني، والإيمان التوراتي. لأن كليهما يؤديان إلى النتيجة نفسها وهي أن فلسطين لليهود. أما اعتقادنا بأن الأصولية السائدة اليوم في أوساط الحكم في الولايات المتحدة تبرر أصوليتنا وسلفيتنا فهو اعتقاد خاطئ من الألف إلى الياء. جورج بوش وأعوانه الأصوليون يقودون دولة في خلفياتها العلم والتعليم الأوروبي وشواهد علمية حضارية فائقة الأهمية من جامعات إلى مختبرات إلى كاب كندي. أما نحن فإننا نفتقر إلى كل ذلك وعلينا أن نبدعه من الأساس: الجامعة والمختبر والمجتمع الذي ينتج العلماء الذين بدورهم ينتجون كاب كندي ومختبرات مكافحة الإيدز. فلهذا السبب لا يحق لنا السماح بإعادة عقارب الساعة إلى الوراء بإيصال سلفيين أمثال جورج دبليو بوش إلى الحكم عندنا وقد تجاوزته جميع الأمم والحضارات بل أصحاب رؤية مستقبلية على غرار ما كان عليه الإسلام في القرن السابع ميلادي من روح إقدام وثورة مجتمعية.

من المعروف أن شمعون بيريز هو الذي فاوض فرنسا عام ١٩٥٦ لإنشاء مفاعل ديمونا النووي في النقب. من جهة أخرى فلقد ساعدت فرنسا العراق لإنشاء مفاعل «تموز» الذي دمره الطيران الإسرائيلي عام ١٩٨٢. اليسار الفرنسي (غي موليه)[٢] الذي تعاون

---

(٢) (١٩٠٥ ـ ١٩٧٥) أمين عام الحزب الاشتراكي من عام ١٩٤٦ إلى عام ١٩٦٩، رئيس مجلس الوزراء من ١٩٥٦ إلى ١٩٥٧.

مع أنطوني إيدن[٣] في الهجوم على السويس عام ١٩٥٦ أعطى إسرائيل مفاعلها النووي ديمونا. واليمين الفرنسي جيسكار ديستان[٤] أعطى العراق مفاعله النووي «تموز» الذي دمره مناحيم بيغن[٥].

يقول بيريز إنه لولا ديمونا لما كانت أوسلو. وبالتالي يعتبر أن أوسلو كانت انتصاراً إسرائيلياً بفضل قوة إسرائيل النووية.

بهذا القول يضع بيريز اتفاقات أوسلو[٦] في موقع يجعل القلق يدب فينا مبرراً بذلك موقف إدوارد سعيد والفصائل الفلسطينية المعارضة لفتح. هل كانت اتفاقات أوسلو انتصاراً إسرائيلياً إلى درجة أن بيريز اعتبرها كنتيجة لتفوق إسرائيل علينا بفضل مفاعل ديمونا؟ الذي يبدو بعد هذا الجدل المستمر حول اتفاقات أوسلو، أن اليسار الإسرائيلي فتح الضفة لعرفات بشرط أن يفتح عرفات دفاتره للإسرائيليين. خذ شبه دولة وأعطنا لوائح بأسماء أجهزتك ومقاوميك وحلفائك. لا شك أن الثعلب أبو عمار لم يعط كل شيء بل النذر اليسير مما فرض عليه إعطاؤه ولكنه لم يأخذ بالمقابل شيئاً. ما يشفع به انهم

---

(٣) (١٨٩٣-١٩٧٧) وزير دولة لعدة مرات ابتداء من عام ١٩٤٦ ثم رئيساً للوزراء من عام ١٩٥٥ إلى ١٩٥٧ حيث أطاحت به حرب السويس.

(٤) مواليد ١٩٢٦، وزير مالية لعدة مرات ابتداء من عام ١٩٦٢ ثم رئيساً للجمهورية من عام ١٩٧٤ إلى عام ١٩٨١.

(٥) (١٩١٣-١٩٩٢) رئيس للوزراء من عام ١٩٧٧ إلى ١٩٨٣، قاد الحملة ضد لبنان عام ١٩٨٢ بعد أن وقع في كمب ديفيد وثيقة السلام مع أنور السادات عام ١٩٧٩.

(٦) اتفاقات حول مستقبل الضفة وغزة عقدت في مدينة أوسلو ابتداء من عام ١٩٩٢ بين منظمة التحرير واليسار الإسرائيلي أطاح بها اليمين الإسرائيلي بعد فوز الليكود في انتخابات عام ٢٠٠٢.

اتهموه بالكذب ومساندة المقاومة وإخفاء الحقائق عنهم والإعداد لقيام دولة بكل أجهزتها وبإنشاء بوليس ـ جيش ومؤسسة مخابراتية يطالبونه بتسليمها وما زالوا.

المسؤولون الأوروبيون يعرفون أن أوسلو كانت في الكم والشكل عملية لا يستهان بها من الكذب المتبادل. إسرائيل تعد الفلسطينيين بشبه دولة أو بلديات، وعرفات يقبل العرض بانتظار أن يتجاوز بنود الاتفاق في أول فرصة سانحة. أجهض شارون مشروع البلديات خشية من مشروع البلد لأن المشروع الإسرائيلي يشمل كل فلسطين بما في ذلك الضفة. أميركا الأصولية التوراتية أخذت جانب إسرائيل بلا حدود، بينما أوروبا التي أعطت يهودها الذين شردتهم أرض الغير في فلسطين، منحت لنفسها مجالاً للتفكير في القضية من جميع جوانبها. الأكثر تعبيراً عن هذا الملل الأوروبي من السياسة ـ الاستيطانية القمعية الإسرائيلية والاسترسال الأميركي في مؤازرة هذا الاعتداء كان هوبير فدرين الوزير الفرنسي السابق للخارجية، ثم دومنيك دو فيلبان وزير الخارجية في العهد الثاني لولاية جاك شيراك. إلّا أن مقالات ومداخلات وكتب فدرين كانت أشد وقعاً لأسباب تعود إلى ممارسته السياسية الأطول خاصة في عهد الرئيس فرنسوا ميتران.من خبرته الطويلة في أروقة الكي دورسيه والأمم المتحدة والرئاسة الفرنسية ومطالعاته السياسية المتشعبة، توصل فيدرين إلى استنتاجات لا يسعنا وصفها لا بالمتفائلة ولا بالمتشائمة بل بالواقعية إلى حد ما. وقد قال لجريدة «النهار» على أثر اشتراكه في مؤتمر «استشراف المستقبل العربي» الذي نظمته مؤسسة «الفكر العربي» في ٨ كانون الأول ٢٠٠٣ ما يستاهل التوقف عنده[٧].

(٧) اعتقد أن الموقف الأوروبي اليوم سليم وعادل، إلّا انه يفتقر إلى القوة=

يلتقي فدرين مع ثوابت كيسنجر بأن الهيمنة الأميركية على مقدرات العالم الغربي كانت راسخة الجذور منذ بداية القرن العشرين وخاصة خلال وبعد الحرب العالمية الثانية، وأن دور الاتحاد السوفياتي كمنافس لهذه الهيمنة اتخذ حجماً كونياً لفترة أربعين سنة على الأكثر، أي مع تفجير أول قنبلة ذرية سوفياتية بعد الحرب العالمية الثانية إلى سقوط حائط برلين.

يقول فدرين أن ونستون تشرتشل رغم نجوميته كان قليل التأثير على قرارات روزفلت الذي كانت بيده وحده ترسو قرارات المبادرات الحربية والسياسية. كيسنجر، الذي هو ميال إلى وجهات نظر تشرتشل المتشددة نحو ستالين، يبرز دور روزفلت المتسامح مع ستالين ونتائج هذا التساهل الروزفلتي على مصير أوروبا الشرقية أولاً والتوازن الدولي ثانياً فيدينها.

= العملانية ليفرض نفسه في اللعبة. لأن الإسرائيليين لا يريدون أن يلعب الأوروبيون دوراً، ولأن الأميركيين لا يريدون أن يتدخل فريق آخر في الموضوع لأنهم يفضلون فرض رأيهم. واليوم، تدعم إدارة الرئيس بوش سياسة تكتل «ليكود»، القائمة على القول أننا «لا نفاوض إرهابيين». وهو مبدأ تم تطويره لمنع المفاوضات.

لحسن الحظ، هناك بعض الإسرائيليين الشجعان في معسكر السلام بدأوا يرفعون رؤوسهم. والمهم جداً أن لديهم الشجاعة لمواجهة عقيدة (رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون)، والعودة إلى عقيدة (رئيس الوزراء الإسرائيلي الراحل إسحق رابين)، ومفادها «أننا سنواصل مسيرة السلام كأن الإرهاب لم يكن موجوداً». هؤلاء ليسوا في الحكم وليسوا رسميين، غير أن مبادرتهم قد تكون حرّكت شيئاً ما في الرأي العام الإسرائيلي. فميزان القوى العالمي اليوم قاسٍ، والمفتاحان الوحيدان اللذان قد يؤديان إلى تغيير ما، هما الرأي العام الإسرائيلي والرأي العام الأميركي.

(**النهار**، ٨ كانون الثاني ٢٠٠٣).

يعتقد فدرين أنه بما تتمتع به الولايات المتحدة من قدرات «قوية جداً تفرض سياستها رغم كل شيء ورغم كل المعارضات». بالنسبة إلى العرب والقضية الفلسطينية، يقول فدرين إن أوروبا لا تستطيع شيئاً يذكر وأن العرب المناهضين للسياسة الأميركية حظهم الوحيد هو التأثير على الرأي العام الأميركي أو الإسرائيلي، وما «وثيقة جنيف» التي جرى توقيعها من قبل اليسار الإسرائيلي ومنظمة التحرير - يوسي بيلين وياسر عبد ربه - دون اعتراف إسرائيلي - فلسطيني رسمي بها أواخر عام ٢٠٠٣ إلّا محاولة جديدة في هذا السبيل.

كلام فدرين سبق الاتفاق الذي جرى بين بوش وشارون في ١٤ نيسان ٢٠٠٤ الذي يقضي بعدم عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم وتشريع المستوطنات في الضفة، مما يخالف جميع قرارات الأمم المتحدة ويدق جرس الحزن على كل الحلول المنصفة لقضية فلسطين حتى إشعار آخر.

٧٦

سقوط الممالك والأمبراطوريات

بالعودة إلى أرنولد توينبي[١] ونظرته الشمولية إلى الأمم والحضارات لا بد لنا من الإقرار أن سقوط الأمبراطوريات يتسم بطابع الكوارث والفواجع الإنسانية، ولم يتميز عن ذلك بشيء سقوط المعسكر الاشتراكي في أواخر القرن العشرين. زعزعة روما كانت النذير بقدوم البرابرة واعتزال الإثنيات والقبائل والشعوب وراء حصون الإقطاع فتماهت كلمات تراجع الحضارة وعصر الظلمات مع الفترة التي تلت في أوروبا سقوط روما بيد البرابرة.

سلبيات المعسكر الاشتراكي يجب ألا تنسينا أن سقوطه جرَّ الويلات على معظم دول أوروبا الشرقية من يوغوسلافيا القديمة إلى معظم

(١) **L'histoire,** المصدر نفسه.

دويلات الاتحاد السوفياتي بما وراء الأورال.

ولا يسع المرء إذا نظر بتجرد إلى حال دول هذه المنطقة، بما في ذلك بيولوروسيا وأوكرانيا، أن يتساءل: هل كان حقاً حال شعوب هذه الدول في عهد السوفيات أسوأ مما هو عليه اليوم؟

لا تنطبق مقولة أن انهيار المعسكر الاشتراكي كان انتقالاً من السيئ إلى الأفضل إلّا بتحفظ، إذ لا يشذ عن قاعدة الأسوأ سوى حال ألمانيا الشرقية وبولونيا وليتوانيا وأستونيا (تشيكوسلوفاكيا القديمة) بفضل تجذر المدرسة الأوروبية الحديثة في مجتمعهم.

بعد الحرب العالمية الثانية استطاعت دول أوروبا النهوض بنفسها، أكان ذلك في أوروبا الغربية أو في المعسكر الاشتراكي من روسيا إلى يوغوسلافيا. لا شك في أن دور الولايات المتحدة كان محورياً في النصر على النازية كما في نهضة أوروبا الغربية، علماً أن الاتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية استطاعت أن تتخطى الصعاب فتواكب الحضارة الغربية وإن بتضحيات فائقة. فليس من مرجع واحد بين أعوام ١٩٥٠ و١٩٩٠ يصنف الاتحاد السوفياتي أو دول شرق أوروبا بـ«العالم الثالث» ما عدا ألبانيا أو بلغاريا على الأكثر. بينما أصبحت هذه الدول اليوم في مصاف الدول المتخلفة.

روما والولايات المتحدة والإسلام

في عام ٣١٣ أعلن الأمبراطور قسطنطين المسيحية ديناً شرعياً للأمبراطورية. في عام ٣٦٠ حاول الأمبراطور الروماني جوليان أن يعيد الوثنية إلى سابق عهدها معارضاً الدين الجديد.

حاول جوليان في محاربته المسيحية إعادة بناء معبد سليمان لليهود في فلسطين نكاية بالمسيحيين. يقول إدوارد جيبون[1] بأن أساطير ذلك الزمن صورت للناس بأن النار هبت من الأرض وابتلعت البنائين الوثنيين واليهود.

(١) **Decline and fall of the Roman Empire,** Tr. Fr. Robert Laffont.

ماذا يفعل غير ذلك في القدس اليوم جورج دبليو بوش متعاوناً مع أرييل شارون؟

يلعب المحافظون الجدد دور الأمبراطور جوليان بضلوعهم في وثنية جديدة ـ هاجوج وماجوج إلخ. من السفسطات السلفية ـ متجاوزين حقائق تاريخية تتصل بكنيسة القيامة للمسيحيين والجامع الأقصى للمسلمين. كيف تستطيع أوروبا ـ وحتى الولايات المتحدة كحضارة علمانية غربية ـ أن تنظر بعين اللامبالاة إلى تبديل معالم أماكن عبادة تاريخية هي تراث ثقافي للإنسانية جمعاء. ألم نقم الأرض ونقعدها عندما تجرأ الطالبان على تدمير تمثال بوذا العملاق في أفغانستان؟ فلماذا إذاً يسمح للصهاينة بتغيير معالم أماكن العبادة في فلسطين؟

إن قضية فلسطين والطغيان الذي رافق مراحلها من حروب جائرة وانهزامات مدبرة تجعل الإنسان العربي والمسلم يستفيق على واقعه المرير وعلى من كان السبب في ذلك. ما يسمى بالإرهاب العربي محكوم بالاستمرار ما دام الطغيان الأميركي ـ الإسرائيلي يصمّ الآذان عن كل ما هو غير صهيوني. هل أن الولايات المتحدة عاجزة عن إنصاف العرب وعن الالتقاء مع المسلمين كما سبق وفعلته أيام الحرب الباردة؟ ما الفائدة لها كدولة عظمى أن تعادي ٣٠٠ مليون عربي ومليار و٢٠٠ مليون مسلم لمصلحة أتباع دين كسائر الأديان؟

يقول زبغنيو بريجنسكي[٢] أن السلطة في واشنطن خلال عهد بوش

---

(٢) في عهد الرئيس رونالد ريغان لعب زبغنيو بريجنسكي دوراً مهماً في التخطيط للتصدي للاتحاد السوفياتي في أفغانستان بالتعاون مع المملكة العربية السعودية وسائر الدول الإسلامية. في ٢٠٠٤/٤/٣٠ حاورته محطة التلفزيون «العربية» حول سياسة جورج دبليو بوش في العراق.

الابن يمكن تحديدها بأربعة مواقع قوى:

١ . الرئيس جورج دبليو بوش الذي ينطلق في تفكيره من توجهات لاهوتية.

٢ . ديك تشيني نائب الرئيس ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد اللذان يتمحور تفكيرهما حول البترول وأهميته في اللعبة الدولية. وأن توجهاتهما الاقتصادية تدفعهما إلى اعتبار الحملة التي تقودها الولايات في العراق تفسح في المجال لإمساك الولايات المتحدة بمفاتيح الاقتصاد العالمي.

٣ . المحافظون الجدد الذين يتمحور تفكيرهم حول إسرائيل وأمنها ومستقبلها.

٤ . الأصوليون المسيحيون الذين ينظرون إلى الشرق الأوسط على أنه موقع للمعركة الفاصلة بين الخير والشر، مما يجعل من تضامنهم مع إسرائيل مفتاحاً لتاريخ مستقبل خرافي.

ينظر بريجنسكي إلى خيارات الإدارة الأميركية الحالية نظرة يكتنفها التشاؤم الشديد إذ يعتبر محاولاتها لإرساء أمن في العراق مستحيلة ما دامت لا تسعى جدياً إلى حل المشكلة الفلسطينية. وباعتقاده أن الرسالة التي سلمها بوش إلى شارون في ١٤ نيسان ٢٠٠٤ «مشينة» للولايات المتحدة، وأن الشرق الأوسط لا بد غارق في أزمات لا نهاية لها.

الإرهاب

لا ينفرد نعوم شومسكي[1] بالادعاء أن الولايات المتحدة هي أعظم دولة إرهابية في العالم الحديث. يشاطره الرأي إدوارد سعيد ونورمان ميلر والعديدون من المفكرين الأميركان والأوروبيين. يورد شومسكي بالتفصيل ما أقدمت عليه الـ "CIA" من أعمال إرهابية في أميركا اللاتينية ودول آسيا والشرق الأوسط بالتعاون مع إسرائيل. لا شك أن إرهاب الأفراد يبدو هزيلاً أمام إرهاب الدول: الاستعمار القديم، هتلر، ستالين، الـ CIA.

إلّا أن محاسبة الولايات المتحدة وحدها لا تكفي لتصفية حساباتنا مع الغرب لأن الولايات المتحدة لم تنفرد بهذا الإرهاب، إذ سبقتها

(١) **Pirates and empereur**، المصدر نفسه.

إليه بريطانيا وفرنسا. ولكن ذلك لا يعطينا براءة لأعمال غوغائية نقوم بها ولها طابع التخلف والجهل، وخصوصاً لجهة انعدام فوائدها على صعيد النتائج في الربح والخسارة وعلى مستوى تشويه صورتنا كعرب وكمسلمين في العالم.

علماً أن الادعاء بأن الولايات المتحدة كانت السند الأكبر لهذا الإرهاب الذي انقلب عليها كانقلاب السحر على الساحر لا يعفينا أيضاً، كعرب وكمسلمين، من مسؤولياتنا بقدر ما يديننا مرتين. لمحاربة الاتحاد السوفياتي في أفغانستان مدعين على أنه مقاومة ضد الظلم والإلحاد ولمحاربة أميركا والغرب بشكل يضعنا في موضع المجرم العادي والإرهابي الكريه بدلاً أن نكون في موقع البطل المقاوم كما في فلسطين. والحقيقة أننا مذنبون لتخلفنا عن ركب الحضارة وليس لأمر آخر وهو الذي سمح للولايات المتحدة أن تستعملنا مرتين الأولى كمرتزقة ضد أعدائها والثانية «كإرهاب» عالمي يجب تصفيته خدمة للإنسانية.

يوم كان يعتدي السود في روديسيا على المستوطنين البيض لم يكن أحد لا في أميركا ولا في أوروبا يؤيد هذه الاعتداءات الإفرادية أو الجماعية، إلّا أنه لم يكن أيضاً أحد يستشيط غضباً ضد هؤلاء «الإرهابيين» السود الذين استبيحت أرضهم فأقيمت فوقها دولة زاهرة مزدهرة ألّا وهي أفريقيا الجنوبية البيضاء.

استطاعت أفريقيا الجنوبية البيضاء أن تمتلك القنبلة الذرية كإسرائيل، وأن تقيم صناعة وزراعة تحسد عليها، كإسرائيل أيضاً، إنما بقيت وصمة عار التمييز العنصري تلاحقها في أميركا وأوروبا.

بقي الظلم ظلماً حتى انهار الظلم واسترد السود حقوقهم. من في عالم اليوم يبكي دولة أفريقيا الجنوبية البيضاء المزدهرة القادرة الرائدة؟

عندما أصبحت الجزائر مستعمرة فرنسية عام ١٨٣٠ نزح إليها الفرنسيون بأعداد وفيرة إضافة إلى الإسبان والطليان واليهود وازدهرت فيها المستوطنات.

اندلعت الثورة الجزائرية بعد الحرب العالمية الثانية وكان معظم الفرنسيين ينظرون إلى المقاومة الجزائرية على أنها «إرهاب» تشاطرهم الرأي معظم الدول الأوروبية.

ما يُرتكب في فلسطين اليوم هو أفدح بمرات مما جرى في أفريقيا الجنوبية والجزائر. إذ تعتمد فيها سياسة التهجير والقتل والاستيلاء على المساكن المأهولة بعد طرد سكانها.

٧٩

الاستعمار وحقيقته

تحدث عن الناس ولا تتحدث عن نفسك. كن مع الناس ولا تكن مع ذاتك.

احترم الناس بما هم فيه ولا تحترمهم بما هم عليه. الناس هم كل شيء. وما تبقى فهو الوثنية.

الناس هم العزة. الناس هم الكرامة. ارتفع بالناس ولا ترتفع عليهم. لا تحسب نفسك رأس الهرم لأنك حجر في هرم من الحجارة.

يقول إدوارد سعيد[١] متضامناً مع نعوم شومسكي وفرانز فانون

---

(١) **Culture et Imperialisme**، المصدر نفسه.

وجورج لوكاش وألبير ممي[٢] أن الاستعمار في القرن العشرين وما قبل، كان يتجلبب بلباس الحضارة، بينما هو آلة للاستعباد والقتل والإبادة وتبديل شخصية الآخر لعله يرضى بالعبودية. سلبيات الاستعمار عند شومسكي وسعيد لا حدود لها.

بالنسبة لنا كعرب وكمسلمين، تبقى ثورة الجزائر ضد الفرنسيين هي المنارة والمثل لمقاومة المستعمر. علماً بأن ما كابدته شعوب العالم الثالث من المستعمرين من الهند إلى إندونيسيا إلى الفيليبين مأساة إنسانية كبرى إضافة إلى جريمة الرق ضد السود في أفريقيا. في مجال محاسبة الاستعمار القديم، بما له وما عليه، لا بد من الإقرار بالأمور التالية:

١ . لعب الاستعمار دوراً قذراً في خطف السود من أفريقيا ثم تحويلهم إلى عبيد في سوق نخاسة عالمية.

٢ . كان للتحدي الاستعماري لليابان والصين انعكاسات إيجابية تجلت في انخراطهما ضمن الدورة الحضارية العالمية ونشأة مجتمعات متقدمة مستقلة خلاّقة.

٣ . حمل الاستعمار معه الظلم والاستبداد لدول متعددة ولكنه أتاح

---

(٢) فرانز فانون Frantz Fanon (١٩٢٥ ـ ١٩٦١)، طبيب نفساني اكتسب شهرة عالمية في كتاباته المناهضة للاستعمار وتأييده للثورة الجزائرية.

ـ جورج لوكاتس György Lukacs (١٨٨٥ ـ ١٩٧١) ناقد أدبي ومؤرخ في الاشتراكية. عضو في الحزب الشيوعي الهنغاري. عارض التدخل السوفياتي ضد الثورة في بودابست عام ١٩٥٦.

ـ ألبرت ممي Albert Memmi كاتب يهودي من مواليد تونس ١٩٢٠، له مؤلفات متعددة في مواضيع فلسفية وحول مناهضة الاستعمار.

لمجتمعاتها فرصة الدخول في العالم الحديث عن طريق المدرسة أو المصنع أو الجامعة.

٤. إن المجتمعات التي بقيت بعيدة عن متناول الاستعمار ولم يتسن لها الاتصال بالنهضة الأوروبية بقيت في معظمها مجتمعات في طور التنمية.

لماذا يعتبر المؤرخون أن حملة بونابرت على مصر عام ١٧٩٨ حملت معها بذور نهضة مصر والشرق العربي؟ لماذا شكلت الحملة العسكرية الأوروبية على الصين عام ١٩٠٠ في ما يدعى حرب «البوكسر» منعطفاً في تاريخ الصين الحديث؟ كان يحكم الصين الأمبراطورة سيكسي السلفية فانهار حكمها إذّاك. كانت الصين أمبراطورية شبه دينية مغلقة على نفسها فاصطدمت بالاستعمار الأوروبي بالاعتداء عليها، بينما بقيت السلطنة العثمانية محمية من أوروبا لعدم اتفاق دولها على تقاسم تركة «الرجل المريض».

بقيت الأمبراطورية العثمانية جسداً بلا روح بينما يفصلها بضعة كيلومترات عن أوروبا التي عرفت الطباعة عام ١٤٥٠ والبروتستانتية عام ١٥١٦ والعلوم ابتداء من القرن السادس عشر ثم الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩. حتى النخب التركية كانت تجهل العالم المحيط بها بما في ذلك حدوث الثورة الفرنسية.

قال أتاتورك في جامعة أنقرة عام ١٩٢٥ «تصوروا انتصارنا عام ١٤٥٣ في القسطنطينية ووقعه على تاريخ العالم. هذه القوة التي انتصرت على الدنيا وجعلت من اسطنبول ملكاً للأمة التركية، كانت أضعف من أن تقف في وجه رجال القانون كي تقبل تركيا دخول الطباعة إليها، والتي كانت رأت النور في نفس الفترة من احتلالنا

لاسطنبول. مضى علينا ثلاثة قرون من المراقبة والتردد والجهد والعناد قبل أن تسمح القوانين القديمة بدخول الطباعة بلادنا[٣].

كتب الأفغاني إلى أرنست رينان «إن الدين الإسلامي هو أفضل الأديان أفاد منه الغرب وتقدمت علومه عندما عرف الإسلام». يضيف الأفغاني: «إن العلوم عند المسلمين سبقت العلوم في أوروبا وإذا كان على الدين الإسلامي من مآخذ ـ كالتناقض بين العلم والدين ـ فجميع الأديان تتقاسمها»[٤].

---

(٣) B. Lewis, **La formation du Moyen-Orient moderne**, Ibid, p. 55.

(٤) **Culture et impérialisme**, Edward Said, Ibid. p. 368.

٨٠

أميركا ونحن

يشبه وضع العالم العربي بالنسبة إلى أميركا ـ من بغداد إلى القدس ـ ما كان عليه وضع أفريقيا وآسيا بالنسبة إلى أوروبا القرن التاسع عشر. بوارج أوروبا البخارية في القرن التاسع عشر هي البوارج الأميركية التي تسير على الذرة وتجوب المحيطات في القرن الواحد والعشرين وطائرات «ف ١٦» هي الـ«هريكان» البريطانية التي كانت تقصف العراق عام ١٩٢٠ لإحلال السلام فيه.

والعقلية نفسها التي كانت سائدة في أوروبا القرن التاسع عشر بالنسبة إلى دول المستعمرات يعتمدها الفكر الأميركي ـ الإسرائيلي اليوم بالنسبة إلى العرب والمسلمين.

قمة هذا التفكير المتغطرس الإبادي للآخر المختلف، هي التصرف

الإسرائيلي المتضمن خطة طرد المواطن الفلسطيني من أرضه باسم قانون عرقي أو ديني أو مصفحات أبرامس.

كان الاستعمار عملية تجارة وسوق، ثم تبشير في بعض الأحيان يتبعهما إطلاق رصاص وقصف بالمدفع واحتلال. والمشكلة التي يعانيها مجتمعنا من هذا الاستعمار القديم من نوع جديد في فلسطين، أنه يضعنا في مأزق حياتي يجعل من الاستشهاد و«الإرهاب» أمرين لا مندوحة من اللجوء إليهما. هذه الشهادة في سبيل الحق استعملها اليابانيون عندما اعتمدوا وسيلة الكاميكاز لضرب الأسطول الأميركي الذي أصبح على بضعة كيلومترات من شواطئهم. واستعملها الصينيون في حرب كوريا عندما أرسلوا جحافل جرارة تتصدى للجيش الأميركي المحتل. إلّا أن تلك الحضارتين كانتا تمشيان على رجلين! رجل الحداثة من جهة ورجل العقيدة والدين من جهة أخرى. المجتمع الياباني الذي كان مؤمناً بألوهية الأمبراطور، كانت أجياله تتخرج من مدارس على النمط الأوروبي ومصانعه تنتج البوارج والطائرات. كذلك كان المجتمع الصيني الذي اشترك في حرب كوريا وفييتنام. من الخطأ التصور أن هذه الشعوب لم تكن تستطع مجابهة الاستعمار إلّا بعد أن تتخلى عن تاريخها وماضيها وأسباب وجودها وتضامنها ووحدتها، إنما بشرط أن لا يشكّل هذا التاريخ عائقاً في سبيل دخول العصر وبالتالي قدرتها على المجابهة.

ليس المطلوب منا كعرب وكمسلمين أن نسدل الستار على الماضي، ولم يفعل ذلك من قبل غيرنا من الحضارات ـ الصين واليابان والهند ـ بل أن نميز بين ما يعوق تقدمنا وما يفيده، وما يجعلنا ندخل العصر لنصبح في مصاف الدول المتقدمة وما يحرمنا منه.

موضوع الأديان مطروح شئنا أو أبينا

لم تكن نظريات صموئيل هنتنغتون في كتابه «صدام الحضارات» أصابت الهدف لو أن سقوط الاتحاد السوفياتي لم يكن قد حصل في أوروبا أواخر القرن الماضي.

انتقلت الإنسانية من عصر صراع المعسكرات، دون الالتفات للعرق وللدين، إلى تسليط الأضواء كلها على العرق وعلى الدين وعلى الهوية.

كان الانتماء الديني جزءاً صغيراً من الهوية في زمن المعسكر الاشتراكي، فأصبح في القرن الواحد والعشرين الجزء الأكبر منها. التفرقة الدينية والعرقية أصبحت أساساً لكل شيء. وهذا الواقع لا نستطيع جبهه كعرب وكمسلمين وتجاوزه إلّا بمعرفة أنفسنا وتقديم

الأولويات على غيرها من الثانويات:

١. الأولوية الأولى هي الدخول بالحضارة من غير تردد أو وخز ضمير بعد الأخذ بعين الاعتبار السوابق التاريخية وما أدت إليها.
٢. إننا أمة واحدة بفضل القرآن والنبي محمد.
٣. إن العربي المسيحي قد اعتنق الإسلام كحضارة بدلت وجه التاريخ والإنسانية وإن بقي على إيمانه المسيحي الذي سبق الإسلام تاريخياً فاستلهمه الإسلام.

لقد اتخذ موضوع المسيحيين العرب أبعاداً مقلقة في النصف الثاني من القرن العشرين مرتين، الأولى في حرب لبنان حيث انضوى قسم كبير من المسيحيين ضمن فريق ومعظم مسلمي لبنان ضمن فريق آخر. والثانية عندما طرحت قضية هجرة المسيحيين من العالم العربي وخاصة من مصر وفلسطين ولبنان وسورية والعراق، وتناولها محمد حسين هيكل في كتابه «عام من الأزمات ٢٠٠١-٢٠٠٢»[(١)].

(١) «بقي أنه ما دام هذا الحديث كله حديث ضمير، فإن هناك ملاحظة لا بد لها أن تقال، وهي ملاحظة تعبر ضفاف النهر الواحد، وتتخطى صحارى الوطن المصري، واصلة بقلق حقيقي إلى المشرق العربي. وهي ملاحظة تتعلق بمسيحيي المشرق (في فلسطين، ولبنان، وسورية، والعراق، وحتى تركيا).
«هناك ظاهرة هجرة بينهم يصعب تحويل الأنظار عنها، أو إغفال أمرها، أو تجاهل أسبابها، حتى وإن كانت الأسباب نفسية تتصل بالمناخ السائد في المنطقة أكثر مما تتصل بالحقائق الواقعة فيه!
«وأشعر، ولا بد أن غيري يشعرون كذلك، أن المشهد العربي كله سوف يختلف إنسانياً وحضارياً وسوف يصبح على وجه التأكيد أكثر فقراً وأقل=

= ثراءً لو أن ما يجري الآن من هجرة مسيحيي المشرق ترك أمره للتجاهل أو التغافل. أو للمخاوف حتى وإن لم يكن لها أساس».
يضيف هيكل: «وظني أن جموع المسلمين في الأمة مطالبة أكثر من أي وقت مضى بأن تعرف وتدرك بيقين أهمية مواريثها وحيوية تنوُّع مصادر ثقافتها، وخصوصية التركيبة الخلاقة والمبدعة في تشكيل حياتها.
أي خسارة لو أحس مسيحيو المشرق ـ بحق أو بغير حق ـ أنه لا مستقبل لهم أو لأولادهم فيه، ثم بقي الإسلام وحيداً في المشرق لا يؤنس وحدته غير وجود اليهودية الصهيونية بالتحديد أمامه في إسرائيل؟!

٨٢

الحب والمعتقد والدين

للحب غذاءان. الخيال والبعد: قيس وليلى، تريستان وإيزولت، جبران خليل جبران ومي زياده.

المعتقد كما الدين، يتصل بجذور الإنسان: المولد، العائلة، القبيلة، اللغة الوراثة الحب. في المعادلة بين المعتقد والعقل يكمن تاريخ الإنسانية وعلاقتهما بالحضارة. كيف المحافظة على التراث وبالوقت نفسه خوض عباب المستقبل الذي هو الإبداع.

في الأديان جناح إيماني وجناح حضاري، مواقع للتقوى ومواقع للتقية، وموقع للإلهام ومواقع للثقافة.

عندما تكون الأمة بخطر مبين يتغلب الجناح الإيماني على الجناح

الثقافي فيها. تتغلب التقوى في الدين على التقية فيه: حرب الجزائر ضد فرنسا، حرب الفلسطينيين ضد إسرائيل. اعتماد الدين كسلاح ضد المعتدي ضرورة لا بد منها، ولكن المدرسة والعلم هما صنوان لكبح العدوان. أوَ لم يكن الإيمان والدين حاضرين في ذهن الطيار الياباني الذي يقوم بعملية «الكاميكاز» ضد الأسطول الأميركي في بحر اليابان؟ وغاندي ألم يكن هندوسياً حتى أخمص القدمين عندما كان يتحدى الاستعمار البريطاني في القرن العشرين؟

كيف الحفاظ على الإيمان واعتماد العلم؟

أوروبا النهضة فصلت الدين عن الدولة وإن بدا أحياناً أنها توحدهما[1] كما في إنكلترا. في الأقطار الشيوعية أصبح الدين قسماً من التاريخ مع نتائج متفاوتة. يبقى أن فصل الدين عن الدولة استمر بعد انهيار الشيوعية وهو من الثوابت التي لم يُعد النظر فيها.

لا شك بأن هناك بديلاً للعلمنة، بديلاً لفصل الدين عن الدولة لدخول الحضارة. قد يكون سبيلاً غير العلمنة الأوروبية اعتمدته اليابان والهند وباستطاعتنا أخذ العبر منه. فهل أن الإسلام الذي تجاوز كل الوثنيات ودفع بحضارات متعددة إلى قمم رقي لم تعرفها

(١) في إنكلترا، ومنذ هنري الثامن الذي أعلن انشقاق الكنيسة البريطانية عن روما عام ١٥٣٤، الملك هو رأس الكنيسة بالوقت نفسه.

الإنسانية من قبله عاجز اليوم أن يجد الحلول الملائمة لهذه العقدة بين الإيمان والعقل، بين التقوى والتقى؟ من الأندلس المسيحي إلى إيران الزرادشتية إلى الهند البرهمانية كان الإسلام بمثابة النور الذي ينير طريق التقدم والرقي للشعوب، فهل يعجز اليوم عن رفع التحدي والدخول سباق العصر؟ فكما أن أوروبا والصين واليابان أوجدت حلولاً لتعامل الدين مع الدنيا، لا بد لنا كمشرقيين وكمسلمين أن نجد حلاً يناسبنا ويخرجنا من المأزق الذي لخصه عبد العزيز بوتفليقة بمداخلته في مؤسسة الفكر العربي في بيروت كانون الثاني عام ٢٠٠٣: «لماذا النهضة العربية ـ الإسلامية في ركود؟»[٢].

إننا مدعوون بعد الفواجع التي أصابتنا: فلسطين، بن لادن، العراق، للعودة إلى تعاليم الإسلام الأصيل إنما ليس بالشكل السلفي الذي يعيد الراهب المسيحي إلى كهفه والبوذي إلى وعر جبله، بل الفتاة والفتى العربي إلى الحرية إلى الجامعة والمختبر والمصنع. في رسالة الإسلام قدرات تفوق جميع ما عرفته الإنسانية من ثورية: نشيد التماثيل لأقزام البشر بينما النبي العربي حطم جميع التماثيل. نشيد القبور ـ القصور لمن لا يستحقون سلاماً بينما النبي العربي باقٍ بيننا من غير مزار.

في الإسلام حرية ليس فوقها حرية، فما بالنا لا نقيد إلّا الحرية في بلادنا؟ دعوا الناس تقول ما تشاء وخذوا ما طاب لكم منها. العقل الرشيد الراشد هو الحكَم بين الناس. تقييد العقل كان قبل الإسلام، فحرره الإسلام من الصنمية فلا تعيدوه إلى الوراء.

---

(٢) **فشل النهضة العربية**، دار النهار، ٢٠٠٤، ص ١٩.

٨٤

تجربتنا مع السوفيات يجب أن لا تتكرر

الآحادية الأميركية قد تدوم عشرات السنين وقد تنتهي بعد بضع سنوات كما جرى للاتحاد السوفياتي ولأسباب متقاربة: التفاوت في المستويات بين الأعراق والأديان والطبقات الاجتماعية.

في عالم المعسكرين انخرط جزء كبير من العالم في أحدهما وأخذ الشرق العربي نصيبه في النزاع.

انتهت المأساة بعد مراحل جلها مفجع: خروج مصر من حلفها مع السوفيات في السبعينيات. دخول المملكة السعودية في صراع ضدهم عن طريق حرب أفغانستان وما جرّه ذلك من تداعيات بدءاً بتدمير البرجين العالميين في نيويورك ـ الذي لم يكن ليحصل لولا انكفاء «المجاهدين» عن محاربة الإلحاد في افغانستان ـ إلى حرب أفغانستان

جديدة إلى اجتياح العراق وتحرير أطماع إسرائيل من كل قيد في فلسطين.

خبرتنا مع الاتحاد السوفياتي كانت مضنية في كل مراحلها لعدة أسباب نوردها على التوالي:

١. اعتقادنا بأن شراء السلاح من المعسكر الاشتراكي يكفي وحده لمنازعة السلاح الإسرائيلي الأميركي المتفوق في ساحة القتال.
٢. تصورنا أنه في معركة الحياة والموت مع الدولة العبرية باستطاعتنا الاستمرار في نمط معين من العيش ألفناه سابقاً: جنون العسكر ومجون الحكام .

واقع الأمر أننا بقينا على رصيف الرأسمالية التي هي استثمار للمال على كل الصعد: الفائدة المالية، الفائدة العلمية، الفائدة السياسية.

كان تعاملنا مع الاشتراكية العالمية على النمط نفسه: اشترينا سلاحهم وسخرنا من طريقة عيشهم. ظننا أنفسنا نشتريهم ونزدريهم فكان العكس إذ باعونا وازدرونا. ازدرونا لسوء استعمالنا سلاحهم والبعض يقول إنهم لم يبيعونا منه إلّا السلاح الذي نستحقه أو السلاح الذي يستحقنا أو الذي يسهل على مجتمعنا في «طور النمو» أن يستعمله. وكانت النتيجة معروفة سلفاً. غيرنا أخذ عن المعسكرين ما يفيده: اليابان عن الأميركان، الصين عن السوفيات، ونافسوا الاثنين في عقر دارهما، علمياً واقتصادياً وسيطرة على العالم.

بدل أن نصنع كنا نشتري. وبدل أن نبني المدارس والمصانع كنا نبني القصور ونشتري اليخوت بينما جامعاتنا تتداعى وبلادنا تتهاوى.

إذا ما قيض لنا أن نعيد التعاون مع إحدى الحضارات المتقدمة كما جرت الحال بيننا وبين الأميركان أو السوفيات أحياناً، فلا بد لنا من أخذ العبر مما مضى: الفارق شاسع بين خاطف طائرة وسارق خرائط مشروع طائرة.

انتجت الصين عام ٢٠٠٤ ٨٣٪ من التراكتورات، ٧٥٪ من الساعات، ٧٠٪ من اللعب، ٦٠٪ من الدراجات، ٥٠٪ من الكمبيوتر والتلفونات في العالم. أصبحت الصين دولة بالستية عام ٢٠٠٣ إذ أرسلت رائداً إلى الفضاء. في مطلع القرن العشرين لم يكن فارق حضاري يذكر بين أمبراطورية الصين والسلطنة العثمانية التي كنا كعرب نشكل القسم الأعظم منها.

لا يخفي المحافظون الجدد في واشنطن نيتهم - ولا حتى في المشروع السياسي الأميركي[١] - أن ازالة كل منافس مرتقب للولايات هو من أوليات المواقع التي يجب درء أخطارها بجميع الوسائل المتاحة. يضيف إلى ذلك روبرت كاغان قائلاً: هدفنا على الأمد الطويل هو تغيير النظام في بكين. وقد شكلت حرب العراق بالنسبة إلى المتطرفين من المحافظين الجدد وانهيار الاتحاد السوفياتي، المقدمة لما قد يدبر حيال الصين في المستقبل .

كان العراق يشكّل محوراً للصمود تجاه التحالف الإسرائيلي - الأميركي فأزيل من الوجود السياسي في المنطقة. كما تشكّل الصين خط دفاع تجاه الهيمنة الأميركية على الشرق الأقصى. لا بد من التعامل مع الأمر على هذا الأساس.

---

(١) **The National Security Strategy of the USA**, Sept, 2002.

فإذا كان قدرنا كعرب ومسلمين أن نتعاون مستقبلاً مع دولة عظمى جديدة لا بد لنا من أخذ العبرة من الماضي القريب والبعيد:

١. التعاون لا يعفينا من الاتكال على النفس.
٢. تطوير الذات يأتي قبل تطوير وسائل الدفاع لأنه مقدمتها.
٣. توحيد قدراتنا الاقتصادية والثقافية أمر لا مفر منه لنجاح مشروع النهوض بالوطن.
٤. احترام الآخر ومنجزاته هو ضرورة لتجاوز العقبات التي تشكلها ادعاءاتنا القاتلة الفارغة المضمون.
٥. قدراتنا النفطية لا تميزنا عن غيرنا بقدر ما تحمّلنا مسؤوليات جساماً أكبر من مسؤوليات غيرنا.
٦. ما جرى في العراق نموذج عن المصير الذي ينتظر سائر الشعوب العربية إذا استمرت على ما هي عليه من تبذير ثرواتها بحيث تبقى فريسة للطامعين.
٧. التحرر الفكري وقبول النقاش واحترام الجدلية التي هي من أصول الفلسفة في كل العصور، والتي كنا من روادها في أيام الفتوحات وفي الأندلس كل هذا يؤدي إلى التواضع ثم إلى المعرفة.

٨٥

الحضارة

من الأخطاء الرائجة عند أبناء الحضارات السابقة أو الغابرة أن يحسبوا حضارتهم ما زالت متفوقة فينامون على أمجادهم قريري العين: حضارة الإغريق بالنسبة إلى اليونان، حضارة روما بالنسبة إلى الطليان.

من السهل علينا كعرب وكمسلمين أن نعزو التأخر الذي أصابنا إلى الحكم العثماني أولاً، وإلى معاهدة سايكس بيكو ثانياً، وإلى إقامة إسرائيل ثالثاً وتداعياتها على كل الصعد. ولكن ينبغي أن نطرح السؤال بشكل آخر أيضاً: لماذا كل هذه التحديات الاستعمارية الاستيطانية الحضارية لم تحدُ بنا، كما جرى للصين وروسيا واليابان، أن نقتحم العصر بدلاً من أن نضع بيننا وبينه الحواجز والمعوقات؟

لا يستطيع شعب أن يعتبر نفسه جزءاً من الحضارة إذا كان ٥٠٪ من مواطنيه أميين حتى لو كان جده أرسطو وخاله أفلاطون.

ما دمنا نعتقد أننا أبناء حضارة وأصحاب رأي فيها بينما حالتنا على ما هي عليه، فنحن معرضون وباستمرار إلى السلب والنهب، إلى القتل والتهجير. كل دول النفط العربية معرضة للاجتياح بجيوش احتلال إذ يشكل مخزونها النفطي موقع تهديد للدول الصناعية. موقعنا في عالم اليوم شبيه بموقع دولة أفريقية تمتلك منجماً لليورانيوم الذي هو ضرورة لوسائل الدفاع وللصناعة في الدول المتقدمة. كتب جبران خليل جبران «ويل لأمة تأكل مما لا تزرع وتلبس مما لا تنسج» في أواخر القرن التاسع عشر. ماذا تبدل في الموضوع؟

فروع من الحضارة الأوروبية المتقدمة هوت، النازية ثم الشيوعية ثم ذهب الشاعر الفرنسي بول فاليري إلى تصور الحضارة الغربية برمتها قيد الانهيار بين أعوام ١٩٣٩ و١٩٤٥ حينما قال: «نعرف، نحن الحضارات، بأننا عرضة للموت».

أما نحن فقد بقينا وانقرضنا في آنٍ معاً: بقينا شعباً واحداً صاحب لغة واحدة ودين واحد من المحيط إلى الخليج، وانقرضنا كحضارة كان لها واقع متقدم في تاريخ الإنسانية. انتصرنا بالرسالة والكلمة وخسرنا كل شيء. أسباب النصر مكتوبة وأسباب الهزيمة معروفة. القاعدة والوسيلة للعودة على مسرح الحياة والتقدم ولم تعد سراً على أحد فلماذا لا نعتمدها؟

الحضارات تبنى بتحرير العقل وتهوي عند تكبيله.

ليس من بديل للمدرسة الأوروبية اليابانية ـ الصينية، وكل المحاولات

الرديفة بغير المدرسة والجامعة والمختبر مصيرها الفشل لا محالة.

بنفس القدر الذي يجعلنا نؤكد أن H_2O أي الماء هو معادلة حضارية لا بديل لها أكنا في الصين أو اليابان، فإن القواعد للدخول في الحداثة والحضارة لا بديل عنها لجميع الأمم والشعوب.

في كل مرحلة من تاريخ الإنسانية توجد حضارة واحدة متميزة سائدة متقدمة. وما تبقى فهو ثقافات، منها المفيد ومنها ما تجاوزه الزمن. كانت الحضارتان المصرية والبابلية أم الحضارات. ثم أصبحتا فصلاً من فصول تاريخ الحضارة. كذلك الحضارة اليونانية بعدهما ومن ثم روما. استمرت الحضارة العربية الإسلامية تقود العالم لثلاثة قرون ثم بقيت متألقة طيلة خمسة قرون بعد ذلك: الفلك، الطب، الهندسة، الفلسفة، التاريخ. يقول أحد أكبر الاختصاصيين في القرون الوسطى(١) أن العالم الإسلامي استطاع أن يبني مجتمعاً اقتصادياً وثقافياً متقدماً في الثراء والقوة إلى درجة أنه لم يأبه إلى حضارة أخرى كالمسيحية التي أصبحت تنافسه في قيادة العالم ابتداء من القرنين الثاني عشر والثالث عشر. في القرن الرابع عشر جال ابن بطوطة في العالم الإسلامي من الأندلس إلى مالي إلى جاڤا إلى سومطرا فاختتم رحلته بالقول: «لقد زرت العالم بأسره». بالنسبة إليه لم يكن العالم المسيحي موجوداً.

---

(١) جاك لو غوف، Jacques Le Goff مواليد ١٩٢٤، مدير معهد الدراسات العليا في علم الاجتماع ـ باريس. يعتبر من أكبر الباحثين في القرون الوسطى بعد مارك بلوك وجاك بيرن. «المثقفون في القرون الوسطى» Seuil, Paris رجل القرون الوسطى» Seuil هل أن أوروبا ولدت في القرون الوسطى» Seuil، Le Nouvel Observateur, 29 avril-5 mai 2004.

في القرن السادس عشر تبوأت أوروبا عرش النهضة بمفاهيمها وقيمها وعلومها، وما زالت حتى اليوم القاعدة والمثال الذي يقتدى.

لماذا استطاعت أوروبا بشقيها الغربي والشرقي أن تتجاوز حربين عالميتين مدمرتين، الحرب العالمية الأولى والثانية، فتستعيد مكانتها وسلطانها على العالم بشكل أو بآخر؟

أليست المدرسة والجامعة والمختبر والمصنع هي الجواب على بقاء القارة الأوروبية في موقعها الرائد وعلى جميع الصعد.

كيف ندخل الحضارة فنصبح من روادها، كيف نصنع التاريخ؟ كيف نحقق القول الكريم «كنتم خير أمة أخرجت للناس»؟ هذا هو السؤال الذي يفرض علينا جواباً لا بد منه.

٨٦

فلسطين والأندلس

نتائج الحرب العالمية الثانية من حيث رسم حدود أوروبية جديدة: روسيا ـ بولونيا ـ ألمانيا[1] لم تعد خاضعة للنقاش كما الحدود التي رسمت في أفريقيا وآسيا بعد أن استقلّت أقطارها. لأن فتح ملفاتها معناه فتح ملفات حروب جديدة لا نهاية لها.

بالنسبة إلى إسرائيل، اتخذ الموضوع شكلاً مختلفاً. إذ بالإضافة إلى النتائج التي تحققت باعتراف الأمم المتحدة بدولة إسرائيل وبحدود لها غداة الحرب العالمية الثانية، فقد ضمت إليها أراضي جديدة عن طريق الحرب والتهجير.

---

(١) عدلت الحدود وجرى ما يسميه الإسرائيليون «ترناسفير» أو نقل سكان على حساب ألمانيا لصالح روسيا وبولونيا.

فبينما كان للعرب من أرض فلسطين ٥٥٪ ولليهود ٤٥٪ بموجب قرار الأمم المتحدة، لم يبق لهم بعد حربين - ١٩٤٨ و١٩٦٧- إلّا ٢٢٪ من أرض فلسطين القديمة. في حرب ١٩٦٧ استولى الجيش الإسرائيلي على الضفة وعلى غزة. ويخطط شارون اليوم، بواسطة الجدار الواقي داخل الضفة، للاستيلاء على ٤٨٪ من ٢٢٪ المتبقي من أرض فلسطين بعد حرب ١٩٦٧. أما غير المنظور من المخطط الإسرائيلي، والمدعوم أميركياً على ما يبدو، فهو يؤول إلى استيلاء إسرائيل على كل أرض فلسطين.

الأمور واضحة وهي تتعدى نطاق الحرب العالمية الثانية ونتائجها.

موضوع إسرائيل يدخل في إضبارات أخرى لا تتعلق بالاستعمار فقط، بمفهوم القرن التاسع عشر أو العشرين، بل يعود جذوراً إلى ما قبل التاريخ في الشكل والأساس. إنه مشروع يوناني لاستعادة آسيا الصغرى من الأتراك وعربي لاسترداد الأندلس من الإسبان. يضاف إلى ذلك خليط من مغامرات تاريخية كتب لها النجاح أحياناً كأفريقيا الجنوبية وهونغ كونغ ومكاو على تخوم الصين. إسرائيل هي إضافة إلى كل ذلك مشروع صليبي جديد في أرض فلسطين مع فارق الزمان والعقلية، إنما على نفس الأرض التي استولى عليها الصليبيون.

علماً أن ما أقدم عليه الصليبيون كان في صلب أخلاقية ذلك العصر وليس مناقضاً لها سوى بالبربرية التي اتسموا بها عند استيلائهم على بيت المقدس وإبادتهم لسكانه. كان المسلمون في تلك الحقبة من الزمن بمستوى حضاري يفوق مستوى أعدائهم.

المقارنة التي يرددها بن لادن عن الصهيونية والصليبية صحيحة المضمون إنما خاطئة في النتائج والزمان والمكان والوسائل. بن لادن يقول حقيقة لا جدال فيها. إنما ثقافته السلفية تجعله يذهب إلى استنتاجات لا تتفق مع قيم العصر الذي نعيشه.

ما يقوم به بن لادن وأعوانه على صعيد الاعتداءات المدنية مثلاً، يتنافى مع القواعد الحضارية المعمول بها في النصف الثاني من القرن العشرين. يمثل بن لادن بشكل أو بآخر - في الحضارة العربية الإسلامية - ما يمثله المحافظون الجدد بالنسبة إلى المسيحية عامة والصهاينة من الليكود بالنسبة إلى الشعب اليهودي.

الفارق أن الحروب الصليبية كانت في منطق العصر، وقد فتح محمد الثاني القسطنطينية المسيحية بعدها بثلاثة قرون باسم الدين الإسلامي. أما المشروع الصهيوني فهو يناقض العصر ومنطق العصر. أوَ ليس من مفارقات الزمن أيضاً أن تقوم أوروبا العلمانية بإنشاء دولة دينية في فلسطين؟

بن لادن ملاحق دولياً لجريمته النيويوركية. وصدام حسين سقط لجرائمه الكردية. من سيسقط أرييل شارون لجرائمه العربية ومن سيدين المحافظين الجدد على جرائمهم في العراق وفي فلسطين؟

في ممارسات الجيش الأميركي الإجرامية من الفلوجة إلى النجف ألّا يعتمد المحافظون الجدد سلفية إرهابية بدلاً من العقلانية الحضارية، ورواسب دينية سلفية بدلاً من الدين؟

اعتماد إسرائيل قاعدة عسكرية للولايات المتحدة يتضمن من الرجعية

ما يتضمنه اعتقاد بن لادن أن محاربة الكفار هي البوصلة التي يجب أن تقود العالم الإسلامي بينما أتباع المسيح هم أقرب الناس إلى المسلمين، بل حلفاؤهم غالب الأحيان.

تلتقي الكنيسة الكاثوليكية ـ معارضة تحديد النسل والموقف المشترك بين قضيتي الحجاب والصليب ـ مع المسلمين المتشددين. بينما الفريق البروتستانتي في فروعه الأميركية[٢] يعيش في أساطير ميتافيزيقية تشبه إلى حد بعيد هلوسات بن لادن السلفية «كحرب هرمجدون» الفاصلة بين الخير والشر في فلسطين وأسطورة هاجوج وماجوج[٣].

إن المحافظين الجدد. أحرجوا الأوروربيين وتحدّوهم على كل الصعد. أوروبا ومفكروها ينظرون إلى أميركا وكأنها ولد متفوق يمتلك لعباً ووسائل أكبر من سنه.

وما يقوم به المحافظون الجدد من دور تحريضي في فلسطين لأكبر دلالة على هذا التهور الذي مآله الجريمة كما جرى في سجن أبو غريب في بغداد.

لا يشبه نسف الطالبان لتمثال بوذا العملاق في أفغانستان إلّا

---

(٢) **مدينة على جبل**، المصدر نفسه، و**الصهيونية المسيحية**، محمد السماك، المصدر نفسه.

(٣) سبقت الإشارة إلى أن الرئيس بوش مساء الهجوم على العراق تحدث مع الرئيس شيراك قائلاً إنها حرب هرمجدون وصراع هاجوج وماجوج، فاضطر الرئيس الفرنسي الطلب من مستشاريه الاستقصاء عن معاني كلام الرئيس الأميركي.

محاولات استيلاء الإسرائيليين على الجامع الأقصى وكنيسة المهد.

حتى في إيجابياتها وتجلياتها علمياً واقتصادياً وثقافياً، تبقى إسرائيل في قلب العالم العربي عملاً استيطانياً سلبياً لا فائدة ترتجى منه لشعوب المنطقة.

لأن كل ما يتصل بها قائم على أسس اصطناعية خارجة عن منطق الجغرافيا والتاريخ والطبيعة.

هل أن هذا الاعتداء سيعلمنا كيف ندخل العصر وكيف نصبح أسياداً فيه، كيف نأخذ الحضارة بقرنيها ونخضعها لمشيئتنا كما فعل اليابانيون والصينيون والروس من قبلنا؟

هذا هو السؤال الذي ينتظر جواباً منا ولا بد لنا من أن نعطيه كي ندخل المنتديات الدولية مرفوعي الرأس لا مطأطيها، أي أنداداً لا أتباعاً.

الناس وفلسطين

لا تحمّل الناس همومك بل احمل هموم الناس.

أحب الناس كما أحببت نفسك. إنهم أنت فأحبب نفسك فيهم. إن الحياة وقفة عز قال انطون سعاده. إنها وبلا شك وقفة عز إنما وبالوقت نفسه ساعة تأمل وتواضع وقرار. قال ميشال عفلق «القومية حب قبل كل شيء» وإن الرسالة العربية الخالدة بادئة منذ الآن وأن «في حياتنا القومية حادث خطير هو حادث ظهور الإسلام ولا يفهم الإسلام حق الفهم إلّا الثوريون».

قد يكون من مصلحتنا كعرب وكمسلمين أن يقطع الإسرائيليون خيوط الجدل معنا فيستولوا على فلسطين بكاملها ومن البحر إلى النهر. علماً بأن إرادة السلام والوئام ما زال لها في قلوبنا منزلة وزوايا

تعشش فيها، وهم جادون في قتلها. فليقتلوها لنستريح. لا تتركوا لنا شيئاً من فلسطين. اغتصبوها كلها كي نستردها بكاملها. نستطيع الانتظار. لقد علمتمونا الانتظار. إن «الهولوكست» غير ممكن بالنسبة لنا كما تصوره هتلر بالنسبة إليكم.

نبعنا لا ينضب، أرحام نسائنا لا تعرف الملل ولا الكلل ولا اليأس.
حضارتنا لا تعرف الموت وقد أثبتنا ذلك عبر العصور.
سنبقى في التاريخ حتى يفنى التاريخ.

نبذة عن المؤلف

من مواليد صور عام ١٩٣٣.

- أتم دراسته الثانوية في مدرستي الفرير والمقاصد في صيدا.

- نال إجازة الحقوق في جامعة القديس يوسف بيروت عام ١٩٥٦ وماجستير في التاريخ من المعهد الفرنسي للآداب.

- انتسب إلى نقابة المحامين في بيروت عام ١٩٥٦.

- التحق بالمجلس النيابي اللبناني كمستشار قانوني عام ١٩٧٠ وعيّن مديراً عاماً مع الاحتفاظ بصفته القانونية عام ١٩٧٦.

- اشترك بهذه الصفة في اجتماع الطائف عام ١٩٨٩ وفي إعداد تعديلات دستور عام ١٩٩٠ الساري المفعول.

- درّس القانون الدستوري في جامعة الحكمة للحقوق من عام ١٩٧٥ إلى عام ١٩٨٧.

صدر له:

- **Anatomie d'une guerre et d'une occupation**, Ed. Galilée, Paris 1977.

- **Dimitrov et les roses d'Arabie**, Ed. Galilée, Paris, 1979.

- **Paix d'Israel au Liban, Ed. L'Orient** - Le Jour, Beyrouth 1983.

- **Le Liban dans la tourmente**, Ed. L'Orient, Beyrouth, 1991.

ـ مترجم إلى العربية تحت عنوان: **لبنان في مهب الريح** شركة الشرق للنشر، بيروت ١٩٩١.

- **Salut Jérusalem**, Ed. FMA; - L'Harmattan, Beyrouth; Paris, 1992.

ـ **بين الطائف والطوائف**، شركة المشرق للنشر، بيروت، ١٩٩٤.

- **Constitution libanaise: Textes et commentaires**. Beyrouth, 1995.

ـ **الدستور اللبناني**، مطابع عزيز، ١٩٩٨.

فهرس الأعلام

ت

ث

ج

ح

خ

فهرس الأماكن

أ

ب

ت

ج

ح

خ

د

ر

س

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

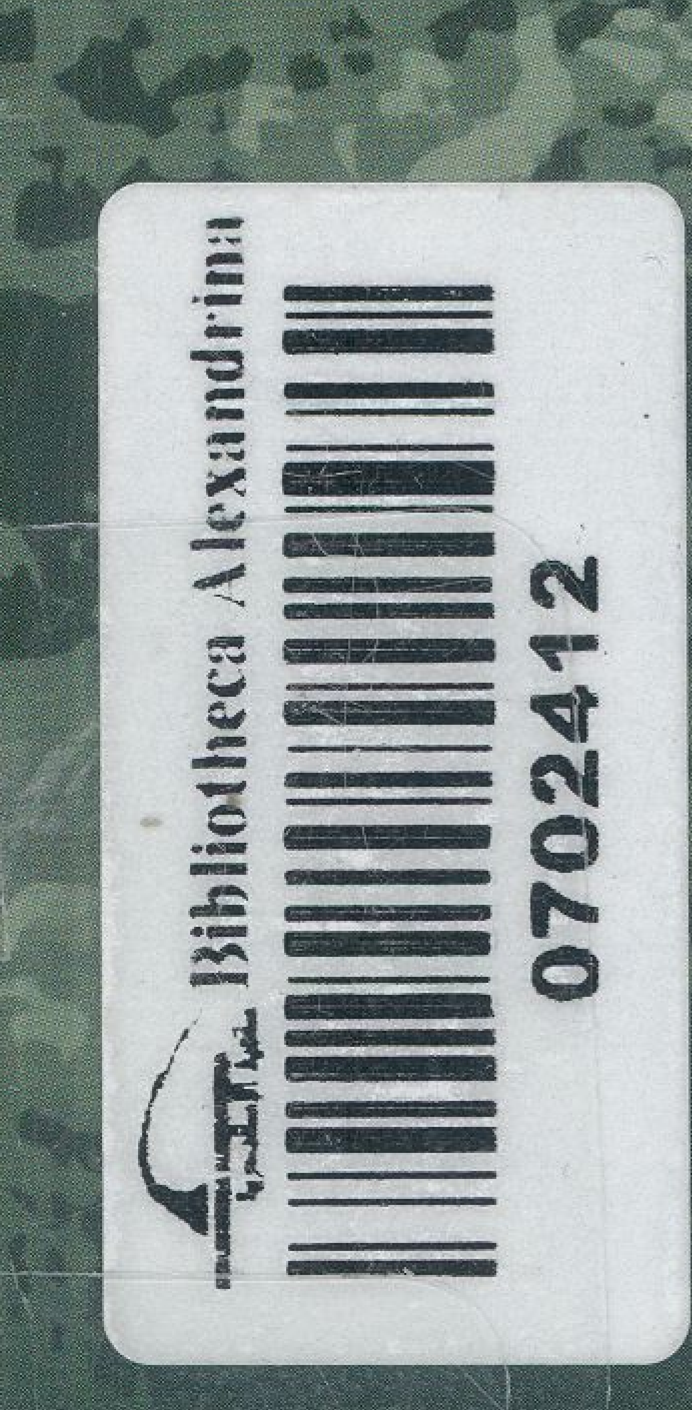
و

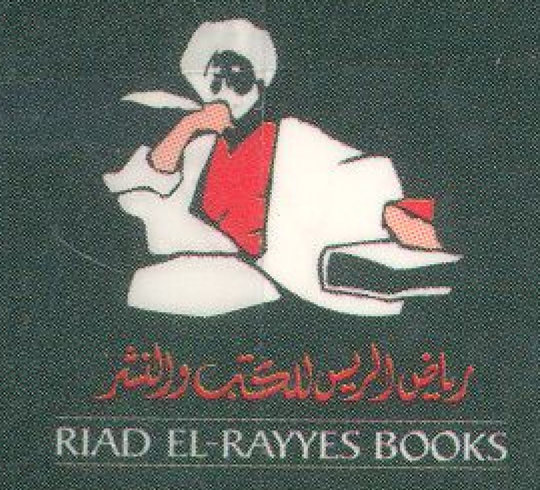
ي

بشارة منسّى

رسائل إلى العروبة

هل أن هذه الرسائل دعوة للعرب أجمعين كي يأخذوا مصيرهم بأيديهم أم أنه دعاء كروان آخر؟
هل أن ما يورده هذا الكتاب مدعاة للتشاؤم من غير رجعة أم إلى التفاؤل رغم جميع النكبات؟
كان الأمويون والعباسيون وكان الأندلس. فهل فينا من يستوعب الماضي ويستفيق على المستقبل؟
لا شك بأن بشارة منسى يطرح في هذا الكتاب معظم الأسئلة التي تراود فكر كل عربي.






ISBN 9953-21-184-1
9 789953 211848